

ابراهيم عبد المجيد

السلسلة البرونزية

البلد الآخر



منتديات مكتبة العرب

<http://library4arab.com/vb>

منتديات مكتبة العرب

<http://library4arab.com/vb>

منتديات مكتبة العرب

<http://library4arab.com/vb>

السلسلة الأخرى
رواية

أبراهيم عبد المجيد

البلد الأخرى

رواية



RIAD EL-RAYES
BOOKS
بازار الكتب والقلم
LONDON - CYPRUS
الرياض - بيروت

منتديات مكتبة العرب

<http://library4arab.com/vb>

منتديات مكتبة العرب

<http://library4arab.com/vb>

THE OTHER VILLAGE

BY

IBRAHIM ABDUL MAGID

First Published in the United Kingdom in 1991
Copyright © Riad El-Rayyes Books Ltd
56 Knightsbridge
London SW1X 7NJ
U.K.

CYPRUS: P.O. Box: 7038 - Limassol

British Library Cataloguing in Publication Data
Magid, Ibrahim Abdul
The Other village
I. Title
892.736 [F]

ISBN 1853131757 Paperback

All rights reserved. No part of this publication
may be reproduced, stored in a retrieval
system, or transmitted in any form or by any
means, electronic, mechanical, photocopying,
recording or otherwise, without prior permission
in writing of the publishers

الطبعة الأولى: تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٩١

الاهداء

إلى فاطمة ...

١

انفتح باب الطائرة فرأيت الصمت.

شيء نادر أن تشعر في ظهرك بهواء المكيف بينما صدرك ووجهك
يقابلان الشمس وأنت بعد لم تفارق باب الطائرة، لكن الذي خلفي
دفعني برفق فخطوت أول خطوة.

ما كنت افارق السلم الصغير، وتلامس قدمي الأرض، حتى
احسست أنني والأرض والقضاء شيء واحد، ساخن وفارغ. وكان
عليّ أن أمشي المسافة القصيرة حتى صالة المطار.

المطار صغير ليس فيه غير طائرة واحدة صغيرة بعيدة لونها
أصفر قاتم، على جانبها رأيت صورة العلم الأمريكي. وتحت
الصورة قرأت بالانكليزية (القوات الجوية للولايات المتحدة).

على باب الصالة رأيت بعض الجنود سمر الوجوه، زعق أحدهم:
«الرجال في صف والنساء في صف». وشاهدت خلف زجاج جانب
الصالة سيراً عريضاً يتحرك دائرياً فوق الأرض، فادركت أن فوقه
ستصل حقائلي.

منتديات مكتبة العرب

<http://library4arab.com/vb>

- تقدم يا ولد.

زعل في أحد الجنود. أدركت أن الذين أمامي دخلوا إلى الصلاة.
وأني نمت واقفاً في الطابور.

- هل نسيتني؟

- اطلاقاً، كنت أنتظرك.

أجبت بعد أن اضطررت وكنت أعذر. قال:

- إذن لا تغادر المطار دوني.

وبدأت الحقايب تظهر فوق السير، فوجدت نفسي أتركه وأقرب منها.

ما الذي يجعلني أنفر من هذا الشاب؟

حملت حقيبتني الحمراء الصغيرة، ووضعتها أمام أحد الكشافين الذين بدوا صغاراً لا يتجاوز أكبرهم العشرين من العمر. فتحت الحقيبة بسرعة، وبسرعة أيضاً انتهى الكشاف من فحصها. ما كنت أغلقها حتى أمرني بفتحها من جديد.

- ما هذا؟ كتب؟

- «طبيبك الخاص». مجلة مصرية..

- هذه ممنوعة.

تعلقت عيناى بعينه. لم أجد ما أقوله.

- يا أخي ما للمصريين يحبون القراءة؟

تسأل وأنا صامت. هل أقول إن «فاروق» الذي أرسل لي عقد

العمل، أوصاني بإحضار هذا العدد الخاص عن الحمل والولادة؟
هل أقول أنني لا أعرف قوانين البلد؟

- امض..

قال بلا مبالاة، وأغلق الحقيبة بسرعة تاركاً المجلة داخلها.
انصرفت غير مصدق، ورأيت فاروق ينظر إلي من خلف زجاج الصلاة مبتسماً.

- ألم أقل إنك تتسائي؟

أحسست بالحرج الشديد. ها هو «عابد» يفاجئني للمرة الثانية. كنت جلست بالسيارة جوار فاروق، وكان يحدثني من النافذة المفتوحة يكاد يُدْخِل وجهه الطويل ذا العينين الضيقتين والحاجبين الكثيفين المتحسين من الوسط.

تخلَّصْتُ من ارتباكِي، وقُدِّمته إل فاروق الذي قال وهو يدير السيارة:

- أهلاً. لقد تقابلنا من قبل.

وتسأل عابد:

- هل هذا قريبك حقاً؟ إنه خجول جداً..

- هذه أول مرة يترك مصر. سيحضر إلى العمل غداً.

كان فاروق يتحدث دون أن يكلف نفسه مجرد النظر ناحية عابد الذي أدخل رأسه بالفعل من الزجاج المفتوح، فكنت أتنفس أنفاسه، وصرت لا أعرف إلى من أنظر، لكن عابد انصرف فساتك فاروق الذي تحرك بالسيارة:

« لماذا لم تدعه إلى الركوب معنا؟ »

« معه سيارة. »

« إنه قادم معي من القاهرة. »

« لا تشغل بالك بأحد. »

وبدا لي أنني لن أفهم شيئاً فآثرت الصمت، وأحسست بالجو حاراً وخانقاً.

انطلقت السيارة الداتسون اليابانية على الطريق الضيق الطويل الذي تحيطه الرمال المترامية على الجانبين، فاروق يقود السيارة بسرعة مجنونة. الطريق خال حقاً، لكنني لم أركب من قبل سيارة تكاد تطير، انكشيت، فتح فاروق الراديو، فسمعت صوت محمد عبده «لا تردين الرسائل»، ولما ظهرت بعض أكشاك خشبية على جانب الطريق قال فاروق:

« هذه شركتك. »

رأيت طفلين يمرحان أمام الأكشاك. فرّت سيارة من جانبي، فذعرت، ابتسم فاروق وقال:

« الجميع هنا يقودون سياراتهم بجنون ويمرون من الجانب المخطئ. »

لكنني رحت أنظر إلى كلب أبيض بعيد بين الكتيبان الرملية المتناثرة، كلب ضخم بدا لي مثل حمار شارد. لا بد أن فاروق لمح أيضاً لأنه قال:

« هنا يقتلون الكلاب، يعتبرونها نجسة. هذا الكلب يعرف ذلك ولا يستطيع الاقتراب من العمران. »

وضحك. وأنا تراجعت بذهني إلى الطائرة وكيف جاورت المصادفة بيني وبين عابد فكان لا بد أن نتكلم. عرفت أنه يعمل في الشركة نفسها التي أسافر للعمل بها، وأنه كان يمضي إجازته السنوية بالقاهرة، وعرض عليّ أن أمضي ليلتي الأولى معه في سكنه، فأخبرته أن لي قريباً بالبلدة ينتظرنني، فحدثني عن غلاء أسعار السكن، وكيف أن للشركة سكناً خاصاً، لكن يحتله الآسيويون ونادراً ما يخلو فيه سرير، ثم سألني عن عملي السابق وكيف حصلت على العقد، وخططني للمستقبل، وما إذا كنت خاطباً أو متزوجاً، وغير ذلك كثير مما سبب لي بعض الضيق، لكنني فكرت أنه ربما يود معاونتي فعلاً. وتساءل فاروق:

« لاحظت أنك تأخرت قليلاً في صالة الاستقبال؟ »

« طبيبك الخاص. » قالوا إنها ممنوعة.

ضحك وقال:

« لم تعد بذات فائدة. »

« بسمت، قلت: »

« أصبحت أياً إذن. »

زاد من سرعة السيارة وقال:

« أصبحت أعزب، طلقت. »

ظهرت البلدة الصغيرة واختفت بسرعة، ذلك أن فاروق جنح

بسيارته إلى طريق يتجه إلى اليمين ويدور حولها من بعيد. في آخر الطريق رأيت مجموعة من البيوت المنخفضة، بينما البلدة حين لاحظت لي، ظهرت بعض مبانيها عالية شيئاً ما.

فوق أزقة غير مستوية من الأرض كانت العربات تتأرجح، رأيت سيارات كثيرة تقف أمام المنازل ذات الأبواب الحديدية الضيقة. قال فاروق:

- كل شارع هنا معرض للسيارات.
قلت:

- لم يمض عام واحد على زواجكما!
قال:

- لا تشغل بالك. أرادت أن تشتري أرضاً في قريتها. وأردت أن اشتري في قريتي.

ولم أفهم. لم يبد من المرات القليلة التي التقيت فيها بفاروق أنه عصبي أو أهوج. هو في الحقيقة ابن عم لأمي ظهر فجأة في حياتنا منذ خمس سنوات. أي عام تخرجي من الجامعة. في ذلك الوقت قال إنه تم تعيينه مهندساً في مصلحة الطرق بالإسكندرية ففكر في زيارتنا، وسألته أمي عن أسماء كثيرة لأقارب لها بقريتها سمعت أنا أسماءهم لأول مرة، فأخبرها فاروق بموتهم جميعاً. انقطع عن زيارتنا بعد ذلك عاماً، ثم ظهر يعاتيني على عدم زيارتي له، وعدم اصطحاب أمي لزيارة عمها الذي شاخ وهرم ولا يزال يذكرها، بل ويذكرني أنا أيضاً منذ كان يأتي إلى الإسكندرية في الخمسينات، يشتري الكسب والأعلاف من شركة الزيوت والصابون، ويبيت ليلة

في بيتنا. كانت أمي تشارك فاروق الحديث، وتصق على كل كلامه، وأتردد أنا في القول بأنني لا أذكر شيئاً من ذلك، بل وأشعر أنه من الصعب أن يظهر لك قريب هكذا فجأة وأنت في سن الشباب. ثم تنمو بينكما علاقة قوية، وأفكر أيضاً أنني لا أعرف قريتنا هذه التي انحدرت منها أمي. لم أولد فيها ولم أزرها يوماً. لكن فاروق عاد واختفى مرة ثانية، ولا أدري كيف عرفت أمي أنه سافروا إلى السعودية، ولا أعرف الدافع الذي جعله يرسل أكثر من خطاب يعرض عليّ فيه مساعدته في الحصول على عقد للعمل. لم يحدث أنني شكوت أمامه من شيء، ولا انحنت لأي رغبة في ذلك.

لكن كان لا بد أن أسافر. من يرفض الآن فرصة سهلة كهذه؟ إنه شيء يحسدني الناس عليه، هكذا قالت أمي. إن عملي في التدريس لن يتحرك بي خطوة للأمام، وانتظاري للإعارة وفقاً لجدول وزارة التربية والتعليم، يعني الانتظار حتى يجف النفط. هكذا قال فاروق في رسائله.

- كان يمكن أن تؤجلا هذا الشراء.

قلت فجأة، فقال جاسماً:

- ولماذا لا تطيع الزوجة زوجها؟

سكتُ. وسكتَ هو لحظات ثم قال:

- أعطيتها ثلاثة آلاف جنيه. كنت تكلفت مثلها أيضاً في الزواج. سوف اعوض ذلك وأتزوج بأحسن منها. هذا هو البيت. يسكن معي صبيب ومدرس.

وتوقف بالسيارة أمام بيت صغير من دور واحد مبني من الطوب الاسمنتي.

كان الدش البارد شيئاً رائعاً بحق. وددت لو تركوني أنفرد بنفسي. لكنهم أصرّوا أن اجلس معهم أشاهد المباراة الحامية في «الطاولة».

لم أرتج للبيت بشكل عام. حجرتان في كل ناحية، بينهما ردهة واسعة غير مسقوفة، وفي الطرف البعيد دورة المياه والمطبخ. قال فاروق إنه بيت على الطراز العربي، لكنني وجدت مجرد مكعبات من الاسمنت. حجرات ضيقة تطل نوافذها على الردهة، لا على الشارع. والنوافذ أيضاً ضيقة كأنها كوى سجن.

تحت المياه الباردة كنت أسمع صوت حركة «الزهرين» وفرقعات «القواشيط» وتصفيقاً وضحكات، وفكرت أن أخرج بسرعة متجهاً إلى غرفتي التي جهزها فاروق بدولاب صغير من البلاستيك، وسرير معدني لشخص، ومروحة. لكنهم لمحوني وأنا أقترّب من الحجرة فهتفوا معاً: «لا نوم إلا بعد منتصف الليل، هذا قانون الطبيعة».

توجهت نحوهم. لاحظت أن عرقاً تقصّد على ساقّي وصدري خلال المسافة القصيرة من الحمام إلى منتصف الردهة حيث يجلسون. ها نحن ندخل في المساء ولا يتغير الجو. هل هذا شهر سبتمبر حقاً؟ في الاسكندرية يلف سبتمبر الناس والبيوت بموجة من النسيم الحاني. هنا هواء راكد ثقيل تستطيع أن تمسك قطعاً منه في يدك.

- هل معك ريلات؟

يادرني الطبيب الذي عرفت أن اسمه «وجيه». أثارني السؤال، وجاءت الإجابة من «سعيد» المدرس.

- نحن نلعب قمار.

كنت جلست على مقعد جهزوه لي بينهم. وسمعنا طرقات على الباب الحديدي فنهض فاروق بسرعة.

رايت وجه عابد يطل علينا فقمّت اليه. كان فاروق قد فتح الباب نصف فتحة ووقف بطريقة لا تترك طريقاً لعابد للدخول.

- خلا أحد الأسرة بسكن الشركة فإذا أحببت الانتقال إليه تستطيع تخصيصه لك.

قال عابد. وددت أن أزعج فاروق من مكانه، وأدعو عابد للدخول، لكن فاروق يمسك بالباب ويكاد يسد الجزء المفتوح بجسده، وسبقني وقال:

- سنرى في الغد.

لقد تعبت جداً حتى عرفت بيتكم. من حسن الحظ أنني عرفت بخلو السرير بمجرد وصولي إلى الشركة. لا بد أنك رأيت الشركة في طريقك. لقد أخبرني «نبيل» عامل البوذية، أن أحد الباكستانيين توفي أثناء إجازتي، ووجدتها أنا فرصة أن أخبرك. إنها فرصة نادرة لا نجعلها تغتلب من يدك.

بدأ وهو يتكلم، شديد الإخلاص، وصرت في غاية الارتباك من

موقف فاروق الذي لا يترك الباب، ولا يتزحزح من مكانه، والذي سيقيني مرة أخرى وقال:
- شكراً.

انصرف عابد، بمجرد أن استدار، أغلق فاروق الباب وعاد، وظللت واقفاً للحظات ثم تبعته.

- سأقترض اسماعيل خمسين ريالاً.

قال فاروق قبل أن اجلس ولم أعلق، خاطبني وجيه:

- لا تخف، ما تخسره ستأخذه، هذا قانون.

لم أعلق. قال سعيد:

- نلعب الدور بعشرة ريالات، وندون الخسارة والمكسب في هذه النوبة.

وبقيت صامتاً، فقال وجيه:

- آخر الشهر يعيد الكسبان للخسران ما خسره ونبدأ من جديد.

وسكتنا جميعاً للحظات، فعاد وجيه يقول:

- لا بد أنك تتساءل عن جدوى ذلك إذا كان كل شخص يضمن استرداد أمواله. الحقيقة نحن لا نعرف...

٢

- أول يوم مسموح لك بالتأخير.

قال فاروق وهو يشرب معي شاي الصباح. قلت:

- أفكر أن أظل معك حتى أوصلك إلى المطار.

كنت متعباً من كابوس داهمني بالليل. رأيت نفسي أترجع في بطة وفزع، ويتقدم نحوي أربعة رجال سود، لهم عيون جاحظة، كل عين في حجم بيضة تدور أمامي، وفي أيديهم سياط طويلة رفعوها عالياً، وأنا لا أعرف أين أذهب، فهم يحاصرونني من كل ناحية ويسوقونني، وأنا أترجع بظهوري، حتى دخلت إلى رفاق مظلم تحده من جانبي وخلفي جدران عالية من حجر بازلي أسود ضخم، جدران أشبه بجدران القلاع القديمة، وراحوا على مهل يضربونني، وعلى مهل عيونهم تدرر، وعلى مهل أصرخ، ولم يأت أحد لإيقافني من الحجرات الأخرى. لا بد أن صوتي لم يصلهم. ولعله لم يخرج، وقمت لاهتاً أنظر حولي، فأتدرك أنني في حجرة صغيرة ضيقة في بلد بعيد. لم يعاودني النوم إلا بعد وقت طويل فكرت فيه.. في الزمن الذي مضى من عمري لم أر فيه حتماً ولم يهاجمني كابوس. قرأت مرة أنه بعد سن العشرين تندر أحلام اليقظة، وبعد الثلاثين تكاد تنعدم أحلام المنام. بعد العشرين يشرع الإنسان في تحقيق

احلامه. وبعد الثلاثين يكون قد حقق الكثير. انا في الثلاثين ولم احقق شيئاً ولا أحلم. زملائي المدرسون والمدرسات في مصر كانوا كثيراً ما يتحدثون عن احلامهم وحياتهم في تفسيرها. معظمهم مثلي لم يحقق شيئاً ذا قيمة، ولكنهم يحلمون ويتحدثون عن احلامهم. كنت دائماً اقول لنفسى: لماذا لا أحلم حقاً مثلهم؟ واتساءل حتى وصلت الى اننى شخص راضٍ بما أنا فيه. راضٍ شديد الرضا لا أرى للحياة بعداً غير رعاية امي وإخوتي بعد موت أبي. كثيراً ما فكرت انى ربما صرت شخصاً غير راغب في الحياة. ما الذى أوصلنى الى ذلك؟ القراءة القديمة التي انقطعت عنها؟ أم هو غبار في الفضاء يفسد صبوات الروح قبل أن تنشأ؟ ربما كرهى الدين لحالة الرضا الزائد التي اعيشها، هو الذى جعلنى أوافق على السفر. لو لم أفر بئى شيء، فلا بد انى سأهز الركود عن روجي ولو مرة. لا يمكن أن أعود كما جئت. إن لم أفر بشيء، سيصيرنى ولو جرح صغير، إن لم أنجح، سيكون لدى أسباب للفشل. وما هي روجي أخذت في الاهتزاز. تدهامها الكوابيس، مع انى لم أرتكب خطيئة. ولم أتناول طعاماً ثقيلاً في العشاء.. وقال فاروق:

- طائرتى ستقلع في الواحدة. الساعة الآن الثامنة. اذهب بحسب لك العمل من اليوم.

فاجانى امس خلال السهر بسفره اليوم إلى القاهرة. قال إنه آخر السفر حتى يستقبلنى، وشعرت بامتنان حقيقي له. وسألته هل هذا موعد اجارته السنوية، فأبتسم وقال إنه انما يسافر ليتزوج، ولم أتحدث معه بقية الوقت.

- لقد تأخرت.

قال عابد بمجرد دخولي الى مكتبه ولم أزد. جلست على مقعد واسع من الجلد ورحت أتطلع الى الغرفة الصغيرة وأحس بهواء المكيف البارد. الجو بعد لا يحتاج الى المكيف فالساعة لم تدخل في العاشرة. وأزعجنى صوت الجهاز. جدران الغرفة رمادية. جهاز التكييف رمادي. الموكيت المفروش على الأرض رمادي. المكتب الذي يجلس عابد خلفه رمادي. الغرفة كلها كابية، وصوت الجرس البيانو يدق مرات متتابة ملسوعة، فيقفز عابد من خلف المكتب، ويقف لحظة يقمض فيها عينيه، ثم يطفىء سيجارته في المنفضة، ويهدوء يتقدم يفتح باباً لم أنتبه إلى وجوده يُفضي إلى حجرة داخلية، يدخلها وينغلق الباب خلفه، فأسمع صوتاً قوياً..

- من عندك؟

- الزميل المصري الجديد.

- أدخله.

في اللحظة نفسها تقريباً، رأيت عابد أمامي يقول هامساً: والمدير، ويشير لي أن اتبعه.

واجهتني غرفة المدير باتساعها، وبرائحة الياسمين المشعشع فيها، وأحسست بالأرضية عميقة تحت قدمي. كانت مفروشة بالموكيت الأخضر القاتم الغني. لون المقاعد الستة الواسعة المنخفضة نفسه، ذات المساند العريضة المكسوة كلها بالمخمل الوثير جدران الغرفة مكسوة بالورق الأبيض المفضض، والمكتب الخشبي واسع بيضاوي أبيض لامع، فوقه أربعة تليفونات. الأحمر مستطيل، والأسود مستدير، والأصفر اسطواني يرتكز على

أجبت على الفور وخرج صوتي عالياً بشكل لاكت. تذكرت الجنود حين يتلقون الأوامر من قادتهم في الأفلام الحربية الأمريكية وكدت أضحك. رأيته يتسم ابتسامة لا يريد لها أن تظهر. ربما يستمر مني، وربما هو مذهوش فعلاً من صوتي العالي.

لم يكن هناك شيء هام...

عرفت أنني سأجلس في الغرفة المجاورة لغرفة عابد. مبنى الشركة كله عبارة عن صف من ثلاث غرف خشبية ودورة مياه. يتعاهد معه صف آخر من ثلاث غرف مهجورة، وبوفيه. بين الجميع باحة ترابية واسعة تقف فيها سيارات المدير، وسيارة عابد، وسيارات الزوار. ويحيط الجميع سور عال من القرميد الأبيض، له بوابة واسعة، ولا توجد شجرة واحدة.

ما كدنا ندخل إلى الغرفة التي سأعمل بها، حتى انشغل عني عابد بفتح خزانة معدنية مثبتة في الحائط. وقفت متحرراً للحظات. لم أستطع أن أغض بصري عن رؤية حزم النقود الورقية الزرقاء الزاهية داخل الخزانة. عابد لم يدخل إليها شيئاً ولم يخرج منها شيئاً. فتحها فقط وأغلقها بعد لحظات.

أشار لي أن أجلس، فجلست خلف مكتب معدني كبير صديء الزوايا، وجلس هو خلف المكتب القريب من الخزانة. ليس بالغرفة غير هذين المكتبين، ومعدنين جلديين قديمين، ودولاب معدني مفتوح بإعمال به أوراق مُرتبة غير مُرتبة.

قال عابد إنه سيكون علي ترتيب الأعمال الإدارية، وقال إن

قاعدة سوداء مربعة، والأبيض في حجم علبة السجائر، والمدير خلف المكتب لا يظهر منه غير وجهه، الذي حين رفعه ألتينا رأيته قمحي اللون، حاد العينين، صغير الأنف، رفيع الشفتين، وغترته فوق رأسه بيضاء لامعة والعقال الأسود حولها زاه. لكن المدير عاد ينظر إلى ورقة فوق المكتب، وتابعت النظر إلى دولاب رجائي زواياه من الخشب الابنوس، وبدخله بعض ملفات صغيرة رشيقة الألوان والأحجام، وكان المكيف يعمل، ولكن لا ضجة تصدر منه، وكدت من فرط هدوء المكان وانتعاشت أنام واقفاً. نسيت عابد الذي كان لا يزال يقف جوارى، وفكرت هل الصوت القوي الذي سمعته منذ قليل هو صوت هذا الرجل الهش حقاً؟

- يا هلاً.

قال المدير الذي تراجع بظهوره قليلاً. رددت في ادب وابتسام:

- أهلاً بك.

- تعرف الكتابة على الالة؟

- لا.

- إن الامتعاض على وجهه.

- تعرف القيادة؟

- لا.

قلت لا هذه المرة بصوت وددت لو لم يخرج. تأملني قليلاً

وخطب عابد:

- قل لأرشد يعلمه القيادة «ويسوي» له رخصة.

ثم سألني بالانكليزية:

- دويوريد أند رايت إن جود انكلش؟

- بيس سير..

العمل روتيني، وإن عدد العمال لا يتجاوز الثمانين، ثم تنهد وقال إنه كان يحلم بيوم يشاركه فيه العمل شخص مثلي، فهو سكرتير للمدير ومسؤول مالي، وكان أيضاً يقوم بالأعمال الإدارية للأفراد. الآن سيحتاج من الأفراد ومشاكلهم مع الغياب والحضور والمرض والسفر والإجازات والتعاقد وإنهاء الخدمة. سوف أقوم أنا بذلك، وأترجم أيضاً للتقارير الواردة من القسم الفني الذي يعمل به الفنيون الأميركيان. للأميركان مواقع عمل بعيدة، وسكن متميز، لكنهم يتبعون الشركة. هنا لا يوجد غير عمال عابدين يعملون في النظافة والبناء، وإقامة المباني، وصيانة منشآت قواعد الدفاع الجوي بالمنطقة الشمالية، وكلهم من الأجانب أيضاً. آسيويون بالأساس. هنا قطاع الخدمات، وللأميركان قطاع الأعمال الفنية الراقية الذي سنتلقى منه بعض التقارير نترجمها لعم عبد الله. ثم قال إن أفضل طريقة للتخاطب مع المدير هي مناداته «بعم عبد الله»، عبد الله اسمه، وكلمة «عم» بدلاً من أستاذ عندنا في مصر. ثم قال فجأة:

- هل تعرف أن عم عبد الله أخفى عني نياً التعاقد معك؟
- الحقيقة لا أعرف.

ابتسم وقال:

- له تصرفات غريبة عم عبد الله، لكنه دائماً شخص طيب.
- يبدو كذلك فعلاً.

قلت غير معنيٍّ بعدى صحة قولي. ودخل الغرفة شاب متوسط الطول يرتدي جلباباً سماني اللون، أدركت من وجهه أنه مصري. كان يحمل صينية فضية فوقها علبة من «السفن أب» وبيبتسم.

- هذا نبيل عامل برفيه، يعيش معي في غرفة خلف المكاتب. لقد أبلغني أمس بخلو سرير في سكن الآسيويين كما قلت لك.

كنت أنا ابتسم مصافحاً نبيل الذي قال وهو يبتسم بدوره:
- أهلاً بك في بلدك.

أحسست بالارتياح لوجه نبيل، وجه مثير بحق. أنف عريض وشفتان غليظتان وعينان صغيرتان جداً، ولم يضايقني هذا التناقض، أحسست بالطيبة والعفوية خلفه... وسألني:

- حضرتك الأخ اسماعيل؟

- أجل.

- حدثني عابد عنك أمس، الحقيقة كنت أنتظر بكفارغ الصبر. أريد أن أسألك، غرفة مثل هذه مهجورة، وبلد مثل هذه مهجورة، وخازنة مثل هذه عامرة ماذا تفعل بها؟ هه. قل لي بالله عليك. كان يتكلم ويضحك، ولم أجد إجابة غير أن أبتسم.

جلست طويلاً وحيداً في غرفتي صامتاً. فكرت في ما يمكن شراؤه من أثاث، فلم أجد حاجة إلا إلى دولاب زجاجي بدلاً من هذا القديم الصدئ، وعدد من الملفات الجديدة. أخبرني عابد أننا يمكن أن نشترى ما أحتاجه اليوم.

فجأة قفزت أمني إلى ذهني. لا بد أنها تفتقدني الآن، كانت أكثر المتحمسين لسفري وأعرف أنها لا تحب أن أفارقها. ليتني كتبت خطاباً أرسلته مع فاروق، لا أستطيع أن أترك العمل من أول يوم.

لألحق به في المطار. سأكتب إليها في المساء وأرسل الخطاب بالبريد. اعرف أن كل انسان يحب أمه. هكذا في الغالب. وأنا مثل سائر الناس. لكنني منذ موت أبي، صار حبي لها ولاخوتي مضاعفاً. حُبٌ يخالطه نوع من القلق. حب تضالطه أبوة غير حقيقية. أنا إذن أختلف عن سائر الناس. لكن أُمي مثل كل الأمهات لا بد أنها تعرف أن آلافاً من المصريين يأتون إلى هذه البلاد. ومثل كل الأمهات لا تفكر إلا بابنها الغريب الوحيد في هذا العالم. منذ الآن إذن علي أن أحرص على كتابة الرسائل، وأحرص على الكذب غافقو! إنني دائماً بخير. وأحكى كل كابوس على أنه حلم جميل. هكذا يفعل كل الذين اغتربوا حباً لغيرهم. هذا حقاً زمن الكذب الجميل، وأنا واحد من رجال هذا الزمن. وإذا أحسست باحتجاب الضوء القادم من الباحة، نظرت إلى الباب قرأته. شاب أسمر، مكفهر الوجه، يقف يسد الباب وفوق كتفه قرد.. أجل قرد..

الشباب يرتدي جلباباً أبيض سابغاً ونظيفاً للغاية، والغرة فوق رأسه بيضاء ونظيفة، والعقال أسود ونظيف. ولكن القرد هو الذي يشد عيني. لم أقف والشباب يدخل دون استئذان، ويجلس خلف المكتب الآخر القريب من الخازنة، وتابعت النظر إلى القرد.. صغير بُني اللون، قليل الشعر، ذو عيين ملونتين حولهما شعر طويل، وحول عنقه هالة من الشعر الأزرق المنفوش، وله خصيتان زرقاوان ظاهرتان فوق كتف الشاب. وبين فخذي القرد كبلتان لامعتان. قرد جميل بحق يرفع ذيله الرفيع أعلى من رأس صاحبه.

- أين عابده؟

- في غرفته.

- غير موجود.

- ربما خرج في مشوار قريب وسيعود.

كنت لا أزال أنظر إلى القرد الذي وضع يديه فوق رأس الشاب.

- اصرف.

قال يحسم. وضعت رأسي فوق كفي اليسرى، وأرتكزت بعرفقي على المكتب، ولذت بالصمت. لكنه سألني:

- أنت المصري الجديد؟

- أجل.

- شو اسمك؟

- اسماعيل.

وابتسمت علني اتخلص من ضيق الصدر، لكنه تنهد وردد اسمي لنفسه بدهشة، ثم رفز بغيظ غير مفهوم، وظهر نبيل واقفاً بالباب يضحك.

- ها، منصوراً

ودخل مسرعاً يصافحه، لكن منصوراً لم يعطه يده، ونحت يبتسم ابتسامة صغيرة. مد تبيل يده إلى رأس القرد، فتراجع منصور قليلاً، ضحك نبيل وخاطبني:

- هذا منصور. ها، ها، وعلى كتفه منصور الصغير. ها ها ها ها..

وراح يضحك بشدة، فنهض منصور مضطرب الوجه، وغادر الغرفة بلا كلمة. كان القرد يلتفت مضطرباً، وأدهشني أن منصوراً صوب لي نظرة حادة غاضبة..

في العربة التويوتا الهايلاكس نصف النقل، قال عابد:

- ألم تفكر حقاً في السكن مع الآسيويين؟

كنت أفكر في منصور وقرده. يُدّأني بالعداوة دون سابق معرفة. كيف يتعامل معه نبيل بهذه البساطة؟ لقد حدثني عنه بعد خروجه، وقال إنه طيب ومسكين ويجب أن لا أخشاه.

- هل أنت مرتاح للسكن بالبلدة؟

- أجل.

وصمقنا. وتابعت النظر إلى الطريق الأسفلتي الذي بدا لامعاً للغاية على عكس ما كان في الصباح. الشمس الآن في وسط السماء، ولأن الأضواء تنعكس على الطريق متماوجة، أدركت عدم استوائه. وفي اللحظة التي رايت فيها الكلب الأبيض يجري بعيداً بين الكتبان، الكلب نفسه الذي له منظر الحمار الشارد، فُتت زويدة ترابية صفراء جعلت عابد يبطئ السير بالسيارة. حاصرنا الغبار من كل ناحية فأغلقتنا النافذتين. أضاء عابد كشافات النور، فرأيت ذرات التراب تطير أمامنا في عمودين من الضوء، وتعمور في الفضاء.

- هذا هو «النَّعْج» ريع مترية تهب على البلدة بلا موعد. ربما كل يوم. ربما أكثر من مرة في اليوم الواحد. وكثيراً ما تختفي لأيام طويلة.

ويبدأ أن العاصفة لن تهدأ، وكدنا نخفق. أدار عابد مساحات الزجاج التي راحت تزيل التراب المنهمر كما تزيل ماء المطر. وسمعنا صوت ارتطام ذرات الغبار بجسم السيارة، وبدأت أخاف.

- لا بد أن نقف.

كان عابد يهدئ من السرعة كثيراً، ويأخذ جانب الطريق ليوقف، لكن العاصفة راحت تنقشع شيئاً فشيئاً، ويعود الفضاء أبيض، والأسفلت أسود، والسماء قوئنا عادت زرقاء. رأيت البلدة تقترب معتدة على الجانبين بمبانيها المنخفضة البيضاء، ودخلناها.

- هذا هو الشارع العام. الشارع الرئيسي بالبلدة.

قال عابد، ثم أضاف:

- البلدة صغيرة. أحيائها قليلة. السليمانية. الفيصلية. العزيزية. أم درمان. البلدة كلها في حجم ميدان التحرير بالقاهرة. لا بد أنك رأيت، خانق. اليس كذلك؟ وبنا فيه «كوبري» علوياً للمشاة. تصور!

كنت منجذباً إلى الزحام، ومشهد السيارات المزاحفة في نهْزِي الشارع، والمحلات المفتوحة على الجانبين. الشارع العام هو السوق الذي سنشتري منه ما أريده لغرفتي وعلي. وتركت عَيْنِي ترتفعان وتنخفضان مع الأقمشة المعلقة في علافات عالية أمام المحلات، وبحثت انظر إلى الأدوات والأجهزة الكهربائية المكسدة والمرايا اللامعة خلفها بارفانات وعطور وساعات وكتب وأقلام وثياب فضفاضة زاعقة ألوانها. الأسود صارخ، والأحمر صارخ، والأخضر صارخ، والأصفر والأزرق، والزهور كبيرة تتوسط الألوان. والأبيض قليل، والكراتين الفارغة على الأرصفة، والأوراق المهملة في الطريق، وجماعات من الكوريين الشباب تجري وتضحك، رجال

بجلايب، ورجال سراويل، وهنود لهم لحى سوداء وعمائم ضخمة
يمشون على مهل، ورجال بلحي حمراء مخضبة بحناء، بيض
الوجوه، مسنون يمشون في تعب، عرفت انهم افغان، وشباب ورجال
عيونهم تلمع في الفضاء وهم يسرعون في سراويلهم الفضفاضة
والقمصان الواسعة فوقها، باكستانيون. رأيت الأميركيان في
الجيش، والمصريين أيضاً، والنساء لا أرى وجوههن إلا كشعاع
يختفي وانت تغلق نافذة. شمس عالية، وفضاء أبيض واسع،
وسيارات زاحقة الى الناحيتين، ورائحة شواء. وأكد أرى راقصات
من ألف ليلة وليلة يوزعن الكؤوس على المارة مترعة بشراب ثقيل،
وشهريار يمر في موكب من الغلمان والقيان خلفه أعلام وصنوج،
وأصوات تغير السيارات تختلط بأصوات المسجلات. وقال عابد:

«تبدو تنسيك أهلك وأبوك» مثلَ بدو أوله المصريون هنا.

وحط على الدنيا صمت.

«ما هذا؟ أسمع.

وابطأ من سرعة السيارة البطيئة أصلاً. أرهفت السمع. رأيت
يفتح عينيه بأقصى اتساع، ويمد رأسه إلى الأمام يكاد يخرج بها
من الزجاج. وسمعنا المتوسطة.

وكأنني أرى الصمت نفسه فقد توقف كل شيء عن الحركة الآن.

«فضيحة جديدة.

قال عابد وأشار لي بإصبعه أن لا أتكلم. لم أتكلم وراح الصوت
بقترب. ظهرت من شارع جانبي سيارة شرطة مكشوفة يقف في
صندوقها الخلفي شرطي يمسك بميكرفون وتقف جواره امرأة أو
فتاة. شيء مغطى بالسواد كله من الرأس حتى القدمين لا يكون إلا

كذلك. الشرطي يتحدث في الميكرفون بصوت تضخم الآن ويبدأ
متناثر الضربات. لحيته طويلة الشرطي، والغرة فوق رأسه خضراء
حائلة بها خطوط سوداء قديمة، وحولها انعقال باهت، وملابسه
صفراء تلمع أزراها النحاسية تحت الضوء. ويقول:

«... واضحة بنت سليمان بن سبييل التلميذة بالمدرسة
المتوسطة بالعريزية، كانت تخرج كل يوم بعد الدراسة، مع يعني
اليامي بن عبد الله اليامي...»

ويزداد الناس على الأرصفة وفي أفواه المحلات، ويزداد الضوء
فوق الدنيا، وأرى الفتاة هشة ضئيلة، إلا أن العباءة السوداء تلمع
وتحدد لنفسها موضعاً في الفضاء الأبيض الواسع، وتشد كل
العيون.

«... كانت تخرج معه كل يوم الى طريق تيماء المهجورة.

ولا أعرف كيف استطاع عابد أن يوازي سيارة الشرطة. صار
الصوت كأنه يكتل من الحجارة تسقط فوق رأسي.

«اليامي لم يعتقد عليها، لكنها لعلقتها الشنعاء فصُلَّت من
المدرسة.»

«فاجرة.

هتف عابد وهو يعض على أسنانه. وأنا الذي لم يخطر ببالي شيء
كهذا تصلبت عيناى على الجسد الصغير ضائع القسما تحت
العباءة السوداء الواسعة. أريد، يا ربي، ساعدني، أن أرى
وجهها. صار ذلك حاجتي التي تتمدد بالحزن في صدري. الخبرة
فوق الوجه سوداء ثقيلة، لكن ضوء الشمس باهر يستطيع أن

يكشفه لي لو أراد، يقيني أنها ماتت واقفة، وأمي، أنؤلم، أن أراها تتحرك. أه لو تتحرك، إنها حتى لا تهتز مع حركة العربة، والشرطي القرد الضخم لا يكف عن الوقوف والانحناء وهو يصرخ في الميكرفون.

«اليامي سجن ثلاثة أشهر سيفادر بعدها المملكة بلا عودة». وأنطلق إلى الشمس في قبة السماء. بعيدة، لكن الضوء يغمر الدنيا ببراعة اللبن الحليب، ويسأخذ عيني مني سواد العبادة والحيرة ويجمود الجسد. يا الله. يا أرحم الراحمين. ها هو الجسد الصغير يختلج. أكثر من مرة يختلج. لا ربح في الفضاء ولا نسمة، ولا يحرك العبادة الآن إلا اختلاجة الجسد. وانتفاضة الروح..

ولم أعد أسمع الشرطي، ولا عابد الذي صار يتكلم كالجنون يسب الفتاة واليمتي. رحت أتابع العربة التي تبتعد. أتابع العبادة وهي تتحرك. الجسد وهو يختلج. حبة هي إذن لم تُثَقِّ، والناس عادت تتحرك في الشارع، والعربات وراقصات الف ليلة وليلة قفزْنَ يوزعن الكؤوس، وموكب شهريار راح يتقدم حوله الفتيان والغلمان وخلفه الاعلام والصنوج، وعاد الكوريون يجرّون ضاحكين، والهنود يشربون على مهل ممشوقي القوام، والباكستانيون يبتسمون ويعكسون أشعة الشمس من عيونهم. والأفغان المنسون فتحوا أفواههم للقضاء في ذهول، والمصريون يتكلمون أمام الفخارين، والأميركان يشربون «البارد» ويديهم اليسرى في خصرهم وعلى أنوفهم العالية نظارات قاتمة، وحاصرتني البضائع وأصوات المسجلات المختلفة الناشزة وعدت أشم رائحة الشواء، ولم أعد أرى في الشارع نساء.. أي نساء.

٣

صرت أحب البيت ووقت العودة. تأتي الساعة الثالثة فيتسع الفضاء بي. لم أتعلم القيادة بعد. «أرشد» كل صباح يسألني وهو يوقع في دفتر الحضور: متى ستأتي إلى الورشة مستر اسماعيل؟ وأجيب: في أقرب فرصة، ولأن لم أذهب لا أعرف لماذا.

يحملني عابد في سيارته، وأصل إلى البيت في حوالى الثالثة والنصف لأجد سعيد قد أعد الغداء. سعيد أول من يصل منا. أحياناً أساعده، لكنه كثيراً ما يكون انتهى من إعداد كل شيء. نتغدى في العادة وحدنا. وجبه يعود في الخامسة، وكثيراً ما يعود مرة أخرى إلى المستشفى. غداً نأخذ قطع كبيرة من اللحم المسلوق وأرز رأي نوع من الخضار وسلطة، والفاكهة غنّ أو كمثري أو بطيخ. كل شيء يأتي طازجاً من الأردن. يقول سعيد، ووجبه يحتج على كميات اللحوم الكبيرة التي نلتهمها، ويلفت انتباهنا إلى ضرر الخضار المسبك في هذا الحر، وضرورة أن نتعلم أكل السوتيه، لكن سعيد يضحك ولا يهتم. لا يغير طريقته في طهو الطعام، ولا وجبه يتوانى عن التهام أكبر كمية منه.

أدركت صحة كلام وجبه من النوم الذي يداهمني بسرعة بعد

الغداء، ومن الوخم الضاعط الذي يكبس على صدري ورأسي، ومن الحركة الغريبة التي صرت أحسها في اسمائي والحاحها علي لإخراج الرياح، لكنني لم أسع لتغيير طريقة سعيد في الطهي.

صرت أحب البيت، وتهفو نفسي إلى العودة إليه، منذ يقف عقربا الساعة على الثانية عشرة. لماذا اشتريت يوم نزلت إلى السوق ساعة الحائط هذه للمكتب؟ لماذا وافقت عابد على ذلك؟ لقد ثبتها أمامي، وكأنني أعدب نفسي أرفع بين وقت وآخر عيني إليها. حين ينضم العقربان إلى الثانية عشرة، أبدا في متابعة حركة عقرب الدقائق، دقيقة بدقيقة أراه يقفز أو أسمع صوت قفزه. في الثانية عشرة أكون انتهيت تقريباً من معظم الشغل، وتصبح الساعات الثلاث الباقية دهوراً، فأفكر في البيت.

هنا لا أستطيع أن أترك العمل، الغرفة، لأكثر من دقائق، ونيل لا يستطيع أن يمضي وقتاً طويلاً معي، وعابد في غرفته أو خارج المكان كله. عابد في العادة يمضي معظم وقته في أعمال عم عبد الله الخاصة، وهي أعمال غير أعمال الشركة. يقول لي إن أجلس في غرفته حتى يعود، ولا يعود إلا بعد وقت طويل يكون علي فيه أن أقوم بأعمال السكرتارية التي لا تزيد على استقبال الرسائل التليفونية.

- ألي.

- من أنت؟

- اسماعيل.

- عمك موجود.

- لا، هل من خدمة أؤديها لك؟

- أخبره أن الشيخ صالح، ذهب، عليه.

واضع السماعة ويدق التليفون.

- ألي.

- من أنت؟

- إسماعيل.

- وين عبد الله؟

- خرج.

- أدري، وين خرج؟

- ما أدري والله.

- كيف ما تدري. حمار أنت؟

وتغلق السكة في وجهي، ويدق التليفون.

- ألي.

- يا عابد جهزت الريالات؟

- أنا اسماعيل.

- من هو اسماعيل؟

- موظف جديد.

وتغلق السكة، ويدق التليفون وليس لي أن أشكو. علي فقط أن أدون الأسماء حتى إذا جاء عابد أو عم عبد الله أقدمها له.

الآن وقد مضى علي أسبوعان لم يعد يزعجني ذلك. تعودته وتعود المتحدثون وجودي واسمي، وخفت حدة كلامهم، ويعضهم صار يداعبني، ويسألني عن مصر، وأحوال مصر، وأنا لا أعرفه، ولم يسبق أن التقيت به، لكنني لم أعد قادراً على نسيان النظر إلى الساعة حين تصل إلى الثانية عشرة. حتى لو كنت في غرفة عابد، انظر إلى الساعة الماثلة تماماً، التي اشتراها هو أيضاً لغرفته.

بعد الثانية عشرة يبدو الكون هنا واسعاً فارغاً، فالشمس تضيئه حتى كأنها ستشعله، ويصبح ظهور شخص أو سيارة أمراً نادراً إلا اليمني العجوز الذي يرتدي زياً افرنجياً، وافاجاً دائماً به وقد جلس على أرض الباحة بجوار السور، وراح يضع السواك في فمه يحركه بيده. لم يحدث أنني رأيته يدخل الباحة مرة دائماً أراه جالساً بعد الثانية عشرة يحرك السواك في فمه. لا تضايقه الشمس فوقه ولا تراب الأرض التي يفرشها. أنظر اليه فينظر إليّ ويتسّم، وأرى نبيل يتقدم نحوه بكوب من الشاي يأخذه في صمت، ويعود نبيل في صمت أيضاً. وإذا دخلت سيارة عابد أو عم عبد الله أو أي زائر، وثارت التراب في الباحة، فلا يتحرك من مكانه. كلما نظرت فقط إليه نظر إليّ مبتسماً تلمع عيناه بذكاء حاد، إنه سائق شاحنة وفي حوائط الخامسة والخمسين قلت لعابد مرة:

- ليس لهذا اليمني اسم في دفتر الحضور، ولا في دفتر الانصراف، وليس له ملف عمل عندي.
قال:

- هناك اتفاق بينه وبين عم عبد الله أن يتقاضى راتبه دون أن يتم تعيينه بشكل رسمي.

- لكن تعيين اليمينين لا يرتب عليهم أي أعباء، إنهم يعاملون كأبناء المملكة، ويستطيعون ترك العمل في أي وقت

- صحيح، هو يعرف ذلك، لكنه يقول من ضمن ثبات الأحوال.
عم عبد الله يحبه ويوافق على شروطه.

قلت لنفسني: إذن لن يدخل هذا الرجل مكتبي أبداً.

لا أعرف بحق لماذا فكرت في ذلك، ولا أعرف لماذا أحببت أن يدخل هذا الرجل مكتبي. أشرت له بيدي مرة أن يتقدم إلى المكتب، فلم يفعل أكثر من أنه ابتسم، وعاد إلى السواك يديره في فمه. وفجأة فكرت كيف لا أراه إلا وهو جالس في موضعه بعد الثانية عشرة. شغلني ذلك، وراقبت الباحة ليومين حتى أراه في قدميه، ودائماً كنت انشغل في أمر ما. كانت لحظة من الانشغال كافية لأن أجده جالساً ينظر إليّ مبتسماً وتلمع عيناه بالذكاء المشتعل كأنه يعرف بالضبط ما أريد، ولا يريد أن ينيلني إياه.

صرت أحب البيت، ومنذ الثانية عشرة كل يوم لا أكاد أستقر جالساً. ما الذي يقلقني كل هذا القلق؟ أستطيع لو أغمضت عيني أن أفسح الطريق لمرور الوقت، والساعات الثلاث الباقية لا تمر ببطيئة إلا لأنني أنتظر مرورها.

البيت حقاً جميل. بعد نوم القيلولة نضع «الطاولة» بيننا في الباحة ونضع النوتة وعلبة النقود. الآن نادراً ما أخسر. لا يمر يوم إلا كسبت ثلاثين ريالاً، وكلما ضيبت نفسي جاداً في اللعبة أكثر معاً ينبغي، قلت يا اسماعيل لا مكسب هنا ولا خسارة، كل شيء سيعود إلى أصحابه. لكنني سرعان ما أنسى وأبدو جاداً في اللعب، ويضحك سعيد ووجهه على هذا التحول الذي أصابني.

رغبة البيت جميلة حقاً بالنساء. نحن نتقدم في سبتين، والنسمة بالليل تبدو وقد لأنت قليلاً، والتليفزيون دائماً أمامنا حتى لو كنا نلعب الطاولة. أنا الذي أنقل التليفزيون من حجرة سعيد إلى الردهة. أنا الذي أحرص على ذلك.

صرت أحب التليفزيون وأحفظ كل برامجه. لم يحدث في مصر أني ضبعت نفسي متلبساً بالانتماء بالفرجة على التليفزيون. هنا تنمو بيننا علاقة غير مفهومة. هنا أكاد أتخيل أن برامجه حقيقية تدور حولنا. وصرت مغرماً بالفرجة على حلقات رجل بسطة ملايين دولار، التي تَبَثُّ أكثر من مرة في الاسبوع. لم أهتم قط بها في مصر هنا شاهدت ثلاث حلقات ضخمة، وأمس أعلنوا قراراً بعدم عرضها مرة أخرى بسبب حوادث في الرياض والدمام. القى بعض الأطفال أنفسهم من الأدوار العليا تقليداً لستيف اوستين. أعلنوا عرض حلقات جديدة بعنوان «الرجل الأخضر» مبتدأ الاسبوع القادم، وانتظر يشغف شديد هذه الحلقات. كل شيء تافه في التليفزيون هنا صار يأسرني. بثوا فيلم فارس بني حمدان مرتين. وفي المرتين رأيته كأنني أراه لأول مرة. وفي المرتين أحببت فريد شوقي وكرهت غريمه محمود مرسى. رغم أدراكي لسذاجة الفيلم كله.

في الردهة، وتحت السماء العالية، وفي نسمة ليثة، تبدو أصوات المغنين شيئاً ساحراً. وفي الردهة، وتحت السماء العالية، ياخذني صوت المؤذن لصلاة المغرب ثم صلاة العشاء، إلى أفاق عالية عن الشجن. صوت المؤذن كأنه نداء طائر ذبيح من فوق جبل شاهق. بعد المؤذن أسمع صوت المذيع الشجي وهو يرجع أحد الأحاديث النبوية. يا إلهي ما سر هذا التوقيع العميق، وتلك النبيرة شديدة الأسى، التي تحملني إلى أودية البداعة والسكينة؟ فضاء يفتح أبواب الراحة في روحي، ويكاد اندمع يترقرق في عيني أنا المعاصي لذي لا يعرف ذنباً ارتكبه.

صرت أحب البيت، وأرفض كل دعوة للخروج منه، حتى لو كانت

دعوة عشاء عربي مما يتكرر كثيراً. يذهب سعيد أحياناً أو وجيه لحضور مثل هذه الدعوات عند بعض أصدقائهما أو أصدقاء لاصدقائهما من أهل البلدة، ويأتون يتحدثون عن «الكبسة»، الأكلة الشعبية العربية، حيث تُقدم الخراف الصغيرة المشوية فوق صوانٍ كبيرة فوقها الأرض المحشور بالصنوبر واللوز والجوز، وكيف يصير الأكل بالأيدي مباشرة، والشاطر هو من يضبط شهيته، لأن الاسهال كثيراً ما يصيب الذي يُقبل على الأكل بهمة. ويقول سعيد: «ليس مهماً أن تأكل. المهم أن تتفرج»، لكنني أحب إذا دخلت البيت أن لا أغادره.

ينتهي الإرسال التليفزيوني، وأدخل حجرتي ألقب في الصحف والمجلات التي يشتريها وجيه وسعيد، ويتركها في المطبخ بعد قراءتها. كل الصحف تتحدث عن السادات وتلغنه، وحملت إحدى المجلات عنواناً يقول (ألا من رصاصة تزف إلى رأس الخائن؟). وفوق العنوان صورة للسادات في المزة العسكرية الألمانية وفي قمة الباب الشهير. لا أقف كثيراً عند السياسة. أتجاوزها وأبحث في الاعلانات عن نساء. صور عارية لنساء. لا أجد ذلك حتى الآن رغم كثرة الاعلانات عن ساعات سويسرا واليابان وعطور فرنسا وأثاث إيطاليا وقصور بريطانيا وشركات طيران سنغافورة.. النساء شيء لم أفكر فيه من قبل، لكن لا بد أنني ما جئت إلا من أجل ذلك. لماذا أتيت هنا حقاً؟ لجمع المال؟ لأخوتي؟ للاكذوبة التي وضع أبي حبليها في عنقي؟ أنا لا بد خائض بحر النساء يوماً. ذلك البحر الذي لم أشأ أن ألقى فيه يوماً بحجر، والذي بسبب ذلك الحرص اللعين على الأكذوبة، والاستمرار اللعين لتعذيب النفس الذي لا أعرف من أين أصابني، ضَيِّعْتُ أكثر من قلب، وضَيِّعْتُ قلباً كبيراً. أي رجل

تعبس أنا! لكنني صرت أحب البيت ساعة فنقل مراثينا الى الردهة لنقام. يقول وجيه إن ذلك سيصعبه أكبر الضرر فيما بعد، لكنه لا يشركنا، ويقول سعيد ليس أجمل من نوم رجل وامرأة هنا تحت السماء والطير والنجوم، ونضحك. في بنصره الأيمن دبلة الخطوبة، ولم أحاول أن أعرف منه شيئاً، هو لا يتحدث في الامر، لكنه ينشد وهو ينظر الى قبة السماء المنرصعة بالنجوم.

مكليفني لهم يا أميمة ناصب

وليل اقساويه بطيء الكواكب

«تقاعس حتى قلت ليس بمنجل

زليس الذي يرعى النجوم بأيب»

ونضحك، ويقول وجيه: لكن صاحبك اسمها «وداد» وليس

«أميمة»، فيغمز لي سعيد بطرف عينه ويقول: «جاهل»، وأعجب من

معرفة سعيد بالشعر وهو مدرس التربية الرياضية.

أود أن أقول إنني أيضاً أعرف الكثير وإن علا التراب الذاكرة،

إنني قضيت صباي ومطلع شبائي مع الاغاني وعيون الاخبار

إنني داني... ولا أقول. أقول لنفسى: كان الوقت متسعاً فلا تأس.

أفكر كيف أن سعيداً أبداً لا يخوض في حديثه عن خطيبته التي

عرفت اسمها فقط، كذلك لم أعرف عن وجيه حتى الآن أكثر من أنه

مترولوج. ذلك واضح من الدبلة التي في بنصره الأيسر، لكن سعيداً

ال له: «لا يقاسي الحب من يتسع قلبه لامرأتين يا دكتوراه، وسكت

نا مرتبكاً، وفوجئت بوجيه لا يهتز. يضحك ويقول: «الله يعرف أكثر

نا، لذلك شرع أربع نساء للرجل، وأنا أحدث عن الثالثة الآن».

نظر إلي وقال: «هل يبدو أنني متزوج من اثنتين؟». ابتسمت

مرتبكاً، لكنه استمر يضحك ويقول إنه تركهما معاً في المنصورة. لم يشأ أن يصطحب واحدة فتغضب الأخرى، وهو يحب أن «يرفق بالقوارير». ولأمر ما تركنا وجيه للحظات ودخل حجرته، فهمس لي سعيد بأن زوجتي فائقتا الجمال. لواحدة ولأخرى كالهدر والثانية بنت كالفقر، وهو طالما تحدث عن امرأة ثالثة فلا بد سيفعلها، لكنني لم أجد من الواجب أن أخوض في شؤون أي منهما طالما أنه لا يفتح الباب. غودت نفسي ذلك، وأثرت أن أعرف عنهما ما يليق به إلي، ولم أشعر بأي ضيق. أنا ما جئت هنا إلا لوقت عابر، فلاكن امرأة لامعة تنزلق عليها الوقائع، ولا أفسد أحسائي بالراحة في البيت، ولا أحاول أن اغتحم فرصة غياب واحد منهما لأعرف منه شيئاً عن الآخر. أمامي وقت طويل معهما لا بد يتكشف لي فيه كثير من الأسرار.

— ما لك اليوم تلعب شارداً؟

قال سعيد ونحن نلعب الطاولة في الردهة. كان وجيه نوبتجياً الميلة بالمستشفى.

— فاروق، لم يصلني منه خطاب.

ضحك وقال:

— هل تنتظر خطاباً من شخص سافر ليتزوج؟ العجب.

وقذف بالزهريين بقوة، وسمعنا صوت طرقات خفيفة على الباب.

— ترى من الذي يأتي الآن. ربما وجيه ترك العمل وعاد يلعب الطاولة.

قال سعيد وهو قائم يضغط ليفتح الباب. فتح وسمعته يصيح:

— أهلاً يا دكتور رافت. تعال. لدينا زبون جديد.

ودخل الودعة شخص ذو قامة طويلة، تقدم بصافحني بحرارة، فبادلته المشاعر نفسها. وقدم له سعيد مقعداً وهو يقول لي:

- الدكتور رافت، طبيب مسالك بولية عظيم. إنه هو صاحب فكرة اللعب بالفلوس ورد الخسارة لصاحبها آخر الشهر. لا بد أنك ستلعب معنا يا دكتور. مضى وقت طويل لم نرك.

ابتسم رافت بهدوء، وقال:

- الحقيقة أنا لم أت لأسهر. جئت فقط لأودعكم. أين وجيه؟

تسأل سعيد بهشة:

- تودعنا؟ خيراً يا دكتور.

- أنني عائد إلى مصر عودة نهائية.

- معقول!

- لماذا لا يكون معقولاً؟ سأسافر في الصباح. ألم يخبرك وجيه؟

- اطلاقاً. وجيه اليوم نوبتجي في المستشفى.

هز رافت كتفه وابتسم وخاطبني:

- القرار الصعب هنا أن تحدد متى تعود. الوقت هنا ممل. يبدو

كذلك حقاً، لكنك تكتشف فجأة أنه مر بسرعة وأخذ معه خمس

سنوات من عمرك. بعضنا هنا أمضى عشر سنوات. كم خمس

سنوات وكم عشر سنوات في عمر الواحد منا؟ لا أحد يفكر في ذلك.

قوة الشباب وكثرة المال تنسينا. لقد حاول الكثيرون تنبي عن

العودة لكنني قررت. خمس سنوات كافية جداً لأي بلد غير الوطن.

هنا لو تأملت الأمر ستجد سجنًا كبيراً. من حقا أن تزور الناس

وتتحرك، لكن الناس هي الناس ولا صباح جديداً ولا مساء جديداً

- ولم يلاحظ أن حديثه طال أكثر مما ينبغي - أنا لا أستطيع البقاء

في دولة يتم الانتقال بين مدنها بالطائرات، أكثر من خمس سنوات. ثم ماذا يريد الواحد منا غير مبلغ معقول يبدأ به حياته في مصر. أنا فعلت ذلك. عندي الآن عيادة في طنطا، وسأسافر من هنا إلى أميركا أشتري بعض الأجهزة، وأعود أعمل بالعيادة وأعيش كأني مواطن يعتمد على عقله وقوته. هل ترائي مخطئاً؟

ابتسمت. أجبت:

- على العكس. معك كل الحق.

كان سعيد قد تركنا واتجه إلى المطبخ ليعد كوباً من الشاي لرافت، وعاد به يقدمه إليه قائلاً:

- شاي بدون سكر يا دكتور.

- اشكر.

وأخذ كوب الشاي، وقال لي:

- السكر عندي مرتفع. لا تنزعج. يحدث ذلك للكثيرين الآن.

وقال سعيد:

- لا أظن أن وجيه سيتأخر. إنه نوبتجي بانساء فقط. لن يبقى

للصباح.

- غريب أنه لم يخبرك. يعرف أنني سأسافر غداً ولا يفكر أن يمر

بي.

- قد يفعلها في عودته. ربما رتب نفسه على ذلك. ستوحشنا

كثيراً يا دكتور. اسماعيل سيء الحظ لأنه لم يتعرف عليك من قبل.

أنت لم تزونا.

وخاطبني الدكتور رافت:

وضاعت الجثة في البناء. اكتُشِفَت الجريمة اليوم فقط. تم القبض عليهم واعترفوا. ونُقل أحدهم إلى المستشفى بين الحياة والموت من أثر التعذيب.

أنا سعيد بمعرفتك يا أخ اسماعيل. هل تحب أن أحمل لك أي رسالة لمصر؟

- أحمل في السلام يا دكتور.

- تصور يا استاذ اسماعيل، إنني أكثر الناس احتياجاً للبقاء هنا. سعيد يعرف ووجيه. ابني المصاب بشلل الاطفال يلتهم علاجه معظم ما أكسبه. ابني هناك في مصر، لكنني قررت أن لا أبعد عنه أكثر من ذلك.

ارتبكت كثيراً. قلت:

- ربما كان وجودك معه أفضل علاج يا دكتور.

- هل تظن ذلك حقاً؟

- بالتأكيد.

وصمتنا، ولاحظت أن دمعاً بدأ يتفرق في عينيهِ. وفي اللحظة التي هم فيها بالقيام، سمعنا المفتاح يدور بالباب، وهتف سعيد:

- هذا هو وجيه.

ودخل وجيه بالفعل وهو يقول:

- مساء الخير على المصريين.

صافحنا وقال لراقت:

- أنا قادم من عندك. لم أجده بالطبع. لا تلمني. ما حدث الليلة ظيع.

- ماذا حدث؟

تسأل راقت بهدوء، فقال وجيه بعد أن جلس على مقعد رابع:

- تبوك لن تنام الليلة. ثلاثة من الصمعايدة قتلوا صاحب العمل. طعوه قطعاً صغيرة منذ شهر، ووضعوه في ماكينة خلطة الخرسانة،

أي يوم جميل هذا؟!

وقفت أحدث نفسي أمام باب غرفة مكتبي متطلعاً إلى السماء الزرقاء العالية، والفضاء السابح في نور انشمس الباهر. الصمت بعد لم تفسده قوة الحر، فالساعة لم تتجاوز الثامنة. جاء العمال وانصرفوا بعد أن وقَّعوا في دفتر الحضور، ولم أفعل شيئاً بعد ذلك غير شرب القهوة، والجلوس قليلاً أتذكر دخولهم في الساعة مسرعين.

«صباح الخير»

«غود مورنينغ»

«السلام عليكم»

جعل ثلاث أسمعها كل صباح، وفي الظهيرة حين يعودون للتوقيع في دفتر الانصراف يقولون فقط «السلام عليكم». يتحدثون بسرعة كما تآكل الأرانب، وأبتسم في وجوههم لأنهم دائماً يبتسمون. لكنهم دائماً على عجل. لا فرصة لقيام علاقة مع أحد. يحدث أن يتردد البعض إلى المكتب أثناء النهار، لكن لوقت قصير أيضاً، لمقابلة عم عبد الله أو للتحويل إلى طبيب، أو لطلب إذن بالانصراف ساعة

منتديات مكتبة العرب

<http://library4arab.com/vb>

لقضاء عمل يتعلق بالبنك أو استقدام الزوجة والأبناء. فيليب سوساي بيلًا، الكهربائي السيلاني العجوز هو الذي يقف أحياناً يتحدث معي. أخرج مرة نسخة صغيرة من القرآن من جيب سترته وفتحها وأشار إلى آية «وخلقنا الإنسان في كبد»، وسألني ماذا تعني. راعني أنه يحمل نسخة من القرآن، وراعتني النسخة نفسها فهي بالانكليزية والعربية معاً، أحبته:

- في تعب ومشقة.

تسألت:

- كل الناس تتعب؟

- المعنى أنه لا راحة في الحياة الدنيا، الراحة الحقيقية في الآخرة.

قال في دهشة:

- لكن الناس هنا مرتاحون جداً؟

- من تقصد؟

- أهل البلدة مستر اسماعيل.

ابتسمت. سألته:

- هل أنت مسلم فيليب؟

- بوذي لكنني سأشهر إسلامي. أنا لا أريد العودة إلى سيلان.

أدهشتني وهو الذي تجاوز الخمسين أنه يفكر على هذا النحو. لكنني ابتسمت له، وشددت على يده وهو ينصرف. لم يمر يوم بعد ذلك إلا سألتني فيليب عن معنى من معاني القرآن، ولما سألته متى سيشهر إسلامه، قال:

- بعد أن أفهم القرآن كله مستر اسماعيل. إنني جاذ في الأمر.

غير فيليب كان هناك «مؤذنه» الأردني الذي يدخل ويخرج في عجلة واضحة، يُلقي السلام ويوقع في الدفتر ويمضي غير منتظر أن أردد عليه التحية. أكثر من مرة فكرت أسأله لماذا هذه العجلة، وراثياً أم لا. في النهاية قلت لنفسني: له في خلقه شؤون. ولم يلتفت انتباهي من بقية العمال غير «أرون بونكود» التايلاندي ذو العينين اللوزيتين والشارب المغولي. يريكني في حضوره وانصرافه. يوقع بالانكليزية، وينظر إلى طويلاً، ويتنسم ابتسامة واسعة، ويمضي على مهل. يفعل ذلك كلما جاء إلى المكتب، وأحياناً يسألني عن حالي، فأقول: بخير، فلا يقول شيئاً آخر ويمضي. يدا لي مثل شخص يعرفني منذ زمن بعيد، ويريد أن يذكرني بنفسه.

- ورأيت عابد يقف فجأة بباب غرفته. نظر إلى وقال:

- يوم جميل أليس كذلك؟

ابتسمت. قلت:

- كنت أقول لنفسي ذلك منذ لحظات.

- عم عبد الله لديه اجتماع في الإمارة اليوم. أنا لن أترك المكتب نستطيع الذهاب إلى أرشد لتعلم القيادة. يجب أن نتعلم القيادة حتى لا نحتاج لأحد لتوصيلك للبيت.

في اللحظة نفسها لمحت نبيل يقترب من ناحية البوابة يحمل صينية عليها فنجانان من القهوة. نبيل يفعل ذلك مرتين في الصباح. بعدها لا يقدم لنا شيئاً إلا إذا طلبنا. وفجأة صاح:

- يا فتاح يا عليم. جمعة وصل.

كان يحدث عابد. ونظرت إلى انبوبة حيث أشار، فوجدت شاباً مصرياً ضخماً البناني يتقدم في الباحة مبتسماً.

- صباح الخير على المصريين.

قال وهو يقترب منا: أخذه عابد من يده ودخل غرفتي فدخلت معهم. صافحتني الشاب بقوة، ووقف نبيل يحمل القهوة وينظر الى الشاب في دهشة، ثم خاطبني:

- استعد يا عم ستدفع خمسين ريالاً من أول راتب.

كنا تسلمنا رواتبنا أمس، ما كنت أفرع في الكلام حتى قال الضيف:

- ليس لي والله. للميت..

ولا بد أن الارتباك الشديد بان على وجهي وأنا أجلس. ورايت عابداً يتجه الى الخازنة يفتحها ويخرج منها خمسين ريالاً، وظل جمعة واقفاً، بينما وضع نبيل القهوة، وقال لعابد:

- سأضع فنجانك في غرفتك.

واستدار يمشي فقال جمعة ضاحكاً:

- أكن تدفع يا نبيل؟

ضحك نبيل وقال:

- الميت القادم.

وخرج، وجمعة يضحك، وعابد يبتسم وهو يقدم له الخمسين ريالاً، وأخرجت أنا من جيبني مثلها قدمتها له، وقال عابد:

- جمعة يعمل في شركة البازعي أكبر مقاول في البلد، أكبر مقاول

في المملكة تقريباً، عنده سفن في البحر، وأسطول سيارات يحارب به إسرائيل لو أراد، لا يمر يوم دون أن يموت عنده واحد من العمال، البازعي ومديروه يرفضون دائماً دفع مستحقات الميت، يرفضون

دفع ثمن شحن الجثة، يرفضون حتى ثمن الصندوق الخشبي ادفنوه في المملكة، أرض طاهرة، دائماً يقولون: أصبح معروفاً أن لكن جنسية مندوباً لجمع التبرعات للموتى عند البازعي.

ما كنت استوعب الأمر حتى دخل نبيل المكتب يقول لجمعة:

- لو أرسلت أحداً غيرك مرة يا عم جمعة قد لا يموت أحد بعد ذلك.

احمر وجه جمعة، لكنه لم يكف عن الابتسام حتى بدا لي فجأة شخصاً شديد الحماسة.

* * * * *

شربت قهوتي وحدي، انصرف جمعة، وعاد عابد الى غرفته، وانشغل نبيل في تنظيف السيارة الكاديلاك الواقفة في الباحة، سيارة بيضاء جميلة تقف مثل لوزة ضخمة تسبح في بحر من النور، لدى عم غيد الله أكثر من سيارة، ويركب في اليوم الواحد أكثر من واحدة، وكل منها مجهزة بتليفون لاسلكي.. لم استطع أن أضرب وجه جمعة من الغرفة. قال عنه نبيل بعد انصرافه: إنه يعرفه ويتشاع من مجيئه، وإنه في الأصل يعيش في القاهرة بمقابر الإمام وإن أباه تربى، وضحك وقال: «الدم يحن». لكني لم أضحك كنت مأخوذاً بما يقول.

نهضت أذهب إلى «أرشد». لا يجب أن أفسد بهاء هذا اليوم. قطعت الباحة الباهرة بضوء النهار، وترك نبيل عمله في السيارة الكاديلاك، ولحق بي بعد البوابة:

- إلى أين؟

- إلى أرشده أتعلم القيادة.

- إذن خذني معك.

ومشيئاً لا بد أن نبيل يعرف بانشغال عم عبد الله بالإمارة اليوم فهو يمشى حتى الموت.

- أتمنى يا أخي أن أتعلم القيادة مثلك.

قال نبيل ونحن نتقدم صامتين، لم أرد. تطلعت إلى الجراج القريب المجاور للكامب الذي يسكنه الآسيويون. هذا مكان لم أحضر إليه من قبل. الأرض بين مكاتب الشركة وبينه ليست مهيأة، لكنها ليست صعبة. أرض من الحجر الجيري عليها طبقة رقيقة من الرمال. واستمر نبيل يتكلم:

- المشكلة يا أخي أنني لا أجد الوقت بالنهار، لأن عم عبد الله يمكن أن يعود في أي وقت ويحتاج إلى القهوة.

- لماذا لا تتعلم في المساء؟

- أرشد يخاف استخدام السيارات بعد العمل. وعابد لا يسمح لي بالتعلم على سيارته.

أربكني بحق. فكرت لماذا إذن يأتي وقد لا يجد فرصة أخرى. قال كأنه يقرأ أفكاره:

- أحببت اليوم أن أراك وأنت تتعلم. سوف أتعلم مما تفعله أمامي. شفهي، يعني.

أبتسمت. كنت أضحك. قال:

- أي والله.

اندفعت أضحك. وأحسست أن الفضاء يجاوبني في ضحكاتي رغم أنه لا جبال حولنا. وقال فجأة:

- لماذا لا تصدقني؟ لماذا تسخر مني؟

وكانما الفضاء الواسع ازداد اتساعاً فجأة. أحسست أنه لا يوجد في الدنيا كلها غيرنا. أنا ونبيل فقط في هذا العالم. وأحسست، وبالعناية هذا الاحساس الذي لن أنساه أبداً، برغبة في أن أقتله. لو أن سكيناً كانت في يدي لطعنته. ووقفت أراقب الدم يمشي فوق الأرض لامعاً تحت الضوء..

- هل تصدق أنني أحببتك جداً يا أستاذ إسماعيل؟

قال، فأدهشني. وأدهشني أنه لا يرفع الكلفة بيننا اليوم. لا يحدثني باسمي مباشرة كما تعود. واستمر يتحدث:

- اعتقد أنك طيب يا أستاذ إسماعيل. عابد هذا شعبان. كوبرا. ينام معي في غرفة واحدة وأعرفه. تصور أنني أحياناً أقوم من النوم فزعاً خوفاً من أن يقتلني. لماذا يحدث ذلك يا أستاذ إسماعيل؟ هل سأجن هنا؟

وتوقفت عن المشي. مزيج ضاغ من المشاعر أوقفني. لا أعرف هل أردت أن أموت عليه أم ألحنته أم أمره بالعودة. قلت وأنا أمسك بذراعه:

- لا تصد نفسي عن الناس يا نبيل.

وبالمنظرة عينيه وهو يكاد يبكي فجأة. قال:

- أنا لم أقصد ذلك. أردت أن أذكرك أن لا تتماذى في صداقة

أحد. أنت هنا مثل كل الناس لجمع المال فقط.

تركزت ذراعه، ومشيت صامتاً. لاحظت أننا نبتعد عن بعضنا قليلاً ثم نعود ونقترب. لم يطل مشيتنا فالفاسفة قصيرة، وقبل باب الجراج بقليل سألته:

- هل جئت لتعلم القيادة حقاً؟ استطع لو أحببت أن أفتح أرشد
تعلمك في المساء..

قال:

- لو حدث أنني سرقمت الخازنة هل يقتلونني؟

سألت أرشد:

- وحدك تعمل في هذه الورشة؟

اجاب:

- معي «وقاج الدين». خرج يجرب إحدى السيارات. الورشة صغيرة كما ترى.

كنا قد انتهينا من الدرس الأول، الذي لم يزيد عن التعرف على اجهزة نابلوه السيارة، ونقل الحركات والسيارة في حالة وقوف.

لقد تركني نبيل بمجرد بلوغنا باب الجراج. قال إن عم عبد الله ماكر يمكن أن يعود في أي وقت، ولم ينتظر اجابة مني عن سؤاله المفاجيء الذي اربكني.

انشغل أرشد عني قليلاً وراح يملأ كوبين بالشاي من «تورمس» اخرجهم من درواب خشبي صغير. رحت أتأمل الورشة والجراج.

سيارات قليلة معطلة، وكثير من العدد القديمة تملأ الأركان، والأرض سوداء متسخة. لأرشد وجه شديد الحضور، عليه دائماً مسحة استنكار واستياء. تزداد هذه المسحة حين يأتي الى المكتب ويدخل في نقاش مع عابد حول مشتريات الكامب من الأغذية. أرشد مسؤول أيضاً عن إعاشة الأسويين.

لأرشد عينان عسليتان، حادتا الذكاء، ويبيض بشرته يميزه عن كثير من الباكستانيين، رغم أن له الشارب نفسه المنحرف بعناية واتساق مع الشفة العليا، وله الشعر نفسه الاسود الناعم. لكن ملامح أرشد كلها تضيق وهو يناقش عابداً فيما هو مطلوب من غذاء. يبدو أرشد في البداية لطيفاً، وهو يتكلم بالانكليزية يختار كلماتها بعناية، لتكون واضحة وسهلة لعابد الذي لا يعرف الكثير منها، ودائماً يطعم حديثه بكلمات عربية، لكن سرعان ما تختلط ملامح وجهه، وترتفع فيه حمرة الدهشة والاستنكار. أرشد يبدو جاداً دائماً وعابد يحدثه بغير اهتمام، بالضبط كما يلقي الواحد بورقة في سلة مهملات. يقول عابد: «ماتش كمون» ويهز كتفه، فيقول أرشد: «بيس ماتش كمون مستر عابد. كمون اذ نيسيسري». ويطول الجدل دائماً حول كمية التوابل التي يطلبها أرشد. التوابل من أرخص الأشياء بالملكة. إلا أن عابداً يحلوه أن يتوقف عندها ويتعنت. يقول أرشد نافذ الصبر: «مستر عابد بليز ريميبر هارميني تايم أي طولد يو ذات كمون أند شطة أند بيير أند أول بهارات اذ نيسيسري فور أوز قود». واكاد أضحك من هذا المزيج الغريب من العربية والانكليزية المعجون بلكنة اورندية.

الحقيقة أنني دهشت من موقف عابد الذي لا بد أنه يدرك قيمة

الحد؟ ورشفت ما بقي من الشاي دفعة واحدة، وقمت أصافحه على
ان نلتقي في الغد.

يا الهي، ما هذه السيارة التي تدخل الياحة بهذه السرعة، وتثير
كل هذا التراب؟ قلت لنفسي، وما كدت ادخل الغرفة عائداً من عند
أرشد. وسمعت صوت باب السيارة وهو يُفتح، ثم يُغلق بقوة، ورأيت
عابداً يقفز داخلاً مكثي:

- ملف السيلاني بسرعة.

- أي سيلاني؟

- فيليب، هل لدينا غيره؟

كان لدينا أكثر من سيلاني، لم أشأ أن أرد، وقفت أتعجب منه
لا يعطيني فرصة احضار الملف، بل يهجم على الدولاب يفتحه،
ويختطف ملف فيليب، ويعود يهرول خارجاً. اسقط وهو يبحث عن
الملف عدداً آخر من الملفات فوق الأرض، رحت أعيد ترتيبها في
غيط، ثم رحت ادور في الغرفة. ودت لو أصرخ. أصرخ في أحد، أي
أحد وبني شيء. ورأيت نبيلاً يدخل حاملاً صينية فوقها فنجان
القهوة.

- تشرب قهوة؟ لقد ذهبت بها اليه فرفض.

كيف أعذ القهوة بهذه السرعة وذهب بها ايضاً. لا بد أن عم
عبد الله هو الذي دخل الياحة مثيراً نكل هذا التراب. كدت انفجر
بالضحك.

- رفض القهوة وصرخ في وجهي ان أنصرف. ستطردني انت

ايضاً؟

التواجل في طعام الأسويين. قلت مرة لأرشد وهما محتدان في
التقاش، إن عابداً يداعبه فقط، ففوجئت بعابدي يقول لي جاداً: أنا
لا أداعبه. إنهم يستهلكون كمية كبيرة جداً ويكلفون الشركة
الكثير. بعدها لم أتدخل في النقاش.

- اشرب الشاي مستر اسماعيل.

قال أرشد، فأخذت الكوب في يدي، ورشفت رشفة، وقلت:

- أرشد. أنت تعرف أن الباكستانيين غير التايلانديين غير
السيلانيين. أنا في الصباح أو بعد الظهر، في حديثهم معي، لا أكاد
أميز بين كلماتهم. يصبح صوتهم واحداً تقريباً حين يقولون صباح
الخير أو غود مورنينغ أو السلام عليكم. أنت الآن تحدثني
بالانكليزية، لكن صوتك لا يختلف عن صوت أحد.. انني اسمعك
فأتذكر الجميع شيء غريب. اليس كذلك؟

ابتسم أرشد، وراح ينظر الي بائق شديد في عينيه. ابتهج أرشد
فجأة، لا أدري لماذا. أنا قلت ذلك كله دون ترتيب، ولا أعرف
بالضبط متى فكرت فيه. قال:

- أنت ايضاً سبتشابه صوتك معنا مستر اسماعيل.

سكتنا، ورحنا نشرب الشاي، ووقعت عيني على كتاب فوق مقعد
قريب، فقام واخذ الكتاب ووضع في الدولاب الخشبي بعاد يقول:

- أنا آسف مستر اسماعيل. لقد أحضرت هذا الكتاب معي
عفواً. أنا لا أجد وقتاً هنا للقراءة.

تأملت وجهه قليلاً، فأغمض عينيه. لماذا يخشاني إلى هذا

- ضع القهوة على مكتبي واجلس. هل عرفت شيئاً؟

- كارتة. فيليب سرق راديو من السوق وقُبض عليه..

- كيف عرفت؟

- سمعت عم عبد الله يقول ذلك لعابد وأنا أدخل.

وداح يهتز بالضحك، ويحاولته أن لا يصدر صوتاً، وسمعنا صوت عم عبد الله وهو خارج من المكتب يقول لعابد:

- اجلس هنا لا تتحرك. وقل لهذا - يقصدني بالتأكيد - أن لا يترك مكانه.

وسمعت صوت باب السيارة يُفتح ويُغلق بعنف مرة ثانية، وسمعتها تدور، ورأيت عم عبد الله يعود بها إلى الخلف في سرعة. لم ينس أن ينظر إلي بحدة، ثم اندفع إلى الأمام بقوة، فملأ الفضاء مرة أخرى بغيار أكثر مما هو فوق الأرض.

نظرت إلى الساعة فوجدتها الثانية عشرة. نظرت إلى الباحة فوجدت اليمنى العجوز يدير السواك بيده في قمه. سخل مع غبار السيارة. كانت هناك فرصة أن أراه يدخل اليوم لولا غبار عم عبد الله. ابتسم وبرقت عيناه وهز لي كتفه حين رأيته انظر إليه.

ابتسمت وجلست إلى مكتبي اتعجب من خلق الله. ما الذي حقاً يجعل فيليب يسرق؟ رجل مثله تجاوز الخمسين مهيب الوجه وملاحظ كبير لأعمال الكهرباء ويريد قضاء أكبر وقت بالمملكة ويستعد ليظهر إسلامه. ماذا سيقول لزوجته «روزالينا» وابنائها

العشرة. خمسة هنا وخمسة تركهم في سيلان. العاشر من ابنائه تُنجب هنا وأسماء «فيرلانود» ويقول إنه ليس أسود مثله ولكنه بُني مثل «روزالينا» قطعة شيكولاتة صغيرة، وعمره عامان الآن، ويصحو في الصباح مع فيليب يتعلق بساقه لا يريد أن يخرج دونته، فيحمله فيليب من فوق الأرض، ويضعه فوق الدولاب، فيضحك «فيرلانود» ويخرج فيليب ويعود آخر النهار فيجد «فيرلانود» كما هو فوق الدولاب لكن يبكي. لا تفكر أبداً «روزالينا» صغيرة الجسم أن تصعد على كرسي وتنزله. «فيرلانود» معجزة الهبة فمن كان يصدق أن روزالينا تُنجب بعد أن تجاوزت الخامسة والأربعين، لكنها الأرض الطاهرة مستر اسماعيل. هكذا يقول لي. «انني وزوجتي مثل النبي زكريا وزوجته في القرآن مستر اسماعيل، فيليب يفسد كل شيء ويسرق راديو. لن يشهر إسلامه ولن يبقى بالمملكة.

أحسست بالضيق فقامت عازماً على ترك الغرفة والجلوس في البوقية قليلاً مع نبيل لكني رأيت يدخل ويتسأل:

- وين رأيح؟

وقفت مندهشاً من عودته بعد انقطاعه كل هذا الوقت. كان يتجه إلى المكتب الآخر القريب من الخازنة ويجلس خلفه والقرن فوق كتفه. يسألني كأنه كان معي منذ دقائق، مع أنه اختفى لأكثر من عشرين يوماً الآن، ولم يفكر حتى بالقاء السلام.

ودق التلفون.

- آلى.

- أنزل السماعة.

صوت عم عبد الله. أعرفه ولا أخطئه. هو أيضاً يعرف صوتي.
لا بد. وإلا ما قال ذلك. يريد عابد. ما ذنبي إذا كان التليفونان على
خط واحد؟ جلست من جديد الى مكتبي ممثلاً بالغيب.
- يا هلا يا اسماعيل.
ذكرني منصور بوجوده. قررت إذا شاء إلى أن أرى الاساءة
بأعظم منها.

- تسمح لي بالجلوس؟

- لقد جلست بالفعل.

- وسكتنا قليلاً. قال:

- لقد سافرت إلى عمان. ذهبت بالسيارة. عمان جميلة جداً..

لم أرى. وظهر نبيل بالباب حاملاً طبقاً به قليل من الفول
السوداني والفتق. قال منصور.

- ضعه على الأرض.

وضع نبيل الطبق. وتآلفت عينا القرد. وهز منصور كتفه هزة
بسيطة. فقفز القرد الى المكتب ثم إلى الأرض وراح يلتقط الفول
السوداني والفتق في سرعة مضحكة. راح نبيل يضحك ويقول:

- سرك. سرك. المعلم منصور.

احمر وجه منصور. ورايته يحاول اخفاء ابتسامة صغيرة.
وفجأة وجدت نفسي أضحك بشراسة. قال نبيل بعد أن توقفت عن
الضحك:

- منصور زارنا بالليل. أحضر لنا فتقاً من عمان.

لم أهتم. قال منصور لنبيل:

- فستق عمان طازج ليس كالذي يباع هنا. لكن لا تنس أنه
ليس كله لك. لا تنس الكيس الخاص بالقرد - ثم خاطبني - هل
يضايقك أن يأكل القرد هنا؟
- بالتأكيد.

- أجيبت بحسم.

- لو أحييت أن أخرج لخرجت.

لم أرى. وانسحب نبيل الذي لا بد أنه أدرك نذر الصدام.
وتسائل منصور:

- مصري أنت يا أخ اسماعيل؟

- ماذا تقصد بالضبط؟

- أقصد هل أنت من القاهرة. يقولون عن القاهرة مصر. اليس
كذلك؟

- أنا من الاسكندرية.

- جميلة الاسكندرية بها شاطئ. وبحر.

- بها أجمل شاطئ في الدنيا.

- رأيت القاهرة ولم أرها. هل تعرف السياحة يا أخ اسماعيل؟

- أنا سياح ماهر فزت في بطولات كثيرة.

كنت أكذب. لم يحدث اني سبحت عشرة أمتار.

- تسبح وسط النساء في البحر؟

- وسط نساء يرتدين المايوهات البكيني. والآن ينزلن بمايوهات
قطعة واحدة فقط. صدورهن تسبح امامك. ما رأيك؟

رأيتة ينظر إلى ثم يطرق. وينظر الى المكتب. ويضربه بأنامه
ضربات سريعة منتظمة. لاحظت اتساع اظفاره رغم ما يبدو من

نظافة مظهره العام، ورأيت وجهه يكفهر فجأة ويتبد بالغيوم، ثم وقف ودار حول المكتب، وكأنما أحس به القرد توقف عن الإتيان الحبات القليلة الباقية، ومد له منصور ذراعه فصعد عليها، ثم استوى فوق كتفه، واندفع منصور خارجاً بلا كلمة واحدة.

كان «منذره» أول الواصلين للتوقيع في دفتر الانصراف. ولأن عم عبد الله استدعى عابداً ليلحق به في الإمارة، طلبت من منذر أن يحملني في سيارته. ولأنني أعرف أنه في عجلة من أمره دائماً، قلت: - لن يستغرق توقيع العمال وقتاً طويلاً. لا تقلق. قال: - خذ راحتك يا رجل.

وجلس على المقعد الجلدي الواسع ونام. أجل. عد ساقيه، وارخى قبعته على وجهه، ونام، وسمعت شخيرته في لحظات. إلى هذا الحد يتعب منذر في العمل؟ سألت نفسي «وأرون بونكر» يقف أمامي مبسماً ابتسامته المحيرة. لاحظت: لأول مرة، أن أسنانه موضوعة في فمه كيفما اتفق.

قال وهو يصوب نظري عينيهِ المغوليتين:

- أنا محتاج إلى قرض ثلاثة أشهر مستر اسماعيل.

كدت أضحك من لكنته وهو يتحدث بالانكليزية. يقول «تري» بدلاً من «تري» ويقول «من» بالميم المخففة والنون فقط ويعني شهراً. قلت:

- هذا عمل عابد.

قال في يأس:

- أوه مستر اسماعيل. عابد هذا صعب جداً.

وريت على ذراعي، وقال إنه مضطر إلى هذا القرض ليرسله لزوجته لتشتري بيتاً في بانكوك. بيت صغير. ثم قال: - ما فائدة عملي في المملكة إذا لم اشتر بيتاً في العاصمة مستر اسماعيل؟

تأملت قصّره وامتلاء جسمه وصُفْرته بشرته وصلعة رأسه وعظام وجهه النائثة، واستمر يتحدث:

- ألا تود شراء بيت في القاهرة؟

- أنا أعيش في الاسكندرية آرون.

- أنا أيضاً لا أعيش في بانكوك.

- الاسكندرية أجمل من القاهرة.

- حقاً مستر اسماعيل. إنها مدينة جميلة جداً.

حسبت أنه يجاريني ويتملقني، لكنه قال:

- لقد رأيتها مستر اسماعيل. في السينما في فيلم أميركي جميل

كان اسمه «واحد بيرة مثلي» في الاسكندرية.

ريّت على كتفه وقلت:

- سأساعدك آرون. سأحدث مع عابد في الأمر.

قال بيئس:

- أشكرك مستر اسماعيل. أنت شخص طيب جداً.

ثم شَبَّ على قدميه ليهمس في أذني:

- دو يو لايك فاين؟

تلويلة الأولى لم أفهم. دهشت وأنا استوعب السؤال. ارتبكت.

عاد يهمس:

- لا تخف مستر اسماعيل، أنا أجهزها بنفسى. إن خمرة آرون شيء رائع..

كانت عيناه تتسعان بالثق غريب كأنما يشعرني بالبهجة كلها.
قلت:

- لا أحبها.

وكاد صرختي لا يخرج. أحسست بالخوف حقيقة، حتى أنه انصرف من أمامي من دون أن أشعر.

في الطريق صرختنا ربح العجاج بدوامات صفراء ثقيلة. أضاء منظر الكشافات، لكنها لم تفلح في إشعال هذا الظلام الأصفر، يلغنا من كل ناحية، يكاد يخنقنا. صرخ منذر:

- لا حيلة لي في ثراب هذا البلد. أنا منذر الذي لا يقف شيء أمامه. كهرباء يعمل، ميكانيكا يعمل، نجارة يعمل، حدادة يعمل. مراقبة يراقب، موت يموت. أنا منذر أعجز عن مقاومة هذا التراب الأصفر..
- نقف بالسيارة أفضل.

- نخنتق يا رجل. قد يطول الوقت. الكل يقف الآن بعيداً عن نهر الطريق. الكل يخاف. الطريق مفتوح من الوسط. ننتقل بسرعة نفسنا.

وصرت أسمع صوت ارتطام ثرات الرمال بالعربة، وأحس كأنما

شخص يحملني في صندوق معلق ويطير بي. المشكلة أنني أعرف أنني في سيارة. ماذا أفعل؟ هل أتوسل إليه أن يقف. صرخت:

- منذر. قف بالسيارة.

- تصرخ في يا رجل. تصرخ في منذر. تريد أن تموت. الا تعرف أنها بلدة ملعونة؟

ولم يهدئ من سرعة السيارة. صار يضحك بهستيرية. يهذي. منذر أفضل من شاذام. منذر يتحدى السوبرمان. ها ها ها. لا تخف يا رجل.

- لا تخف يا زلة. يا استاذ. يا مصري. هل تحب السادات؟ أنا تكرهه. أكرهه جداً. ها ها ها. وصوت الرمال صار كصوت مطر من حصى. ماذا أفعل مع هذا المجنون؟
- لا تخف. سأقف. أهدي من السرعة كما ترى. لا تخف أخي اسماعيل.

وأحسست بالسرعة تقلّ فعلاً، وبالسيارة تأخذ جانب الطريق لتقف، لكن العاصفة راحت تتقشع. وظهرت بيوت البلدة قريبة.

- انظر لقد قطعنا مسافة طويلة ولم يحدث شيء. نظرية منذر صائبة. الكل يقف على الجانبين. منذر لا يقف ويجري في المنتصف.

- لا اظن أنني سأركب معك مرة أخرى يا منذر.

- ستركب معي كثيراً يا استاذ.

وراح يقود السيارة على مهل رغم انكشاف الفضاء.

- سأتارك السيارات التي تخلفت تسبقنا. لن أضايق أحداً.. قل

لي يا استاذ، هل تسكن وحدك؟

رحت أتأمل وجهه المستدير المليء بآثار بشور قديمة. بشرته بيضاء وعيناه خضراوان.
- اسكن مع أصدقاء.
- في بيت عربي.
- أجل.

- هذا أفضل ما فعلت. كنت اسكن في بيت عربي منذ تزوجت سكنت في شقة في عمارة. أسوأ شيء هنا أن يكون لك جيران.

لم أفهم ماذا يقصد، فراح يحكي لي حكاية صاحب البيت الذي يسكن في شقة تقابل شقته. صاحب البيت رجل تجاوز السبعين، له زوجة لم تتجاوز العشرين. الزوجة السادسة بعد خمس زوجات. منذر في خروجه ويدخوله يرى الزوجة الشاببة أمام باب شقتها كاشفة وجهها. إنها جميلة جداً شقراء. من يراها يقل إنها تركية منسية في المملكة منذ عشرات السنين. إنه يخاف هذه المرأة الصغيرة. وسألته.

- هل أنت أردني يا منذر؟

لم أرتب للسؤال، ولم أدر ماذا قصدت منه. أنا اعرف انه أردني. تسامح:

- هل يهلك هذا يا استاذ؟

- أبدأ. أريد فقط ان أسألك عن الأردن، يقول منصور إنها جميلة.

ضحك وقال:

- منصور! هذا محيّل يا استاذ، هذا له قصة عجيبة سأحكىها لك فيما بعد، أظن أن بيتك قريب الآن.
كنت قبل أن أركب وصفت له البيت. وكنا وصلنا فعلاً. ما كنت أفتح باب السيارة لأنزل حتى هناك:
- استاذ، أنا لست أردنياً. أنا فلسطيني.
وكان ينظر إليّ بتحد غريب.

.. لماذا لا تحب النزول معي إلى السوق؟

سألني سعيد فجأة وهو يخلق الطاولة. كنا نجلس في الردهة
وكان الوقت يدخل في المساء. واستطرد
.. أنت تلعب شارد أ اليوم. لقد خسرت كثيراً.

لم أشأ أن أحدثه بشيء. ماذا يفيد القول بأنني أفكر في الصمت
الذي يحاصرني في العمل منذ أيام؟ لا أعرف أي خطأ ارتكبته مع
«أرشد» الذي إذا جاء ليطلب من عابد شيئاً يتصادف وجود عابد
في حجرتي، تجاهلني ولم ينظر حتى إلي. ينهي حديثه مع عابد
بسرعة، وينصرف مطيعاً لكل ما يقول. لا يحتج ولا يفضب. وحين
أذهب إليه لأتابع التمرين على القيادة يتعامل معي بجدية شديدة.
يبدو أنما يغلق كل طريق لحديث آخر. منذر لا يزال يدخل ويخرج
بسرعة، لكنه صار ينتظر إلي في خروجه ويدخله بتحد غير مفهوم.
يسألني متحفظاً للرد على أي شيء أقوله أو أفعله، حتى فيليب الذي
توسط عم عبد الله له لدى السلطات، ومنع ترحيله أو عقابه، لم يعد
يحدثني فيما يصعب عليه من القرآن. يبدو غير مستعد للحوار في
شيء. يعرف أنني إذا تكلمت بأسأله عن الذي دفعه للسرقة، وهو لا

منتديات مكتبة العرب

<http://library4arab.com/>

يريد أن يخوض في ذلك. لكن هل يدعو الأمر حقاً لقطع كل كلام؟ لقد بدا لي في الأيام الأخيرة أنني شخص لا يأمن الناس جانبه. هكذا بلا سبب افترفته. وقليل ما تذكرت عهدي لنفسي أن لا أكون مشاركاً في شيء، وأن أظل مرآة لامعة تنزلق من فوقها حبات المطر. وشغلني الضيق الذي لا أعرف إلى أي وجهة ادفع به. حتى منصور الذي يبدو ضعيفاً أستطيع أن أزيح عليه بعضاً من غيظي، عاد واختفى. لم يعد أمامي في العمل غير عابد الذي لا يعطي من الوقت إلا القليل في المكتب، ودائماً في أعمال عم عبد الله الخاصة، ونبييل الذي قال لي منذ أيام: «لا تصدق ما حدثك فيه بشأن الخازنة»، ثم انقطع عن كل كلام معي. يقدم القهوة في صمت وبعض.

أنا واليعني العجوز فقط نبادل الابتسام من بعيد قلت لسعيد: - إنني فعلاً بحاجة للنزول معك إلى السروق.

وقعنا نرتدي ثياب الخروج، كل في غرفته. اليوم جمعة. يوم يكون معظم العمل فيه علي، فسعيد يصحوا متأخراً ويخرج إلى الجامع، ويظل فيه حتى الصلاة، ووجيه عادة ما يمضي الليلة في المستشفى، ويأتي إلى البيت صباح الجمعة لينام. يكون علي أنا الذي لا يصلي، ولا يعمل ليلاً، أن يعد طعام الغداء. طعامنا يوم الجمعة يكون مصرياً. سمك مقلي وسمك في الصلصة وباذنجان مقلي وبطاطس مقلية وفول وفلفل أخضر مقلي أيضاً وأرز بالخلطة وطبق كبير من السلطة وعصير ليمون أو برتقال. لقد تعلمت عمل ذلك كله من سعيد.

يقوم وجيه بعد الصلاة ليتغدى معنا، ويخرج إلى المستشفى. ولا يعود قبل العاشرة. نجلس أنا وسعيد نتفرج على التلفزيون، أو

نلعب الطاولة. نحرص دائماً أن نرى حديث الشيخ علي طنطاوي. شيخ تجاوز الخمسين له وجه اليف، مشرق البشرة، تحوطه لحية قصيرة بيضاء، يتحدث كأنه يجلس معك ويخاطبك أنت وحدك بالغة قديمة. يتحدث في أعماق المسائل الفقهية ببساطة نادرة تصل إلى كل عقل، لذلك فيما يبدو تقاسمه الناس. قالوا إنه في الأصل مصري، وقالوا إنه سوري، وقالوا إنه مغربي، وأردني وفلسطيني.

علي أنني لم أكن بحاجة إلى النزول إلى السوق بسبب ما يحاصرني في العمل من صمت مفاجيء. هنا أيضاً نوع آخر من الصمت في البيت الذي أحبيته وأحببت العودة إليه والبقاء فيه أطول وقت. بأن لي أن حياتنا تعيش على ايّاق ثابت. أنه لا شيء يربط بيننا غير أننا غرباء. نضحك كثيراً لكن على حكايات نحكيها عن غربنا. لم يحدث أن خاض واحد منا في أمر خاص أمام زميله. نلعب الطاولة فيكون جهنماً في الفوز. نتفرج على التلفزيون فنقارن بينه وبين التلفزيون المصري. ولأن كلاً من سعيد ووجيه يرتدي نظارة أثناء اللعب أو الفرجة، أحس دائماً أنني جالس مع اثنين من العلماء. لا يبدو لي أن علاقتنا يمكن أن تمتد بعد أن نفترق. سنفترق. لا بد أن نفترق يوماً، لكن علاقتنا لا تحفر لها مجرى في القلوب. علاقة جديرة بالاحترام، لأن الاحترام المتبادل هو أساسها ولن تشهد يوماً خروجاً عن المألوف. حتى حين يبدو وجيه قلقاً من العودة إلى مصر، ويقول إنه لن يستطيع أن يمارس الطب هناك أبداً، وإنه بعد عودته سيفتح ورشة للنجارة، نضحك، ولكنه يبدو جاداً ويبدي الأمر لا يعني أحداً. أحياناً يقول سعيد: وصلتني اليوم رسالة من أمي. يتسائل وجيه: «كل شيء بخير؟» يرد سعيد: «كل شيء بخير» وينتهي الكلام. وجيه لا يتحدث عن رسائل تصل إليه.

أنا أيضاً لا أفعل ليس عن قصد - ولا يبدو أنهما أيضاً يقصدان ذلك. لا بد أن كلامنا لا يزال مشدوداً إلى الطرف الآخر البعيد.. الوطن والأهل. حقيقة أننا سنعود يوماً، لا بد أن تفعل فعلها وتسدد بيننا وبين ما حولنا. ولأن كلا منا مطمئن إلى عودة ظافرة، لا يبدو أن للقلق أو للخوف منفذاً يتسرب منه إلينا، أي حياة هذه التي تبدو منظمة مثل درس في قواعد اللغة. كل شيء حولي بارد. إذن وخروجي اليوم إلى السوق لا يزيد على ابتسامة باهتة.

* * * * *

ركبنا سيارة سعيد الداشون. جُستنا قليلاً في أرتة جانبية حتى دخلنا إلى الشارع العام. هل يصدق أحد أن هذه ثاني مرة أرى الشارع العام رغم مرور أكثر من شهر على وصولي. لا يزال الشارع مزدحماً كأنني أراه أول مرة. كأنني تركته منذ قليل وعدت إليه. لكننا ندخل في المساء. اضيئت المصابيح على الجانبين ورأيت القمر عالياً في السماء هلالاً صغيراً.

- المشي أفضل.

قال سعيد بعد أن جنح بسيارته إلى رفاق جانبي. كنا قطعنا نصف الشارع العام تقريباً. توقف وتركنا السيارة وعدنا نمشي. رصيف الشارع العام ضيق بالمارة والبضائع. صمت بشري غريب ورطوبة عالية مفاجئة في الجو منذ أمس. يبدو أن الصيف يلفظ آخر أنفاسه. نحن في أكتوبر الآن، في منتصفه، وفي النصف الثاني من ذي القعدة. أسابيع قليلة ويهل علينا العيد الكبير والحج. لقد بدأ التليفزيون يثب برنامجاً خاصاً عن الحج وشعاره، لافتات «التفزيونية» هي الأكثر شيوعاً في الشارع. فكرت أن اشتري شيئاً

لأمي وإخوتي وتراجعت. لا أعرف أحداً مسافراً إلى الاسكندرية لأرسلها معه. ولا أعرف أحداً يسافر في الوقت القريب.

الآن أرى السروق أفضل مما رأيته أول مرة. أمشي على مهل وسعيد لا يتعجلني في شيء، لكنني لا أشعر بأي غربة. هل كان مشهد السوق غريباً أول مرة حقاً، أم مشهد عربية الشرطة والفتاة المسكينة فوقها؟ الآن لا أرى ما حولي يختلف كثيراً عن سوق المنشية بالاسكندرية، فقط لا أحد ينادي على بضائعهم، وأشكال الناس هي التي تختلف.

- تستطيع أن تحول نقودك إلى مصر عن طريق بنك الراجحي. إنه أشهر بنك هنا.

قال سعيد حين رأيته انتطلع إلى لافتة البنك، قلت:

- أنا فعلاً في حاجة لإرسال مائة جنيه لأمي.

- وأنا أريد أن أسأل عن سعر الجنيه الذهب.

يجذبني من يدي ندخل، وأضاف:

- وجيه سيسألني بالليل عن ذلك. إنه يحب أن يشتري بفלו سه ذهباً. يقول إن الذهب أفضل من الدولارات.

دخلنا من باب ضيق. زحام شديد ضاغط بالداخل. البنك صغير لا أعرف كيف اتسع لهذا العدد من الناس ولأنفاسهم وعرقهم. وقف سعيد أمام موظف باكستاني شاب يسأله عن سعر الجنيه الذهب. مائة وأربعة وتسعون ريالاً. سمعت الموظف يقول. ووقفت أنا أمام موظف آخر يقصلنا شبك من الحديد، وطلبت إليه أن يحررني شيكاً بما يساوي مائة جنيه مصري. أخذ مني خمسمائة ريال، وحرر لي الشيك الذي سأرسله لأمي بالبريد. أحسست وأنا

أقف أنتظر انتهائه من تحرير الشيك إن شعاعاً من الضوء يخترق خدي. شيء يشدني أن التفت إلى ركن بعيد في الزحام. أعرف أنه حين ينظر اليك أحد تشعر بنظراته وإن لم تره. يزداد شعورك حدة إذا كانت النظرة أكثر دقة وإمعاناً. لم أظن إلى ذلك إلا بعد أن التفت ورايته بعيداً في الزحام يصوب إلي عينيه كأنهما بقعاً ضوء في غرفة شديدة الظلام. إنه منصور ولا أحد غيره، رغم أنه لا يوجد فرد فوق كتفه هذه المرة. أرتبكت لا أعرف هل أتوجه إليه أم أتجاهله. جذبني سعيد وهو يقول:

- لماذا تقف جامداً هكذا؟

رأيت وجه منصور يتشكل بالغضب. رأيت عينيه تتسعان وتأتلفان بشيء أشبه بالذئب، وأقبل نحونا كسهمٍ جاد. توقعت أن يسيء إليّ. لا أعرف لماذا أتوقع منه الإساءة دائماً، لكنه تجاوزنا بسرعة وخرج يشق له طريقاً بكتفيه.

- لماذا تقف، ألا تسمعني؟

عفت سعيد وهو يهزني. كان عرق غزير قد تفصد على عنقي ووجهي. أخذت الشيك الذي أعده الموظف الباكستاني، ورتبكت سعيداً يشدني من ذراعي للخروج.

- ما لك؟

لم أرد. مشينا نقابل أعداداً من الباكستانيين السمر، والأفغان البيض، حمر اللحي، باللحي فقط تميز الأفغان، وربما أيضاً بنظرة الذهول في عيونهم. ملابسهم لا تختلف عن ملابس الباكستانيين

القميص نفسه الطويل والسريرال الفضفاض الذي قال عنه نبيل مرة وهو يضحك إنه صنع خصيصاً للطفو فوق مياه الفيضانات التي تتحدث عنها نشرات الأخبار كل يوم.

قابلتنا أيضاً جماعات من الكوريين يمشون مسرعين. وكما قابلتنا امرأتان معاً يقول سعيد: «مصريات». يشرح لي كيف يمشين اثنتين اثنتين. نادراً ما تمشي امرأة وحدها. المرأة مع زوجها أو صديقتها. رأيت أمام أحد المحلات عدداً من الأوروبيين، وربما الأميركيين، يشربون السفن أب، وبينهم فتاة ترتدي بنطلون جينز، شقراء، لا تغطي وجهها ولا شعرها، وتضحك بجرأة. لم أر غيرها في طول الشارع.

أمام محل بقالة ضخم وقفنا. أقبل علينا العامل تاركاً بقية زيارته. لاحظت أنه في نهاية المحل من الداخل يجلس رجل فوق الأرض مستنداً إلى حشايها صغيرة جوار الحائط، وقد مدّ ساقيه وزاح يدهن النرجيلة. أعطى سعيد ورقة للعامل الذي صافحه مبتسماً.

- سنعود بعد ساعة.

قال سعيد، فرد العامل وهو يزداد ابتسامة:

- في أمان الله.

ومشينا، قال سعيد:

- الرجل الذي يدهن النرجيلة وهو صاحب المحل. العامل يعني اسمه محمد، يحب المصريين جداً ويحبه المصريون. ذكي ولأح. كل اليمنيين أذكيا، سنعود بعد ساعة، يكون جَهْزَ لنا كل شيء.

وتابعنا المشي. رأيت أضواء الشارع تفل، والزحام يخف، والمحلات تتباعد، ويظهر بعض المباني القديمة والخرابات، حتى وصلنا إلى مكان مظلم تماماً، ووقفنا نشم رائحة المخللات.

محل صغير به مصباح واحد، ورجل مسن محني الظهر، تقدم سعيد نحوه وتقدمت معه. طلب سعيد من الرجل أن يجهز لنا كيساً بخمسة ريالاً، بينما رحت أطلع إلى البراميل المصفوفة حتى سقف المحل، وإلى البراميل الصغيرة المكشوفة التي في بعضها بصل أصفر وأبيض يسبح في مياه حمراء، وفي الأخرى خيار متراكم في تراخ، تطفو بذوره فوق الماء، وفي غيرها قطع اللفت الحمراء والبيضاء وقرور الفلفل الأخضر. لم يكن هناك غيرنا والظلام، والهلال البعيد لا يضيء شيئاً وتخللت البراميل مليئة بالديناميت الذي سينفجر في الحال. رحت أتنظر في الظلام إلى الجامع واضح المعالم أمامي. جامع كبير ولكنه مغلق، ومنازل كثيرة بيضاء منخفضة خلفه.

- هذا جامع البلدة الرئيسي. أمامه ثقام الحدود. كل الحدود تقريباً فيما عدا قصر الرقبة يتم في مكة. يقولون إن هذا الجامع أقامه في الأصل الرسول نفسه حين غزا تبوك. أعتقد أنه صلى هنا فقط وأقيم الجامع فيما بعد.

قلت:

- هنا إذن يتم الجلد والرجم.

- في الغالب لا يوجد رجم. لم أره حتى الآن. يتم ترحيل الزانية من الغرباء. الزانية من أهل البلدة لم يكتشفها أحد حتى الآن الجلد لا يزيد على ضرب بالخيزرانة، يسميه المصريون «تنقيض».

هدوم. شيء مضحك. لو جئت في رمضان الماضي ربما رأيت الجلد صباح أول أيام العيد. ربما ترى ذلك العام القادم. إن أكبر عدد من الجلودين يتم جلدهم هنا في عيد الفطر. الفطر يتم سجنه بقية شهر رمضان ثم يجلد يوم العيد. الجلد الحقيقي يتم في الإمارة. يتفذه الأمير بنفسه. ليس بالخيزرانة ولا بالسوط، بالعقال على اللحم. وجيه يحدثك عن المنقولين للمستشفى مُتَرْجِّحِينَ من الإمارة.

أقشعر بدني وأنا أصلاً لا أحب الظلام. وأخذ سعيد الكيس البلاستيك الكبير الذي ملأه الرجل بالمخلل، وقيل إن نعود سألته عن البيوت خلف الجامع، قال:

- هذه منطقة أم درمان. كل سكانها سود. ربما سموها أم درمان لهذا السبب - وأبستم - وربما صار أهلها سوداً لأنهم يسكنون أم درمان. إنها منطقة مشهورة بالخمر وخلافه. معظم سكانها من المنشدين والمغنين والراقصين في الأفراح. الرجال والنساء. مثل عوالم شارع محمد علي في مصر، لكنهم لا يجلسون على المقامي ولا أمام الأبواب. هل تعرف أنه رغم مرور أربع سنوات على وجودي هنا، لم يحدث أن دخلت هذه المنطقة؟ إنها خطيرة جداً.

واستدار يعود في الشارع، فاستدبرت معه تاركاً أم درمان خلفي والمسجد المغلق، وصوبت عيني إلى الأضواء البعيدة، لكن سعيداً قال:

- كلمنا اتيت هنا ورأيت الجامع، تذكرت غزوة تبوك، وتذكرت حكاية غريبة يتداولها الناس. يقولون إن إحدى القبائل التي مرَّ بها النبي، رفضت أن تقدم له ماء يشرب، وحالت بين جيشه وبين برهم، فدعا النبي عليهم أن ينقرض أفراد هذه القبيلة، وتظل حتى

يوم القيامة لا يزيد عددها على عشرين، عشرون امرأة ورجل وطفل فقط كلهما ولد مولود مات أحد أفراد القبيلة. إنها اللعنة التي يتحدث عنها الناس هنا. هل تغني أن ذلك صحيح؟

وقبل أن أجيب أضاف:

- لا تتكلم.. إنها حكاية مرعبة لا أحب تذكرها.

ومشينا صامتين، لكنني تذكرت منذ حين قال عن البلدة إنها ملعونة يوم حاصرنا «العج» لا بد أن منذراً كان يقصد ذلك. أمر بشع بحق. لا أظن أن الرسول يفعل ذلك بأحد. لا أظن أن أحداً رأى أحداً من هذه القبيلة هي قصة مرعبة اخترعها مجنون.. إلا أنني أحسست بخوف حقيقي لم ينقذني منه إلا سماعي صوت أذان العشاء عالياً يصدر من جامع بعيد لا أراه. ورأيت المحلات تخلق أبوابها. والمارة يدخلون في الأزقة، ورجلين مستندين ذوي لحيتين بيضاوين طويلتين، يمشيان عز الرصيف يحمل كل منهما في يده درة يضرب بها من يقابله ضربة خفيفة ويقول بصوت عال: «صلوا، صلوا».

- هؤلاء أعضاء جماعة الأمر بالمعروف، يغلطون السوق ويدفعون الناس للصلاة.

قال سعيد ذلك وهو يجذبني لتدخل رفاقاً جانبياً مظلاماً نخنبي فيه قليلاً، فوجدنا عبداً من المصريين قد سبقونا إلى الرقاق، ووقفوا ينظرون إلينا ضاحكين.

انتهت الصلاة، وخرجنا وخرج الناس من أوكارهم، وارتفعت أبواب المحلات، وظهر الناس الذين اختبأوا خلفها، وراحت الحركة

تدب شيئاً فشيئاً في الشارع، وصارت الأضواء تزداد في عيني كلما تقدمنا، وقابلتني كثير من الوجوه التي رأيتها في قدومي عائدة، وانحرف بي سعيد إلى باحة واسعة خلف بنك الرياض، فوجدت سوقاً كبيراً للخضر والفاكهة واللحوم. اشترينا مانجو وبرنقالاً، وعدنا إلى الشارع لنلتحق بمحل البقالة قبل أن يغلق. وسألني سعيد:

- هل نسيت حديثي معك منذ أيام؟

- أي حديث؟

- الدرس الخصوصي.

كان سعيد قد حدثني عن امكانية زيادة دخلي بإعطاء بعض الدروس الخصوصية. إن ممارسة عملين أمر ممنوع في المملكة، لكن الدروس الخصوصية ليست عملاً رسمياً. الدروس الخصوصية أيضاً ممنوعة، لكن على المدرسين فقط. أما من هم مثلي لا يعملون في التدريس فلا جناح عليهم. نسيت هذا الحديث ولم أهتم، لكنه فيما يبدو أخذ الأمر جاداً. دخل بي إلى محل أدوات مكتبية أنيق، استقبلنا فيه شاب صغير مبتسم: قدّمه لي سعيد باسم «خالد» وقدمني له.

صافحني الشاب بصرارة شديدة، وأخذنا إل ركن بعيد في المحل، ثم فتح ثلاجة صغيرة، وأخرج منها علبتين من شراب «الفيستو»، وعاد يحدث زبوناً كان يقف معه قبل دخولنا.

انتهينا من الشراب، وانتهى خالد من الزبون، وأقبل علينا هاشماً باسماء بسعادة فائقة. كان جلابيه الأبيض نظيفاً لامعاً. وكذلك غترته وعقاله الأسود، وبدأ كل شيء فيه مبتهجاً. أخرج من جيب

الجلباب الأعلى ورقة قدمها لي وقال:

- هذا عنواننا يا أستاذ اسماعيل.

أمسكت بالورقة لا أدري بالضبط كيف أتصرف ولا ما هو المطلوب مني، وقال خالد:

لا تفكر بالكفاة يا أستاذ. سنعطيك ما هو طيب. إن اختي تلميذة ذكية لا ينقصها إلا أشياء قليلة في اللغة الانكليزية.

إذن رتب سعيد كل شيء، واتفق مع هذا الشاب على أن أعطي دروساً لأخته. يا الهي! دروس لفتاة.. وهنا بانمكة؟ ولا بد أن الدم ارتفع إلى وجهي، ولم أدر إلا بخالد وقد أتصرف من أمامي ليعود وفي يده علبة بها قلمان شيفرز مذهبان، وقدم لي العلبة الأنيقة قائلاً:

- هذه عربون محبة يا أستاذ. متى تحضر؟

- بعد أسبوع.

لا أعرف لماذا قلت ذلك، هذا ما حدث عن أي حال. رأيت سحابة داكنة تطفو على وجه خالد، لكنه سرعان ما ابتسم وقال:

- إن شاء الله يا أستاذ.

قلت:

- في أمان الله.

ومددت يدي لصافحه، فأخذها بين يديه، وشد عليها بقوة. ثم صافح سعيداً. ما كنا نلتفت لنخرج حتى هتف:

- أستاذ.

توقفت. اقترب مني. همس:

- أرجوك أن تحضروا لا تخذلني.

لم أدر كيف أرد. كنت أفكر كيف قبلت هديته بهذه السهولة. قلت:

- لا تقلق. سأحضر في الموعد.

شد على يدي من جديد بقوة الذي يعقد حلقاً، أو يقطع عهداً بالوفاء إلى الأبد.

بعد العشاء رحنا نتفرج على التلفزيون في ردهة البيت.

سألني سعيد:

- ألن تحج؟

أجبت:

- نعم.

قال:

- إذن ستمضي العيد وحدك.

وسكتنا قليلاً حتى قال:

- أنا سأحج للمرة الثانية. وجيه سيحج للمرة الرابعة. اليس

كذلك يا دكتور؟ أجاب وجيه:

- صحيح لكنني هذه المرة سوف أحج لأمي.

أبتسمت وتساءلت:

- هل يمكن ذلك؟

أجاب سعيد:

- يمكن. ألم تر حديث الحج أمس في التلفزيون؟ المهم أن يحج

الانسان لنفسه أولاً.

وضحك وقال:

- وجيه في الحقيقة سيحج لأمه من باب التوفير بدلاً من أن يرسل إليها تذكرة، ويستقبلها ويتحمل همها، يحج لها.
فوجئت بوجيه يقول ببرود:

- هذا حقيقي، لكن الحج الآن أيضاً صار شيئاً شاقاً. أنا أوفر على أمي المشقة، هل تراني مخطئاً يا اسماعيل؟

- لا.. طالما أن الاسلام يرخّص ذلك فلا غبار على الفكرة.

قلت ذلك غير مقتنع بكلامه، لكن ما فائدة الجدل في المسألة برمتها، ووجيه من النوع الذي لا يترجّح عن أفكاره، وقال يخاطب سعيد:

- هذا رجل لن يحج لكن يقول الحقيقة ولا يلجأ للغمز واللمز.

ضحك سعيد، وانشغل وجيه فجأة بكتابة رسالة على الضوء المنبعث من شاشة التليفزيون. وفكرت أنا في سعيد الذي حدثني اليوم لأول مرة عن خطيبته «وداد» التي تعمل مدرّسة في البلدة، وتعيش معها أمها «كمحرم»، وكيف إنه لا يستطيع أن يزورها أو يراها إلا في السوق، وصدفة وبسرعة.

لم يكن من السهل أن أصدق ذلك، لكن لماذا يكذب. قلت لنفسي ونحن عائدان من السوق، وكان لا يزال يتحدث. قال إنه سيعود في نهاية هذا العام الدراسي عودة نهائية، كل عملي هنا ضاع هناك. قال بلا مبالاة، لقد حجز لنفسه شقة أنيقة بمصر الجديدة في عمارة ضخمة انتهت بعد بنائها. انه يحمد الله لأنه لم يسكنها قبل الانهيار. ويحمد الله أن خطيبته وداد تفهمت ظروفه. اشتريت هي

شقة بعد خراتها، واقنعتة أن يكون هذا عامهما الآخر. «قبض ربح يا صاحبي، كل شيء هنا قبض ربح». كان يقول ويضحك وهو يقود السيارة، لكنني كنت أدرك عذابه. «أي أيام للخطوبة تضيع هنا بلا لقاء حميم». كان يقول أكثر من مرة. وفي اللحظة التي تنبّهت فيها إلى أن خالداً الذي قابلناه اليوم في السوق، قد يكون أخاً لواضحة بنت سليمان بن سبيل، إذ حدثني سعيد من قبل انه يعرف أخاه، وأن له مكتبة بالشارع العام، في هذه اللحظة التي فكرت فيها أن الفتاة التي اختار سعيد لي أن أعطيها درساً قد تكون واضحة نفسها، في اللحظة التي كدت فيها اندفع أسأله، بدأ المذيع يتلو نشرة الأخبار الأخيرة بصوت عالٍ نافذ. قال:

«بسم الله الرحمن الرحيم..

ولكم في الحياة قصاص يا أولي الألباب..

«وافق اليوم مفتي مكة، على إقامة الحد بالسيف، على مالك بن عبد الله بن مالك، الذي قام في رمضان المعظم الماضي، بخطف فتاة كانت ترعى الغنم في تخوم مكة، وهرب بها إلى الطائف، وهناك أقام والشيطان خيمة بين الجبال، وأخذ يعاشر الفتاة بالقوة معاشرة الأزواج. لقد تم اكتشاف وكر الزنديق هذا الاسبوع، وهاجمته قوة من الشرطة، لكنه كان مسلحاً برشاش استطاع به أن يقتل أحد افراد القوة المهاجمة، التي مكّنها الله عز وجل من القبض عليه حياً...»

- هل سبق لك أن رأيت تنفيذ الإعدام بالسيف؟

سألني وجيه ببرود. أجبت:

- لا.

وتحسست عنقي..

منتديات مكتبة العرب

<http://library4arab.com/>

زحام شديد من الاوتوبيسات الكبيرة والصغيرة، وسيارات
البيجو والمرسيدس والشيروليه والتويوتا والداتسون والهندا
والفيات وماركات أخرى لا أعرفها، يشغل الطريق القادم من
الشمال، طريق المطار، المتجه الى الجنوب.

تبوك أول البلاد الكبيرة في الجزء الشمالي الغربي من المملكة.
هنا بيت الحجاج ليلة أوليلتين في الخلاء جوار السيارات، الوصول
إلى تبوك معناه الاطمئنان.

الرحلة بعد ذلك سهلة وفي أرض مقدسة. في تبوك يقوم
المستشفى بدور الحجر الصحي، فيتم الكشف على الحجاج
القادمين من الشمال، من الشام وتركيا.

في طريقي إلى العمل كل صباح أرى هذا الزحام، وأرى النساء
والرجال وقليلاً من الاطفال، وقد جلسوا على الأرض جوار سياراتهم
يتناولون فطورهم في صمت، والسيارات والاوتوبيسات واقفة تشغل
جانبي الطريق.

قوافل الحجاج الأتراك هي التي تفقأ عيني في ذهابي وعودتي

من العمل. فقراء شبه عراة، حقاة، بيض اللحى، حمر الوجوه، مستنون في أغلبهم. على وجوههم صمت وانتظار. إنهم بعيدون دائماً عن السيارات. لقد جاءوا مشياً على الأقدام، وسيستمرون كذلك حتى يصلوا إلى مكة. يتامون في الخلاء، يساعدهم أن البرد لم يشتد بعد، وبمعهم أمتعة قليلة ربما لا تزيد على أغطية من الصوف الخشن.

لم تدهشني أعداد السيارات والأتوبيسات. أدهشني أولئك القادمون على الأقدام. وكأننا بعد لم نفارق العصور القديمة التي قرأنا فيها عن قوافل الحجاج القادمة مشياً من المغرب والأندلس، أو على ظهور الجمال، والخارجة من مصر تحرسها قوات من المماليك لتحصن عنها غارات الأعراب. كل الحكام المماليك كانت مشكلتهم تأمين طريق الحج من غارات البدو، حتى جاء محمد علي الكبير الذي احتل أرض الحجاز نفسها فأمن الطريق نهائياً. كل الحكام القدامى كانت مشكلتهم تأمين طريق الحج إلا، يا الهي، إسرائيل. مشيت على طريق الحج القديم وهي تظوق سيناء من الجنوب علم ١٩٦٧. بالضبط كما مشيت على طريق الساحل الشمالي حيث مشى سيدنا إبراهيم، ودخلت العريش حيث عُرِّش هو لأول مرة وبالضبط كما اندفعت من الوسط فوق هضبة التيه، حيث شوَّ بنوها يوماً عصا الطاعة على موسى الكليم. ولم يضلوا هذه المرة. لقد حفظوا الطريق. مشيت إسرائيل ودأبت على كل الطرق المقدسة. أما أن لم يحدث لأحد، وقالت: الأرض أرضنا نعرفها والأنبياء انبيائنا ولا فرعون يستطيع أن يجبر أحداً منا على الكذب ولا الخروج. أبونا إبراهيم كان طيباً كذب لينجو من فرعون بأمراته وأخونا موسى كان طيباً لأنه اقنعنا بالفرار. اليوم عدنا وبها من بنات

إبراهيم يسبحن أمامكم في المياه فمن منكم بقادر على منعهن؟ لقد جاء فرعون أخيراً إلينا يطلب الففران، وسنعطيه ما أخذنا منكم بشرط أن تقتز بهات إبراهيم في أسواقكم، ولن يكذب رجالنا بعد اليوم.

ستترك إسرائيل طريق الحج في سيناء، لكن لا أحد يمشي عليه الآن. الحج بالسفن والطائرات. لا أحد يأتي مشياً إلا هؤلاء الأتراك المتعبون. لكن الحج هنا صامت صامت. لا صوت ليل مراد ينشد «يا رايحين للنبي العالي»، ولا محمد الكحلاوي يملأ الفضاء بـ «أجل النبي»، ولا أعلام بيضاء مرفوعة فوق السيارات، ولا زغاريد تنطلق، ولا أظن أن الناس هنا تعرف شيئاً عن الحركة الوهابية والتقاليد التي أرسنها. الحجاج القادمون بالسيارات وعلى الأقدام متعبون، مشغولون باستكمال الطريق والتزويد بالطعام، ينزلون إلى السوق ويجوسون في البلدة، لكن لا تستطيع أن تميزهم. غرباء في بلد مليئة بالغرباء. لا أحد يُحرّم من هنا، فلا ترى أحداً يملأيس الإحرام. لا تستطيع أن تعرف الحجاج، إلا خارج البلدة، حيث يدور حولها الطريق الشمالي، ويعبرها بسرعة إلى الجنوب ماراً بالمستشفى. ثم داخل في الرمال، لكن حديث الحج هو حديث الناس هذه الأيام.

دخل أرشد إلى غرفتي، وقال إن الباكستانيين نظموا انفسهم للذهاب إلى الحج. ويريدون أن تدخل لدى عم عبد الله ليعطيهم عربة نقل كبيرة.

ابتسمت. ها هو أرشد يكلمني. لقد انتهى تدريبي على القيادة،

وتسلمت أمس سيارة صغيرة نصف نقل قديمة لاتنقل بها، ولم يجذ
أرشد عن جديته في التدريب، اليوم يتحدث في شيء آخر، سألته:

- ستسافرون بسيارة نقل؟

- أجل، سركب الزملاء في صندوقها وتبادل قيادتها أنا ووهاج.

- لكن هذا صعب، لماذا لا تستأجرون أوتوبيس؟

- يكلف كثيراً مستر اسماعيل.

كنت أعرف أنه بتقسيم سعر إيجار الأتوبيس لا تكون التكلفة
كبيرة، لكن الباكستانيين لدينا عمال نظافة أو فنيين بسطاء، ولا بد
أنهم يحرصون على كل قرش.

- هل ستحدث مع مستر عبد الله مستر اسماعيل؟

عاد أرشد يسألني والقلق باب على وجهه، طلبت منه أن يجلس
فجلس، طلبت له قهوة فشربها. كنت أريده أن يتحدث كثيراً
وتحدث، قال إنه متخرج من معهد عال للفنون، وأنه فنان تشكيلي
لديه لوحات صغيرة يرسمها في غرفته في الكامب، لكن لا يطلع أحداً
عليها. وقال لي أن لا أندش، لقد علمه أبوه قيادة السيارات وعلمه
الميكانيكا منذ صغره أبوه كان سائقاً. وما كان في احتياج إلى
السفر، اضطر إلى استخراج جواز سفر بمهنة ميكانيكي حتى
يحصل بسهولة على عقد عمل، لا مجال هنا للفنانين مستر
اسماعيل، قال وهو يبتسم ثم سألني:

- ألا يحدث ذلك في مصر؟

قلت:

- يحدث.

لكن دهشني ثم تننت، لم اصدق القصة ولم أشأ الاستفسار

عما أراه غامضاً فيها، وقال أرشد إنه متزوج، ولديه طفلة جميلة
اسمها زينب، يرسمها دائماً في غرفته، وقال إنه من «بيشاور».
وماذا تعني بيشاور يا أرشد؟ أليست بلدة مثل سائر البلدان؟ لا
مستر اسماعيل، بيشاور أكثر البلدان فقراً، كل العاملين هنا من
عمال النظافة تقريباً من بيشاور، إنهم لا يقومون بإجازاتهم
السبوعية، يعملون فيها لتحسب لهم أجراً مضاعفاً، لا يعودون إلى
بيشاور إلا بعد أربع أو خمس سنوات، مع نهاية التعاقد، قلت:

- لكن هذا صعب جداً.

قال:

- أصعب منه أن تذهب إلى بيشاور ثم تعود إلى هنا.

وسكت قليلاً ثم قال فجأة:

- باكستان بلد منكوب.

لم أفهم ماذا يقصد، قال:

- ضياء الحق شرير جداً مستر اسماعيل، ألا ترى عينيه؟ إن
بوتو أفضل منه.

- هن تعرف بوتو؟

- أعرف انه مسجون الآن.

- سيقولونه مستر اسماعيل - بوتو هو الذي صنع ضياء الحق.

ضياء الحق انقلب على بوتو، ضياء الحق مثل السادات مستر
اسماعيل

أريكني أرشد بحق، واستمر يتحدث بعفوية شديدة. وسألني:

- أنت تكره السادات، أليس كذلك مستر اسماعيل؟

نم أريد ضاع مني الكلام، ورايته يتحدث كطفل بريء للغاية.

قال:

- ذلك واجب مستر اسماعيل. واجب أن نكرهم جميعاً. انني اعرف الكثير عن مصر. عن مظاهرات يناير العام الماضي. مظاهرات الفقراء. في باكستان نحتاج مثلها لكن العسكريين أغبياء يطلقون الرصاص على الناس.. إنهم جميعاً ضدنا مستر اسماعيل. كل هؤلاء الرؤساء ضدنا. اننا بحق نساء جداً.

وسكتنا طويلاً. ها هو أرشد الصامت يفتتح كشلال. كيف فتح لي قلبه، هذا الذي كان يبدر شديد الخوف مني؟ لقد نهض واقفاً يسألني:

- هل ستتوسط لدى مستر عبد الله؟

- اطمئن أرشد، وسيوافق.

- اشكرك مستر اسماعيل. ان تحج معنا؟

- لن تحج هذا العام.

- إنني ستمضي العيد وحيدك مستر اسماعيل..

وتركني وخرج.

- ان تحج مستر اسماعيل؟

- نعم.

- إنني ستمضي العيد وحيدك.

ادمشني فيليب سوساي بيليا وهو يقول لي ذلك أيضاً حدثني اليوم. وجد نفسه وجهاً لوجه أمامي، وكان عليه أن ينتظر معي بعض الوقت. لقد انصرف عايد لأمر من أمور عم عبد الله الخاصة، وانتقلت اجلس في غرفته. لم تكن ساعة مضت على حديثه

أرشد معي، وكنت لا زلت أفكر كيف فتح لي قلبه بهذه السهولة، أي سر وراء اندفاعه في الحديث على ذلك النحو! أترأه كان معذباً به أم شاء أن يعذبني؟ كلمني على كل حال، وأشاع كلامه في نفسي نوعاً من اليهجة الغامضة. أرشد لا يخشاني، ولا أنا شخص يثير خوف أحد. سألني فيليب عن عايد قلت إنه في البلدة. نظر إلى ساعته متضايقاً، وقال:

- لقد طلب مني الحضور في الثانية عشرة.

نظرت إلى ساعة الحائط فوجدتها الثانية عشرة. وجدت نفسي اتركه واقفاً بالغرفة، وأخرج أطل على الباحة علني أرى البمني وهو داخل إليها. وجدته جالساً في مكانه يدير السواك في فمه. رأيته فابتسم. ابتسمت وعدت إلى الحجرة. جلست خلف المكتب وجلس فيليب على أحد المقاعد، وشعلنا الصمت للحظات. فساكتة:

- هل يحتاجك عايد لأمر هام؟

- أجب في ضيق:

- هو قال ذلك.

تأملت وجهه البارز عظام الوجنتين. وجه قوي رغم ما بلغه فيليب من عمر. صار يضع نظارة طبية الآن. لم أراه يضعها من قبل. قلت دون ترتيب:

- هل كنت تعرف أن مستر عبد الله سيخلصك من الشرطة؟

وأحسست بالأسف. مضى وقت على حادث السرقة، وما كان علي أن أذكره به. يبدو أن رغبتني في معرفة دوافعه كانت أقوى من قدرتي على الصمت. قال:

- لا.

وايتسم فايستمت وتشجعت. سألته:

- ألا تعرف قاتون هذه البلاد غليب؟

- أعرف مستر اسماعيل.

- إذن كيف فعلت ذلك؟

- إنه راديو غريب مستر اسماعيل. راديو يسيع موجات.

- لكنه كان سيكلفك الكثير. كان يمكن أن تشتريه.

- ثمنه ألف وخمسمائة ريال. راديو فخم جداً. أحببت أن

أستمع إلى إذاعة كولومبو هل رأيت من قبل راديو يسيع موجات؟

- لا.

- خلاص.

قال ذلك باللغة العربية فجأة، لكنني لا أعرف كيف ركبته

الشيطان، فقلت:

- أنت تستعد لإشهار إسلامك مستر فيليب والسرقه حرام

الاسلام.

- أعرف. لكن ليس في القرآن نص على عدم سرقة راديو يسيع

موجات.

انطلقت أضحك، وايتسم هو ابتسامة واسعة مشوبة بالضحك

الذي لا بد أن سببه له ضحكي حتى أن وجهه الاسمر احمر قليلاً

- عليك الآن أن تعجل بإشهار الاسلام حتى ينسى الناس

حدث.

- سأفعل ذلك قريباً مستر اسماعيل... لكن قل لي، الآن تحب

العام؟

فاجاني فيليب، وتوقفت سيارة عابد أمامنا في الياحة، لم ينزل

منها، لكنه أشار إلى فيليب فتوجه نحوه، وركب السيارة معه.

وانطلق عابد به دون أن يكلمني. صار عليّ أن أظل في غرفتي وقتاً

آخر.

توقعت حين دخل نبيل الغرفة، ووقف ينظر إليّ ولا يتكلم للحظة.

انه سيسألني بدوره ما إذا كنت سأحج هذا العام أم لا. بدأت

أشعر بالضيق من تكرار السؤال. كيف أشرح المسألة. لم يمض

شهران على عملي هنا، وفوجئت بعيد الأضحي يقفز أمامي الواحد

حين يأتي هنا لا يفكر إلا بالعمل. لا يدرك إلا متأخراً أنه في أي

مكان من بلاد الدنيا لا يختلف الزمان، فلعيد الأضحي وقت معلوم

حتى لو كنت في الصين أو اليابان، لكنني حقيقة فوجئت بعيد

الأضحي، وفوجئت أيضاً بمسألة الحج. الحج مرتبط في ذهني

بكبار السن من الرجال والنساء. أنا لم أر حاجاً غير هؤلاء في

مصر. والحج في ذهني تسبقه طقوس كثيرة أراها تتكرر كل عام في

الحي الذي أسكن فيه بالاسكندرية. زينات وذبائح، وأطفال

يفعسون أكفهم في الدم، ثم يطبعونها على الحائط خمسة

وخمسة في عين الحسود، وشباب يرسمون جَمَلاً يركبه شيخ

ويسحبه صبي، وجامع بعيد ونخل في الطريق، ورجال تأتي تصافح

انصاج قبل سفره، وسيارات تجري في الطرقات مزينة بالأعلام

والنورود، وشيوخ يقرأ القرآن في سرادقات صغيرة، ولأتم للفقراء... لم أفكر أبداً أن شاباً مثلي يمكن أن يحج في هذه السن المبكرة.

دهشني أنه هنا يمكن أن تتركب سيارة قبل مراسم الحج بيوم واحد

وتذهب لتحج وتعود. هذه هي المسألة التي لن يفهمها أحد، ولم
أحدث بها أحداً حتى الآن. لكن نبيلاً لم يتحدث في الحج جلسي
وقال أن استمع اليه جيداً. قلت:

- خيراً.

قال:

- ليس بخير.

ابتسمت. لقد بت أحفظ طريقته في الكلام. قلت:

- ليكن. نعم.

قال:

- أنت تعرف أنني خاطب.

- أرى في إصبعك دبله

- أنا في حيرة شديدة. هل استمر في الخطوبة أم أفسخها؟

ولم ينتظر رداً. ولم يكن لدي رد بالطبع. استمر يتحدث:

- أنا اتقاضى راتباً ألف ومائتي ريال. يعني ما يساوي مائتين
وأربعين جنياً مصرية. أرسل لخطيبتني مائة ولا مئتي خمسين وأعيش
بالباقى فلا أوفر شيئاً. لقد فتحت خطيبتني لنفسها حساباً ببنك
مصر. لا في سيتي بنك. بنك أجنبي. أخبرتني بذلك منذ أسبوع
وظننت أن أحول لها ما أرسله على حسابها، ولا أرسل إليها شيكات
أو حوالات لأن ذلك يستغرق وقتاً في صرفه. زحام شديد، وكثيراً ما
لا تجد دولارات يالبنك فيعطونها نقوداً مصرية. يحولون الدولار
بالسعر الرسمي فتخسر كثيراً. هي تقول ذلك في الخطاب. يصرفون
لها الدولار بثمانية وستين قرشاً، مع أنه في السوق السوداء
بثمانين. فضلاً طبعاً عن ما في إرسال الشيكات من مخاطر. موظفو

البريد يفتحون الخطايات ويأخذون الشيكات لأنفسهم. موظفو
البريد في مصر فقراء جداً كما تعرف، ولا بد أنك تذكر أشكالهم
ضحكت. تساءلت:

- حتى لو كان الشيك للمستفيد الأول فقط؟

قال:

- لا شيء يستعصي على موظفي البريد في مصر.

ضحكت بشدة واستمر هو يتحدث:

- أمي أرسلت لي أمس خطاباً تنصح لي أن أكف عن إرسال نقود

لخطيبتني لأنها تمشي مع سائق من الحي. من الكيت كات. لا. ليس

الكيت كات. من سوق الجمال في أمبابه.

قلت ضاحكاً:

- ليس معها أن أعرف المكان. أنا من الاسكندرية إذا كنت

نسيت ولا أعرف القاهرة جيداً.

سكت قليلاً وقال بهدوء شديد:

- لكن ما أكلحك عنه ليس بالقاهرة، إنه بالجيزة.

انطلقت اضحك من جديد وأبتسم هو وقال:

- ما رأيك؟

- في أي شيء؟

- أفسخ الخطوبة أم لا؟

فكرت قليلاً. قررت أن آخذ الأمر جاداً حتى لو كان هو يهزل.

قلت:

- امتنع عن إرسال نقود لخطيبتك وانتظر، ستعرف ما إذا كانت

تحبك أم لا.

سكت قليلاً ثم قال:

- إذا كانت تحبني سأحزن جداً على قطعي للنقود، وإذا كانت تحب غيري ستركني هي، وليس من المعقول أن ينتظر الرجل حتى تتوركه امرأة.

وجدت الموقف محيراً حقاً. قلت:

- إذن سأفرو وتحز الأمر بنفسك.

- أنت تعقّد المسألة. أنا لا أستطيع السفر. سأفعل كاليابانيين وأمضي اجازتي السنوية في العمل. أنا محتاج لكل مليم.

سكتنا وفكرت في هذا المحتاج لكل مليم كيف يرسل كل مرتبة تقريباً. وقال كأنه يحدث نفسه:

- المشكلة أنني أحبها بنت اللثيمة. إنها تقرأ المجلات والصحف.

وظللت أتأمله وقد شرد عني بذهنه للحظات ثم قال

- هل تنصح لي أن أسأل عابد أيضاً؟

قلت يائساً من الأمر كله:

- لا أحد يستطيع أن يفيدك. أنا لا أفهم ماذا تقصد بالضبط

الرأي الصحيح أن توفر ما ترسله لنفسك حتى إذا عدت إلى مصر تحصل على شقة تتزوج فيها. هل ستتزوج بدون شقة؟

لكنه عاد يشرد بذهنه. لم يبد أنه استوعب كلامي. ثم قام وهو

يقول:

- الأفضل أن أحج ثم أفكر بعد الحج.

وما كاد يتقدم خطوة نحو الباب حتى التفت إلي وقال:

- هل صحيح أن الإسلام يبيع للإنسان أن يحج لغيره؟ لقد سمعت شيئاً كهذا في التليفزيون.

تذكرت حديث رجليه وأجبت:

- الإسلام يبيع ذلك بشرط أن يحج الشخص لنفسه أولاً.

بانت الدهشة على وجهه وفي عينيه وقال:

- طيب إذا كانت أمي مريضة وشبه مشلولة، وأنا لا أضمن أن تعيش عاماً آخر. وأريد أن أحج لها هذا العام، هل يرفض الله الحجة لأنني لم أحج لنفسي؟ لا أظن..

وخرج وقلبي ينتفض خَوْفاً من أن يسألني ما إذا كنت سأحج أم لا. لم يسأل.. ولا سألني أحد آخر. لم يتحدث أحد معي بقية اليوم.

— لماذا تسرع هكذا؟

— ولماذا أبطىء؟

تساعت وأجاب الدكتور وجيه. دعاني لقضاء سهرة معه في المستشفى. قال: «غداً الجمعة وتستطيع أن تسهر معي حتى الصباح».

لم أتردد. قلت: هذه فرصة أخرى للخروج من رتابة الإيقاع الثابت لحياتنا. خرجت مرة في صحبة سعيد إلى السوق، والليلة سأقضيها في صحبة وجيه في المستشفى.

وجيه يتحدث كثيراً عن مشقة العمل هذه الأيام، الزحام الشديد في المستشفى بسبب موسم الحج، مفاجآت الحجاج وحوادث الطريق، أول أمس حدثنا عن دهشة الحجاج الذين يجدون أنه من اللازم فحصهم للتأكد من خلوهم من الأمراض المعدية. من الكوليرا بالذات. الكوليرا هي «بعبع» الموسم. يكون على الحجاج أن يكشفوا مؤخراتهم لخدم المستشفى. الرجال للرجال والنساء للنساء. يقوم الخدم بكشط الشرج بملاعق طبية، يتم بسرعة تحليل ما علق بها. أول أمس رفض ركاب أوتوبيس كامل أن يكشفوا مؤخراتهم.

منتديات مكتبة العرب

<http://library4arab.com/v>

ثلاث سنوات، وقال إن هناك مستشفى عسكرياً كبيراً بالقاعدة العسكرية اسمه «ويتكوه» مستشفى أمريكي لا يعمل فيه أحد من العرب، وفيه يصل راتب الممرضة الأجنبية أضعاف راتب الطبيب المصري في أي مستشفى آخر.

وصلنا إلى المستشفى، ولاحظت حركة لا تنقطع في الردهة الواسعة التي تشغل مساحة كبيرة من الدور الأرضي. رجال ونساء داخلون خارجون في صمت وسرعة. لم يكن الجو حاراً. بدأ الصيف يفسح الطريق بطيئاً للشتاء. دخلنا في نوفمبر. انتهينا من ذي القعدة ولم يبق على الحج غير أيام ثلاثة.

صعدنا إلى الدور الثاني، وإلى حجرة ليست نظيفة كما ينبغي، أخذني وجيه. جلس هو خلف مكتب خشبي صغير وقديم، وجلست أنا إلى جانب المكتب. بالغرفة مقعد آخر وديولاب زجاجي به بعض معدات ضيئة بيضاء منطقتة اللمعان. لاحظت أن دهان الجدران متساقط في أكثر من موضع، ورأيت خلف البارافان البلاستيك طُرف منضدة الكشف فوقه ملاءة حائل بياضها.

نَحَلْتُ بمجرد جلوسنا ممرضة قدمها لي باسم عابدة. ابتسمت ابتسامة خافتة لم تُخفِ مظاهر الجدية على وجهها. بدت متحفزة لا أدري لماذا. في الحقيقة راعني اتساع عينيها السوداوين واشتقاق بياضهما في غبشة ضوء الحجرة. قلت لأنفسي: هذا أول وجه نسائي أراه هنا. وقالت هي لوجيه إن جميع الحالات على ما يرام. تساءل: -والحجاج؟

- لم تصلنا وفود جديدة الليلة. يقولون إن النهار كان مليئاً بالعمل.

بصعوبة شديدة انصاع الرجال للأمر، لكن حين جاء دور النساء احتج الجميع. الرجال والنساء معاً، لم يعد ممكناً الحوار معهم ارتفعت صيحات احتجاجهم، وثافت معاني الكلمات في اللهجة الشامية الغاضبة. الركاب جميعاً سوديون، ويحجون لأول مرة عن طريق البر. لقد عابوا بعد أن اقساموا أن لا يأتوا للحج أبداً بعد ذلك. إن إجراءات الحجر الصحي معروفة، لكن دائماً يفاجأ بها! الحجاج. وسألته:

- ألا يتم ذلك في بلادهم؟

- حتى لو تم في بلادهم لا نأخذ به. لا بد من الفحص هنا.

- ألا توجد طريقة أخرى للكشف عن الكوليرا غير التكتشط بالملاعق؟

توجد طبعاً. تحليل البراز. لكن أين الوقت الكافي ليحضر لك كل هؤلاء الحجاج عينات من برازهم؟ ليس أمامنا إلا وضعهم في صفوف ثم يذعنون كاشفين مؤخراتهم. ويمر الخدم بالملاعق لكشطها.

- إنها مسألة مريكة حقاً.

قلت وضحكت. وربما يسبب هذه الطرائف ذهبت معه اليوم.

في الطريق نَبَّهني وجيه إلى أن المستشفى صغير. مجرد مبنى من دورين به أربعة أقسام صغيرة. الجراحة والباضنة والولادة والأطفال، ولا يزيد القسم على غرفتين بكل غرفة أربعة أسرة. قال إنهم يبنون الآن مستشفى ضخماً، لكن العمل لن ينتهي فيه قبل

- هذا من حسن حظنا، مع أنني كنت أريد للأستاذ أسماعيل أن يتفرج.

نظرت إليّ مبتسمة وقالت:

- وماذا سيري أكثر مما هو في مصر، ألم تدخل مستشفى في مصر؟

سألتني، وأجبت على الفور:

- دخلت مرة لإجراء عملية فتق.

لا أعرف لماذا أجبت بهذه السرعة، لقد رأيتها تكتم ضحكتها وتساءل وجيه:

- ما لك يا سستر، هل قال الرجل شيئاً مضحكاً؟

- أبدأ، لكن يبدو صغيراً على الفتق.

ويدت مرتبكة جداً، واحمر وجهها، واطرقت أنا خجلاً، وسمعتها تقول:

- آسفة، آسفة جداً.

وانصرفت بسرعة. نظر وجيه إليّ، ومطّ شفتيه، وقال:

- الواحدة في مصر لا قيمة لها، هنا أحياناً يتجاوز راتبها راتب الطبيب المتبدى.

قلت لنفسي: ها هو يعود ويتحدث عن النقيمة المادية للأشياء، ودخل من الباب رجل متوسط العمر، ووقف صامتاً، وخلفه شرطي صغير الحجم. وقف وجيه بسرعة ودار حول المكتب ليصافح الرجل بحفاوة.

- أهلاً يا دكتور، أهلاً، تفضل.

أر قدم له النقع الخالي، لكن الشرطي قال في غضب:

- لا تجلس.. هيا انتبه.

وقف وجيه صامتاً، وتأملت أنا الرجل الذي منعه الشرطي من الجلوس. له لحية طويلة لا يعتني بها، وفي عينيه انكسار، وملابسه متسخة غير مهندمة. عاد وجيه إلى المكتب بسرعة، وأخرج من أحد أدراجة مظروفاً مغلقاً قدّمه له. أخذ الرجل بيد مرتعشة ولم يتكلم. استدار ينصرف، ولم يتربد الشرطي في إمساكه من ذراعه والإسراع به. رأيتهما في الطرقة الطويلة الممتدة أمام الباب. الشرطي يسرع والرجل يسرع جواره يكاد يتعثّر، بأن لي الرجل من بعيد أقصر مما رأيته داخل الغرفة. وجلس وجيه محزوناً، وضع رأسه بين كفيه، وأطرق ناظراً إلى المكتب. ظهر بالباب رجل آخر، أسود، يرتدي جلباباً وغترة قديمة وعقالاً مرقعاً، وقال:

- أرسلتني السمت عابدة يا دكتور..

قال وجيه دون أن يرفع رأسه:

- سؤلنا شايأ يا نعمان. معنا ضيف عزيز.

قلت لنفسي: هذا إذن الخادم أرسلت عابدة لتخفف من أثر ما حدث منها، ولم أنس الرجل الأول الذي دخل مع الشرطي، المصري الذي يرتدي بدلة قديمة وخطابه وجيه «بالدكتور».

قلت:

- ما الحكاية بالضبط من الذي دخل مع الشرطي؟

تنهد وجيه وقال:

- إنها قصة غريبة. هذا طبيب مصري له هنا خمس سنوات. منذ عام ارتكب خطأ فظيلاً. حضر إليه شاب سعودي ومعه فتاة قال إنها زوجته، وطلب إليه أن يقوم بإجراء عملية إجهاض لها. لا تعرف

كيف أحلأ الدكتور الغريب. اسمه هكذا «سيد علي الغريب». كان عليه أن يحتاط. الإجهاض ممنوع أصلاً إلا لدواعٍ طبية. إن أي طبيب يمكن أن يخالف ضميره ويختلف الأسباب الطبية للإجهاض لكن هذا لا يحدث. دكتور سيد الغريب فعلها. كتب تقريراً بضرورة الإجهاض. لماذا فعل ذلك؟ لا أحد يعرف. لا أظن أن الشاب السعودي أغراه بالمال. دكتور سيد قديم هنا ولا بد أنه كسب كثيراً كان يمكن للمسألة أن تمر، لكن الفتاة ماتت أثناء العملية، والأبشع أن الشاب اختفى، وظهر أنه ليس زوجها ولا يمت لها بصلة. منذ هذا اليوم تمّ تحديد إقامة الدكتور سيد الغريب. منع عنه راتبه حتى تفصل المحكمة في أمره. المحكمة لم تفصل حتى الآن. صابروا ما معه من نقود ووضعوه في بيت جعيل جداً. تصور! البيت الوحيد الذي له حديقة بها نخيل وأشجار ليصون. عام كامل مضى وهو على هذا الوضع. كل شهر يسمحون له بالخروج مرة مع الشرطي ليأتي إلى المستشفى يأخذ ما نساغده به. إننا نجمع له كل شهر بعض النقود. نشترك نحن الأطباء المصريين والمرضات في ذلك. أهله في مصر لا يرسلون له أي شيء منذ وقت الحادثة. ولولم نساغده سيموت من الجوع.

وسكت لحظات ثم قام فجأة وهو يقول:

— لم أكن أحب لك أن ترى ذلك. هذا ما حدث علي أي حال سأقوم بجولة سريعة وإذا جاء نعمان بالشاي فلا تنتظرنني.

لم يكن من السهل نسيان شخص مثل الدكتور سيد علي

الغريب. لقد نظر الي نظرة طويلة في اللحظات التي انشغل فيها وحيه بإخراج المظروف من المكتب كأنه كان يريد أن لا أراه.

أنا في النهاية مصري مثله لم يكن يحب أن أرى مأساته. لا بد أنه يعرف أن مأساته شائعة بين الجميع، ولكن لا بد أن يأمل أن لا تتسع الدائرة. وثاقت نفسي إلى رؤيته مرة أخرى.. لا أعرف لماذا. وأحسست بضيق شديد، اكتشفت أن نعمان قد جاء ووضع كوبيتي الشاي على المكتب، وأنهما صارتا باردتين لا يمكن شرب أي منهما، وعاد وحيه إلى الغرفة وخلفه رجلان من أهل البلدة. قال بمجرد دخوله:

— ما لك اكتابات هكذا؟ تفكر في الدكتور الغريب؟ لقد تعودنا وتعود.

لم أرد. والتقت هو إلى الرجلين اللذين كان أحدهما متوسط العمر بينما كان الثاني مسناً، محني الظهر، وخاطب متوسط العمر:

— ما نلشبية؟

راعني اتساح جليابيهما وتمزقهما في أكثر من موضع. لم يكن علي رأس متوسط العمر غترة ولا عقال، وكانت علي رأس المسن غترة قديمة جداً عَقَدَها فوق رأسه بلا عقال، وكان يرتدي سترة قديمة سوداء فوق الجلاب.

قال متوسط العمر.

— يشتكي من المعدة يا دكتور.

أشار وحيه إلى منضدة الكشف خلف البارافان، فاخفتي الرجلان. وتبعهما وحيه الذي رحى أسمعه يقول «هنا الأذى».

وأسمع صوت الرجل المسن واهناً غير واضح الكلمات. مجرد غمغمة غير مفهومة. وأسمع وجيه «هنا يا رجال؟» ويتردد الصوت الواهن كأنه مواء معذب. ثم ظهر وجيه، وجلس الى المكتب، وظهر بعده متوسط العمر. قال وجيه:

- سأكتب له على حبوب تقويه وتشفيه.

- اكتب له على إبر. الله يرضى عليك. الإبر تدخل في الدم ويتغذيه.

نظر الى وجيه كأنه يُشهدني على هذا التدخل الغريب في عمله وظهور المسن محنياً لا يكاد يقف فأسنده متوسط العمر على ذراعه وقال وجيه:

- الشبهة لا يتحمل الإبر.

- اكتبها - الله يرضى عليك يا دكتور.

وبدأ متوسط العمر، فسكت وجيه، وفتح درجاً من المكتب، وأخرج منه بعض عيدان خشبية ناولها له، وقال:

- لا إبر ولا حبوب. خذ هذه.. يغليها ويشرب مائها في الصباح كل يوم.

اختطفها متوسط العمر وهو يقول: «هذه أفضل. الله يرضى عليك يا مصري» واستدان بالمسن، وانصرفا على مهل. قلت:

- يبدو أنه لا زالت للحطب العربي سطوته.

سكت وجيه قليلاً وقال:

- هذه حالات ميؤوس منها.

تساءلت:

- هل مسموح باستخدام الأعشاب هنا؟

اجاب:

- هذه مجرد عيدان قديمة وجدتها في الطريق. هم يقتنعون بطريقتي وأنا أوفر مال الدولة.

عاد نعمان فطلب إليه وجيه أن يعد لنا كوبين جديدين من الشاي. وأنا رحت أنظر إلى ساعتي، فوجدتها تزحف أو منتصف الليل، وراودتني رغبة في الانصراف. اكتشفت اليوم في وجيه جانباً لم أكن أحب أن أعرفه. ثم انني لم أر شيئاً طريفاً. رأيت سجيناً مصرياً ورجلين من أهل البلدة أشد فقراً من فقراء بلادنا. في هذه البلاد الغاز لا أفهمها. ولم يكن من السهل الانصراف، فوجيه يتحدث ولا يكف عن الكلام.

قال إن ما يصير هنا ليس كثرة الحوادث. فهذا شيء وارد في كل البلاد العربية حيث يقودون السيارات برعونة فائقة، لكن تحيره الحوادث التي لا تنقطع عند بلدة «قلبية» الواقعة على الطريق المؤدي الى المدينة المنورة.

في كل ليلة يعمل فيها نوبتياً للصباح، يتوقع حادثة أو أكثر عند قلبية، ويظل طويلاً الليل يرهف أذنيه لسمع صوت سيارة الاسعاف وهي قادمة الى المستشفى. الليلة يرجو أن لا تزد من قلبية أي حادثة. وجودي معه يقلل من حجم القلق الذي يشعر به دائماً حين يمضي الليل وحده هنا.. سألته:

- ألا يوجد مستشفى في قلبية؟

اجاب:

- إنها قرية صغيرة. لاحظ اسمها الذي لا بد أخذته من انقلاب السيارات. بها مستوصف صغير يعمل بالنهار ولا يتحمل حالات الحوادث - وابشسم - لا شك أنك تذكر الدكتور رافت الذي زارنا منذ أسابيع ليودعنا قبل عودته.
- أذكره بالطبع.

- حين جاء هنا لأول مرة تم توزيعه على مستوصف قلبية. هناك لا يوجد مخبز ولا محل يبيع الخبز. استمر رافت يعمل هناك سنة، ويعود كل أسبوع أن يأخذ ما يكفيه من خبز من هنا. لا تعرف كيف نَقَد الخبز دون أن يدري. كان الجو شتاءً بارداً زمهرياً، وهو مسكين مصاب بسكر لا يستطيع أن يتحمل الجوع. كان معه خمسون ألف ريال. ظل طول الليل ينظر إليها ويتلوى. كان مستعداً أن يدفع الخمسين ألف ريال لمن يعطيه رغيفاً واحداً. ومن سوء حظه انقطعت سيارة الاسعاف عن الذهاب ثلاثة أيام بعد ذلك. كاد يأكل نفسه. لقد اكتشف أنه يعضّ نراعه بالفعل. وحين وصلت سيارة الاسعاف كان هو عن مشارف الهلاك. ركبها وجاء الى هنا، ووقف امام صاحب المخبز اللبناني يطلب أن يبيع له خبزاً بألف ريال. لقد صعق الرجل وظنه مجنوناً. لا أحد يشتري أبداً بهذا المبلغ، ولكن رافت وقف يصرخ طالباً أن يبيع له الرجل بألف ريال خبزاً. باع له الرجل كل الخبز الموجود عنده، ووضعه رافت في الاسعاف، لكنه في اليوم نفسه لم يعد إلى قلبية. صدر قرار بنقله إلى هنا. لقد وَدَّعَ الخبز علينا وصرفنا نضحك.

لكنني لم أضحك، ما زالت أشعر بالضيق والرغبة في الانصراف ودخلت عايدة الى الحجرة، فأحسست براحة خفية. كان خلفها رجل

من أهل البلدة. قالت لوجيه وهي تبتسم:

- عنده خراج.

كنا تجاوزنا منتصف الليل. وقال لوجيه مستنكراً:

- وهل هذا وقت مناسب؟

قالت باسمه:

- لقد جاء. نحجزه حتى الصباح؟

لكن لوجيه خاطب الرجل الصامت:

- وبين الأذى؟

مد له الرجل يده اليمنى. خراج عجيب ركب على أصبعه السبابة قبل الظفر مباشرة. نظر لوجيه إلى والاستنكار لا يزال على وجهه وقال للرجل

- ضع يدك فوق «الماضة».

وضعها الرجل على المكتب. ورأيت وجه عايدة يمتقع وعيناها تكادان تقفران. تريد أن تتكلم ولا تستطيع. كان لوجيه يقترب بوجهه من يد الرجل، ويده تعبت في أحد ادراج المكتب تخرج شيئاً، ووقف لوجيه فجأة، وأمسك بذراع الرجل من عند الرسغ بيده اليسرى، وبيده اليمنى التي كانت تعبت في الدرج طعن الرجل بمشرط في الخراج مباشرة فصرخ الرجل، وانفجر الدم والصدید فوق يده. وصرخ لوجيه: (قطن يا سستر). وجرت عايدة إلى الدولاب تحضر قطناً، وأنا وقفت كمن لدغه عقرب، وتباعدت إلى الحائط. خُيِّل لي أن ادم والصدید سيندفعان الى وجهي. ورأيت الرجل يغض الدم من وجهه، ويكاد يتهاوى، حتى أن عايدة ألقت بالقطن على المكتب، ووضعت بسرعة مقعداً خلفه تهاوى بالفعل فوقه غائباً عن

الوحي. ورجيه الذي ترك المشراط راح بيده اليمنى يضغط على الخراج بالقطن ولا يترك ريسغ الرجل الذي أحكم القبض عليه، وعابدة تنظر إلى وجهه باستنكار شديد، وطلب إليها شاشاً ودهاناً للجرح، ثم راح يضمده. ترك يد الرجل فسقط من فوق الكرسي على الأرض.

- شيلوه..

قال وهو يخرج من خلف المكتب ويغادر الحجرة. كان نعمان قد جاء وانحنى يحصل الرجل ويمضي، ورأيت عابدة تمشي خلفه والدموع في عينيها.

عاد وجهه وأنا بعدُ واقف لم أجلس. لقد خرج يغسل يديه، وهو الآن يظهرهما بالساقلون ثم يجففهما بالقطن.

- لماذا لا تجلس؟

لم أكن قادراً على الجلوس. تذكرت أفلام الغابات والمكتشفين البيض انذين يمشون، في أيديهم سيوف قصيرة، يقطعون بها الأشجار الكثيفة التي تعوق الطريق. وعادت عابدة، ووقفت بالباب، وقالت لوجهي:

- كده.

- هل جرى شيء؟

- كان يمكن أن يدخل في صدمة.

- هذا عملي يا سيستر.

- انت مفتري يا دكتور.

- سيستر. الزمي حدودك.

كانت عيناها لا تزالان نديتين بالدمع، وبان على وجهها غضب شديد، وانصرفت. تقدمت أنا أجلس من جديد مدهوشاً من تخاذل وجهه أمام عابدة، وخيم علينا الصمت للحظات ثم قال:

- لا يمكن أن افتح الخراج بالبنج. يخافون العمليات. سوف يفيق ويشكرني ويستري.

ولم أكن مستعداً أن أرى. أسعدني الحظ وسمعنا صوت سيارة الاسعاف قادمة من الخارج، ودخلت عابدة بعد لحظات فزعاً تقول:

- حادث فظيع. ستة جرحى انقلبت سياراتهم في قلبية.

وجرت من أمامنا وأسرع وجهه خلفها. قمت بهدوء ونزلت إلى الدور الأول. وجدت حركة كبيرة من خدم المستشفى حول الاسعاف. حملوا الجرحى، وأسرع خلفهم وجهه وعابدة وعدد آخر من الأطباء الشباب ومن الممرضات لم أرهم من قبل. وقفت وجدي في زهرة المستشفى، أنظر إلى سائق الاسعاف الذي لم يغادر مكانه وتقدمت منه:

- أنا صديق الدكتور وجهه كنت معه هنا وأريد العودة إلى البيت..

ابتسم لي، فرأيت سناً ذهبية تلمع في مقدمة فمه. قال:

- أصعد.

صعدت إلى جواره، وأدار محرك الاسعاف. شاب صغير من أهل البلدة، تنظيف الثياب، لم يتكلم الا في منتصف الطريق. قال:

- الدوران الذي تقع عنده الحوادث في قلبية يستطيع أي سائق

ان يقطعه بسهولة، لماذا إذن تحدث الحوادث؟ سحر هذا والله العظيم..

لم ارد ولم يعد إلى الكلام أرشدته فقط الى بيتي.



لماذا أنا هنا؟

سؤال صعب يا واضحة. أصعب منه ان أراك وجهاً لوجه.. وكأنني كنت أعرف، من يوم رأيتك تحت الشمس ووسط الضوء الأبيض وتناقت نفسي أن أرى جسدك يختلج وأنا أعرف أنني سأقابلك.. سحر كالذي يقلب السيارات في قلبية كما قال السائق ذو السنة المذهبة، لكن هل أنا مُسَرَّك؟ لا أظن أن أحداً منا ميسر للآخر، لماذا إذن تضعك الأقدار في طريقي؟ لأنها بلدة صغيرة؟ لو كانت القاهرة ما تغير شيء. أنت الثانية التي رأيت وجهها.. التي كلمتها. بالأمس فقط رأيت أول وجه نسائي. رأيت عابدة، اليوم رأيتك. ما الذي جعلني أذهب لأعطيك الدرس؟ كنت نسيت موعدي، ومضى على الأسبوع أسبوع آخر. ليتني ما أخذت طاقم أقلام الشيفرز! رأيتك فتذكرت أنني نسيت. لم أكن نسيت. سعيد ذكرني أكثر من مرة. إنك لا تعرفينه. أخوك يعرفه. وفي كل مرة قلت له اني أذكر الموعد، ويراني لا أذهب، وأقول سوف يفهم أنني لا أريد ويكف عني، ولم يكف ولم أت. رأيت هدية أخيك فأحاطتني بشعور بالذنب وجئتك خائفاً.

أعرف أنه لا أحد رأى جسدك يختلج غيري، أنا والشمس. لا بد

إن الشمس راته. هي التي كانت تسكب اشعتها على الكون ببراءة
اللبين الحليب. سارى جسده الآن أمامي. هل يختلج أم يختلج
جسدي أنا هذه المرة؟

استقبلني خالد بفرح طفولي غامر. قادني إلى غرفة واسعة
مفروشة بالبُسُط الحمراء الوثيرة. وعلى جوانبها حشايا صغيرة
خضراء. رايت مكتباً في ركن بعيد وحوله مقعدان. مكتباً صغيراً يبدو
نشازاً في غرفة عربية التصميم. فقلت لا بد أنه أعد للدرس على
عجل. لم يسألني خالد عن سبب تأخري عن الموعد الذي ضربته
له. خالد يبدو شخصاً شديداً النبل حقاً. شغل الوقت بأن راح
يحدثني عن نفسه. قال إنه متخرج من كلية التجارة في جدة، وأنه
كان يتمنى لو التحق بالجامعة المصرية في القاهرة. وقال إن جده
لامه مصري جاء هنا في الثلاثينات ليحج ولم يعد، وأنه لا يزال
يعيش. وأن العائلة كلها تحب مصر والمصريين. وقال إنه رفض
استكمال دراسته في أمريكا. ذهب عاماً وقطع الدراسة وعاد. لم
يتخلص بعد من شعوره بأنه العربي الذي ما كان عليه هكذا فجأة
أن ينتقل من الخيمة إلى حوائط الاسمنت العالية. وضحك. كيف
نعيش في بلاد لا تسمع فيها حكايات أجدادك؟ وغضب. وقال إن
أفضل وقت هو الذي يمضيه في الخيمة المنصوبة في باحة البيت
الخلفية التي يعيش فيها جده. جده لأمه وجده لأبيه. جده لأبيه
حارب مع الملك عبد العزيز في العشرينات ولا يزال لا يتكلم إلا عن
ابن سعود وأفعاله الأسطورية. هذا إذا تحدث. وضحك خالد كثيراً
وهو يقول إن جده لأبيه لم يكف يوماً عن تلاوة القصة الغريبة التي

راحت عن ابن سعود. والذي قيل فيها أنه جرح في بطنه جرحاً كبيراً
وشاع بين الجنود قرب وفاته فكادت تندحر حتى فاجأ الجميع
بدخوله على زيجة جديدة. وقال خالد إن جده كان يهمل فرحاً وهو
يصور جنون الجنود بعد ذلك بقائدهم الفريد الذي لا يؤثر فيه
سيف ولا رصاص بل يتزوج وبطنه مفتوح. لكن الجد غاضب الآن
لا يتكلم منذ زمن طويل. وسكت خالد لحظات طويلة ثم قال «أختي
هي واضحة بنت سليمان بن سبيل». قلت: «أعرف». ببساطة
تحدثت. قال: «اكتفوا بأن لا تذهب إلى المدرسة وتؤدي الامتحانات
من الخارج» وسكتنا طويلاً حتى قال: «أنت يا استاذ اسماعيل
مصري ولدينا من مصر دم يجري من عروقنا».

دخلت واضحة يسبقها عطر غامض. صافحتني بيد صغيرة
ارتعشت في يدي. لماذا؟ وقدم خالد كلاً منا للآخر. ما كنا نحتاج إلى
تقديم. هكذا فكرت. أخال أنني كما رايتها في الضوء الأبيض الراتق
راتني رغم أنني لم أر وجهها. ولا كان يمكن أن يُرى بوضوح من
خلف نقاب ثقيل. وخرج خالد وتركنا معاً وأنا في غاية الدهشة. أنا
وقفاة وحدنا في الغرفة الواسعة الرملية في البيت الكبير الصامت
وسط الصحراء المترامية في البلاد شاسعة الأرجاء.

ولم أعد مهياً للدرس. وأحسست أن واضحة أدركت ذلك. لم
أعد منتظم الذهن. وبدأت الانتهاء بسرعة، وبدأت الفرار. اكتفيت
بسماعها تتحدث عن الصعوبات التي تقابلها في اللغة الانكليزية،
ووعدها بتيسير كل شيء.
قلت فجأة:

- اكشفي وجهك.

كانت لحظة أحسست فيها بضرورة أن أرى عينها تستقبلان كلامي. ما دمت لا أرى وجهها جيداً فلا يمكن أن ترى وجهي، فكيف إذن يعرف أحدها الآخر وكيف يتذكره؟ وكنت اعتذر لولا أنها تعجلت في تلبية الطلب.

فم صغير وأسنان ندية وعينان عسليتان ناعستان وأهداب طويلة وبشرة خمرية مفاجئة، وقوس الشعر الأسود فوق الجبين وتحت رباط الرأس الأخضر ينبيء بشعر غزير خلفه.

- ما الذي يضايقك في اللغة غير القواعد؟

- القصة طويلة.

- لكنها ممتعة.

- أقرأها معي.

- سنقرأها ونعيد ترتيب كل شيء، ونضحك كثيراً مما سيفعله الخادم بأسباب توت وهو يطوف العالم مع سيده المقامر.

وصرت فجأة أشم أنفاسها الزكية، وعطرها الغامض كثف وانتشر، وطال الدرس أكثر من ساعتين، وكلما نظرت إليها أرخت أهدائها، وكلما ناولتني الكتاب تلامست أناملنا فارتعشت أصابعها. لا بد أنها لم تكن تنصت لي طول الدرس. لقد أبعثت الكتاب جانباً، وسألتني:

- مصر جميلة يا أستاذ؟

- جيداً.

ونظرتُ إليها وطالت نظرتها إلي.

- إذن لماذا أنت هنا؟

أربكتني يا واضحة ولم أجد كلاماً أقوله. أنا هنا لأن هناك من يسعدهم ذلك. هُراء. أنا هنا لأن المصريين جميعاً هنا. هُراء. لست أنا آخرهم ولا جذك المصري أولهم. هُراء. أنا لم أكن أحس إلا بعطرك الغامض فلماذا جعلتني أنهي الدرس الذي طال وكنت لا أريد أن أنهيه؟ رغم ذلك صرت ملهوفاً للقائك فجئتُك في اليوم التالي. وجئتُني بلا رباط رأس. شعرك الأسود الغزير منسدل على ظهورك كبحر عميق بليل مليء بالأسرار. «عطر جميل» قلت ولم أكن أجاملك فإذا بك تقدمين لي زجاجة عطر.

- لي أنا؟

- لخطبتك في مصر.

ولم أستطع أن أقول إنني غير خاطب ولا متزوج. كيف لم تدركي ذلك وحدك ويديّ أمامك طول الوقت؟ أنك صغيرة تتعجب معي لعبة التلميذة والاستاذ. لكن سؤالك ليس صغيراً، ولا شيء ينقذني الآن من شعرك الغزير المغربي بالسياحة. لكن هل أستطيع؟

- هل ستأتي في العيد؟

- لا.

قلت لأنني تعودت أن تكون الإجازات في الأعياد. ويا خبيثتي!

- هل ستحج؟

- لا.

إذن ستمضي العيد وحدك.

ولم استطع التراجع. وحاصرني الضيق.. نسيت أنني رأيت في
يومين وجهين جميلين. وجه تنذت فيه العينان بالدمع، ووجه رفع
النقاب.

٩

لم توقظني أمي اليوم على صوت الراديو والتهليل والتكبير
وأصوات الأولاد في الشارع ولا أغنيات الصباح المبهجة بالعيد.
ليس علي اليوم استقبال اختي المتزوجة وزوجها ولديها، ولا اختي
انطلقت وبنيتها. ولن تطلب اختي المشاكسة الطالبة في الجامعة أن
يفسحوا لها مكاناً لتجلس جوارى، ولن يبدو علي أخي الطالب
بالجامعة أيضاً شيء من القلق لكبر حجمه ومد يده لي يأخذ ما
أعطيه له من نقود.

أي شخص مكاني الآن قد يبيكي من بيت كبير واسع عليه أن
يتناول فيه إفطاره وحيداً في يوم عيد، لكنني رفعت صوت الراديو إلى
آخره وأبتسمت.

لم أذهب للصلاة. منذ سنوات لا أصلي العيد. قمت مبكراً حقاً،
ولكنني شغلت بأعداد الإفطار. لحم مسلوق وشورية بالهيل وقهوة ولا
أحد يجلس حولي.

شجار مفاجيء لا نعرف كيف بدأ. لقد عاد أبي في الحال من
الصلاة وأوشكت أمي أن تفرغ من أعداد الفطور الساخن ولا
تغرف سبب الشجار.

ارتفعت الاصوات أيضاً في الشقق المجاورة، والتي فوقنا، والتي تحتنا، واختلطت أصوات الرجال بأصوات النساء بنحيب الأطفال بخوفنا، لكن أبي يتراجع: «حق علي يا أم اسماعيل... كل سنة وأنت طيبة». وسكت الجميع. حط على الدنيا صمت وارتفعت الضحكات في كل الشقق وفُتحت الابواب للمرح. ماذا كان يحدث ذلك حقاً، لا أعرف حتى الآن. لماذا انتهى؟ ربما لأن الأطفال في كل الشقق كبروا مثلي، وربما لأن الآباء ماتوا مثل أبي. والأمهات مرضن مثل أمي كثيراً، أو مرن... يا الله! هل يمكن أن تموت أمي وأنا هنا؟ ورجت أكل بشهية عظيمة غير مبال بما يقفز إلى ذهني من ذكريات، أو أفكار خبيثة.

خرجت الى الشارع. لا حاجة بي للسيارة، سأمشي وأرى هل البلد خالية حقاً. لا أستطيع أن أمضي العيد وحدي في البيت. كل الأغنياء يسافرون في العيد الى الشام وأوروبا. كل الفقراء يسافرون إلى مصر. النساء والأطفال لا يتركون التلفزيون والفيديو. الغرباء يحجون. الغرباء من غير المسلمين لا يغادرون بيوتهم. يا الهي! هل يكون هذا حقيقياً؟ ومشيت...

أرض مترية بين بيوت منخفضة أقطعها لأصل إلى الشارع العام. لا أرى غير بعض عسرات صغيرة تتقافز فوق السيارات المركونة امام أبواب مغلقة لبيوت مخلقة النوافذ أيضاً. وأمشي..

باب ينفتح فجأة، يخرج منه رجل وامرأة مغطاة بالسواد، وأطفال يركبون سيارة غارمة وأسمع ضجة كلامهم، لا أفهم منها شيئاً، وتتحرك السيارة على مهل وتختفي وأمشي...

ادخل الشارع العام. لا سوق اليوم. أبواب المحلات كلها موصدة تذكرني بأبواب محلات الكس بالأسكندرية بالليل. أرض الشارع مليئة بالأوراق المهلهلة والكراتين الفارغة تشغل الرصيفين، وعلب «الباردة» الفارغة في كل مكان، والجو صحو، والفضاء بديع، وأقرأ اللافتات. هنا محل ساعات، وهنا عضو، وهنا مكتبة، وهنا بقالة، وهنا جواهرجي، وهنا شرائط كاسيت وهنا أدوات كهربائية، وهنا بنك الراجحي الذي رأيت فيه منصور غاضباً وأسامه بنك الرياض وخلفه سوق الخضار المفلق اليوم أيضاً. الشارع ليس طويلاً كما رأيته من قبل. وها أنذا! أحصي عواميد النور، فأجدها حوالي مائة عنى ناحية واحدة. إنن هي مائتان على اثناحيثين ولا داعي لإحصاء الجانب الآخر. أكاد أنتهي من الشارع، وتقابلني خرابات ومسلحات غير مبنية، وبيوت مهدمة جدرانها، وبيوت يعاد بناؤها، وأرى قطعاً ضخمة كأنها تعور أو شياء تتجمع في الخرابات حول أشياء لا أراها، لا بد أنها بقايا طعام. الشمس تعلو في السماء والفضاء يتسع. ما أجمل الفضاء حين تكتشف وجوده وأنت بين الزحام! ما اتعسه حين لا يكون معك إلا هو في بلد بعيد في يوم عيد! ما أتعسني رفضائي! هنا لا يقتلون القسط، لقد باركها النبي. هكذا يقولون. لكن هيهات للكلاب أن تنجو من أحد. يا الهي! ما هذا الكلب الأبيض السارج في الشارع ضخماً مثل حمار شاردي؟ إنه حتى لا يتلفت حوله. في حجم الكلب الذي رأيته من قبل في الصحراء. هذا كلب آخر وربما هو الشارد

في الرمال أسر إليه أحد بأن اليوم تكون البلدة صحراء.. إنه يقف وينظر إلى اداعبه بيدي من بعيد.. أشير إلى القلط حتى يهاجمها لكنه يلتفت ويبتعد على مهل وامشي حتى أصل الجامع مع آخر الشارع فأجده مفتوحاً وخالياً وأمامه محل الخللات معلق.

هل أجوس في طرقات أم درمان؟ لا نافذة مفتوحة ولا أبواب. منازل واطنة من قرميد أبيض ضخم وسيارات قليلة مبعثرة على أرض متربة لشوارع ضيقة واكوام قمامة لا قلط حولها ولا كلاب ورائحة مكتومة في الفضاء والشمس تمشي معي. أين ذهب أهل المغنى والطرب والحظ ولا افراح اليوم ولا زينات. هيك هيك هيك. ضحكة داعة ممتدة كسكين بارقة تعكس اشعة الشمس وضحكة رجل عريضة قوية بعدها. حقيقة أم خيال؟ لا ادري. لكنني سمعت ورايت رجلاً يصرق جارياً عبر الشارع الذي أمشي فيه الهوينا ويختفي في رفاق، ويمرق بعده رجل آخر تكاد غفرته تنزلق من فوق رأسه، إذ وضع يده فوقها واختفى بدوره ولا أحد يظهر بعد ذلك ولا قط يمشي جوارى ولا كلب خلفي. يا الله! اتقدم أم اراجع؟ لا خوف من الضلال فالمنطقة كلها تحتويها العين، والبلدة كلها تحتويها النظر إذا صعدت فوق مقعد فقط. فلامش.

ميدان واسع في مدينة مهدمة. وكل البيوت حول الميدان تشتعل فيها حرائق وينطلق من نوافذها دخان وجندي يصحو من بين القتلى يتلفت حوله في فرح مصوباً بندقيته الى لا شيء أو اي شيء يمكن أن يظهر بغثة. يمشي الجندي بين دخان الحرائق المشتعلة في السيارات والدبابات التي فوقها جثث محنية الهامات، ويدور حول

نفسه كالطلوز متوقفاً في كل لحظة عدواً. يرى امرأة مضطربة الوجه امام باب بيت تحترق نوافذه. الشمس تسقط على وجهها الأبيض الملعوف بشال اسود. فيسطع الوجه مبهرأ جذاباً ويتحدد الجسد المشوق في الثوب الاسود أيضاً وتنزل الكاميرا إلى حداثها الاسود وربلتي ساقها اللامعتين، وهي تعدو مسرعة تتابع دقات حداثها عبر الميدان ذي البلاط الاسود المربع الكبير وتتدخل في رفاق ضيق قدر.

شرقات نوافذ البيوت في الرقاق امامها غسيل معلق في حبال مقطوعة. الجندي يتريد لحظة قيل أن يعدو متابعاً المرأة. يدخل الرقاق الضيق فيراها تختفي في أحد الأبواب فيهرول. أرى ربلتي ساقها وحذاءها الاسود وهي تصعد السلم الحديدي بليقاع سريع، حتى إذا ما بلغت السطح رايت الجندي في بئر السلم يتطلع إلى أعلى فيرى قدميها ويصعد مسرعاً. تقطع السطح في سرعة بين بط ودجاج يقفز فرعاً ويصرخ وتدخل من باب غرفة ويكون هو على السطح واقفاً يرى الباب وهو ينقلب، فيتقدم ببطء ويدفع الباب ويقفان وجهاً لوجه. تشهق خائفة وتراجع ويدها عن نفسها وهو ينظر اليها بعينين نهمتين ووجه تحوشه لحية مغبرة ويتقدم تاركاً البندقية من يده تسقط عن الأرض، وتتصطدم هي في تراجعها بالسريير النحاسي ذي الأعمدة العالية خلقها والناموسية البيضاء الدانتيلة حول الأعمدة من أعلى ويقترّب منها. تتقابل العيون في معنى غامض ويمد يده إلى عنقها وتترقق عيناها بالدمع. يزيح الشعر عن جانب العنق فتصمّل برأسها على يده. بهدوء يمد يده الأخرى يزيح طوق جلوسها عن كتفها فيبرز مملتأ ورنياً ويتسع طوق صدرها وترتعث شفتاها في نداء موعود وتسبل اهدابها ويصرخ

طائر فوق السطح وتمرق طائرة تلقي بقبلة فوق المدينة فتندفع إلى
أحضان الجندي المسكين المتعب، وفي جبهة القتال البعيدة تنطلق
المدافع متتابعة وأرى الجندي بعد ذلك فوق السرير يدخل سيجارة
عارياً نصفه الأعلى ويغطي نصفه الأسفل ملاء بيضاء وهي نائمة
فوق صدره عار ظهرها فوق الملاءة، وعلى كتفها الأيمن خال صغير
وتعبت بأناملها في شعر صدره، وما زلت أحيوس بين المنازل
الصامتة لأم درمان، نوافذ موصدة وأبواب مغلقة ولا أحد يجري
أمامي. أي سر في هذه المنطقة يكاد يعيت أهل المغنى والطرب في يوم
عيد؟ لا وجه أسود أو أبيض يلوح لي فهل أطرق الأبواب؟ يا الهي!
إنني أسمع صوتاً يغني. صوتاً كأنه أنين قادم من كهف بعيد،
وانتقدم ويزداد ارتفاع الصوت وعمقه وتتضح نبرات الآسى في
ترجيعة. إنه صوت أنثى أكاد أرى دمعها يصاحبه عزف عود باك.

جعلت لعراف اليمامة حكمة

وعراف نجد إنهما شفياني

فما تركنا لي رُقي يعرفانها

ولا سقية إلا وقد سقياني

فقال شفاك الله والله مالنا

بما ضمنت منك الضلوع يدان

وساد صمت وأنا صرت أقف تحت النافذة وعاد الصوت ممزوجاً
بنحيب يردد الغناء، وساد صمت ثم علا النحيب وحده فوجدت
نفسي أمشي. ذهلت عن البيوت حولي حتى وجدت نفسي قد خرجت
إلى الشارع الذي يفصل أم درمان والعزيرية معاً عن السليمانية
بالمنطقة الغربية للبلدة حيث أسكن. اسرعت بالعودة إلى البيت وأنا

أشعر أن شيئاً لا أدركه كان معي وسقط معي.

استلقيت على السرير وضحكت حتى اهتزت جسمي. منذ جئت
هنا نادراً ما جلست في حجرتي على مقعد. اكتشفت ذلك الآن.
صعب أن يكون بالحجرة سرير وتجلس على مقعد. قمت وأشعلت
التليفزيون. ماذا أفعل؟ صورة للحُجاج في «مبنى». زحام هائل من
اللون الأبيض. بشر وزيام. ابتسمت من فكرة أنني قد أرى أحداً
ممن أعرفهم وسط الزحام لا بد أنه قد أُدِّن للظفر لأن الصورة
للحجاج يصلون في الخلاه. سيرك لمدة ساعتين ونصف. الفتاة التي
تلعب الاكروبات فوق الحصان لها ساقان طويلتان. كل فتيات
السيرك لهن سيقان طويلة. ساعة مع الغناء الذي لم أنتبه إليه.
فيلم «ميركي مثير لبيت لانكستر وصوفيا لورين وأفا غارندر عن
قطار انتشر فيه الوباء. ضاع مني اسم الفيلم. بذاً ولا أدري.
انتملون أعرفهم جيداً. فقط ظننت أفا غارندر اليزابيث تايلور.
كبرت أفا غارندر ولا يزال في وجهها شيء من توحشه الجميل القديم.
أحس الآن بالهواء الراكد القديم في أرتقة حيناً «بالمتراس»
بالاسكندرية وبرائحة سينمات الدرجة الثالثة حين كنا نجري بلا
مثل خلف «الكونتيسة الحافية» أينما عُرض وأرى مكمل الفاره وهو
يصرخ بنا. الكونتيسة الحافية في سينما «كونكورديا». الكونتيسة
الحافية في سينما «كليوباترا». الكونتيسة الحافية في سينما «ليل».
في كل أحياء الاسكندرية البعيدة كان يتابع أفا جاردنر ويسوقنا
أمامه نضحك. لماذا كنا نفعل ذلك حقاً؟ أخذ «السُّل» كمال من بيننا
في وقت مبكر ولم يحدث أن شاهدت «الكونتيسة الحافية» بعد ذلك

ولا رأيت شفتي آفا غارندر المكتنرتين، ولا قوامها الذي يدعوك ان تحوطه إلا اليوم. لم يعد يدعوك لشيء... مضت عشرون سنة على تلك الأيام..

ورحلت ألقاب على بطني ثم ظهري. انتهى الفيلم وأطفأت التليفزيون وكان المساء. اتعدى الآن في موعد العشاء. ليس من السهل أن تأكل لحماً مرتين في يوم واحد لكنه عيد. ما بين الحجرة والمطبخ، في المسافة القصيرة للزينة المكشوفة أحسست بالبرد. هذه بشائر شتاء قاس. وعدت بصينية كبيرة عليها سلطانية سورية ويطبق من اللحم وآخر من الفتة. كل شيء ساخن وأرفع الصينية ليصل البحر الى وجهي حتى ادخل الغرفة. انني جائع بحق.

وسط الاكل اتركت أن السكون حولي أكثر مما ينبغي. سكون جاثم كأنه شخص آخرس وأعمى يجلس معك. أشعلت التليفزيون وقمت أغلق باب الحجرة الذي كان يضيء لي الظلام الكبير في الخارج. ولأن في حجرتي مصباحين كهربائيين أشعلت الثاني. أريد ضوءاً باهراً. انتهيت من الأكل. ورفعت صوت التليفزيون أكثر، وبخلت تحت الغطاء مجدداً فوق السرير، ورحلت اتابع حلقة جديدة من «الرجل الأخضر». رجل يعرف سر الرجل الأخضر فيجول نفسه إلى رجل أخضر آخر. رجل أخضر شديد الإخضرار. ويستخدم قوته في الشر فيكون على الرجل الأخضر الأول، الأصلي، العالم المسكين الذي أصابته خطأ كمية من الإشعاع وهو يجري تجاربه. يكون عليه أن يهزم الرجل الشرير شديد الاخضرار. ويألها من معركة رهيبية بين تيتان يقتصر فيها الرجل الأخضر الأصلي الخمر على القائم الشرير. لكن المصباحين بدأ يهترزان. وأحسست

بطعم تراب ناعم في فمي. ثار العج في الخارج إذن ويتسلل القبار من تحت باب الحجرة ومن شيش النافذة. ماذا أفعل؟ ليس علي إلا الانتظار. لا أستطيع ان افتح باباً ولا شباكاً. لكن كيف يهتز المصباحان حقاً؟. ورأيت زجاجة الكولونيا الموضوعة فوق التليفزيون بارزة أمام عيني. هنا يشربون الكولونيا، ويقفون بالليل سكارى تحت أعمدة النور. لم تكن مستعداً للخروج مرة أخرى. نقل الطعام على جسمي، وشدني النوم من ساقبي.

انتهى اليوم الأول بنهاره وليله. كان لا بد أن ينتهي. أعرف ذلك. وخرجت في ضحى اليوم التالي أمشي. أريد أن أرى البلدة وهي تعود الى الحياة شيئاً فشيئاً.

وجدت محلاً لنقالة قريباً من البيت فتحت أبوابه ولا أحد يشتري ولا أحد يقف فيه ليبيع. صاحبه يسكن في بيت خلف المحل. لا بد أنه سيخرج من بيته بعد قليل. أرجأت شرائي للسجائر حتى عودتي، ومشيت حتى وصلت الى المخبز اللبناني بأول العزيرية، ونظرت إلى وجه صاحبه الأحمر. أرجأت شرائي للخبز حتى عودتي ومشيت. حذس باليقين بأنني لن أرى في البلدة أكثر مما رأيت لكنني مشيت.. قلت ألعب مع نفسي. أمس جئت في شوارع العزيرية وأم دربان. اليوم انحرف يسار الشارع العام في اتجاه الإمارة. لا فارق هنا بين حي وحي في شيء إلا الاسم. البيوت متشابهة. قصيرة بيضاء وصفراء لها بوابات حديدية، والعمارات منها لا ترتفع عن ثلاثة أدوار. لكن ماذا يمنع أن أمشي في مكان لم أمش فيه. يا إلهي! هذه الطريق تصل الى بيت واضحة القريب من الإمارة. لا

يمكن أن أقصد ذلك. لأمش كيفما اتفق. لأخلق لنفسي شيئاً أفكر فيه وأشرد عن الطريق، فإذا أخذتني قدامي لواضحة أطرق الباب وأسأل عن خالد أقبله لأقول له: «مبروك العيد، كما يقولون هنا، ولا بد أن واضحة ستأتي لتقول لي ذلك أيضاً. إذا لم تأخذني قدامي إلى واضحة أعود. فكرت في شيء اشغل فيه ذهني فلم أجد. ربما لأنني فكرت في ذلك. لكن الحقيقة ذهلتني. فأنا أشعر برأسي خاوياً يصفر فيه الهواء كأنما نزعوا من تحت عظام الجمجمة كل شيء. ورجحت أريد بصوت خفيض، جعلت لعراف اليمامة حكمة.. وسمعت صوت امرأة يأتي وهماً من بعيد يخالطه التشجيع.

- لماذا تقف؟ فيم تنتظر؟

سألني الشرطي الواقف أمام الباب. ارتبكت. انتني أقف بحق أتطلع إلى البيت. بيت صغير له حديقة نخيل وشجر ليمون. وعلى بابيه يقف جندي صغير السن يحمل بندقية. وفي شرفة صغيرة بالدور الأرضي يجلس الدكتور سيد الغريب بلحيته الطويلة الموهوشة ينظر إليّ بتركيز شديد. كلانا ينظر إلى الآخر منذ لحظات إذن.

- آسف. لا أقصد شيئاً..

قلت للجندي ومشيت. وجدت نفسي أسرع الخطى عائداً إلى البيت. لم أشتد خبزاً ولا سجاناً في عروني. لديّ ما يكفي على أي حال.

في الغرفة وجدت المضيفين مشتعلاً. أنا الذي أشعلته، ولما لم

أجد الإرسال قد بدأ تركته «يوش» وخرجت. ها هو بيت برنامجاً عن مباريات «تلي مانش». غريب صوت هذا المذيع الذي يتابع المباريات الألمانية بلغة عربية فصحة. هذا شيء لم أتعوده من قبل. وكان عليّ أن أكل مما أكلت منه أمس. لم أتناول افطاري حتى الآن. لماذا خرجت اليوم حقاً؟ فقط لكي أرى البيت الموقوف فيه سيد الغريب كي اصطدم به في طريقي وأرى نظرتي الي وكأنها لغيري. كالذي يتكلم ويتذكر في آن. ماذا حقاً يفعلون به ذلك؟ لماذا لا يحاكمونه وينهون المسألة؟ لا يمكن أن تتأخر إجراءات المحكمة كل هذا الوقت. هنا في المحكمة قاضٍ شيع لا يحتاج إلا إلى شهيد. لا محامي ولا نيابة ولا مرافعة ولا عريضة اتهام. لا بد أن مسألة الغريب طواها النسيان. لو أن أحداً ما، أي أحد، تولى لفت انتباه الإمارة لانتهت مسألة الغريب على أي نحو. لكن لا يفعل ذلك أحد حتى الآن. هل افعل أنا؟ وانشغلت بأعداد الطعام. أكلت ونمت وصحوت أسمع صوت طرقات بالباب. سأفتح فأجد امرأة تطلب شربة ماء وتتهاوت ساقطة فأسندها فوق ذراعي وأحملها إلى غرفتي فلا تقيق من غشيتها إلا بالليل وبالليل لن تخرج وفي الصباح تكون قد ألقت البقاء معي. وهب هواء أروع الباب الحديدي بالخارج وأخذت ادعك عيني وانتبه إلى الطرقات على الباب ففمت وغادرت الحجرة. ثم اندفع. ابتسمت ومشيت على مهل. لا يمكن أن تطرق الباب امرأة. وأمام الباب توقفت قليلاً. ماذا لو كان الطارق امرأة بحق؟ لن أسمع لها بالدخول. فتحت الباب غرايته. وجل عجوز ممزق الثياب وعلى رأسه غترة قديمة وعقال حائل سواده ويمد لي يده. يا إلهي! شحاذ! هنا! في المملكة العربية السعودية! ويدق الأبواب أيضاً ببصرار! «يسهل لك» قلت. لم يتحرك. أنه حافي

القدمين أيضاً. لم يتكلم. غمغم بما لا أفهمه. لحيته الطويلة هي التي تحركت صاعدة هابطة. وظل ماداً يده. عدت إلى الحجرة مسرعاً وأحضرت عشرة ريالات ناولته أياها فأخذها ومشي. في الردهة توقفت. ضلام واسع حوني. لكن القمر يقترب فوقني من الاكتمال ويلقي على الدنيا بقليل من البهاء. دخلنا في الليل ولا أدري والتليفزيون يذيع أذان المغرب. لم أتناول غدائي ولست بجائع. وجبة واحدة تكفي اليوم. ورحبت أنصت للدعاء الشجي بعد الأذان.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من مات في هذا الطريق جائئاً أو ذاهباً، لقيه الله تعالى يوم القيامة ولم يحاسبه وأدخله الجنة. وقال: من حج هذا البيت أو اعتمر فلم يرفث ولم يفسق كان كما ولدته أمه. وقال: من حج وعليه دين قضى الله دينه. وقال سعيد ابن المسيب: كنت جالساً عند القبر والمنبر فسمعتُ قائلاً ولم أر شخصاً: اللهم إني أسالك عملاً باراً، ورزقاً داراً، وعيشاً قاراً، اللهم لا تجعل بيننا وبينك أحداً سواك، اللهم إن كان رزقي في السماء فانزله، وإن كان في الأرض فيسره، وإن كان قليلاً فكممه، وإن كان يسيراً فكثره، أعوذ بالله من القنوع والخسوع والخنوع، اللهم اجعلني أفقر خلقك إليك، وأعناهم بك، اللهم اجعل لي رزقاً واسعاً، واجعلني به قانعاً.

اختلف دعاء الليلة عن كل دعاء. ليس لوحدي ولا لأنني لم أحج. ذكرني بابي. كان كثير الدعاء بعد الصلاة. سبع سنوات مضت على موته الآن. ولولا قطعة أرض صغيرة كان يحتفظ بها. ما أكملت

العامين الآخرين في الجامعة. ترك ما يكفي إلى اليوم الذي أتابع فيه رسالته هو. كأنه قد رسم لي كل شيء.. كيف لم احتفظ بصورة واحدة لأبي، وكيف أنني نسيت وجهه.

قمت فجأة وتناولت من الدولاب كراسة استخدمها في كتابة الرسائل وكتبت:

السيد/ ناظر مدرسة طاهر بك الاعدادية بالورديان
بالاسكندرية.

السرا بعد التحية:

أنا اسماعيل خضر مويى مدرس اللغة الانكليزية في مدرستكم الغراء. سافرت الى السعودية بجواز سفر تم استخراجة على أساس بطاقة شخصية مژورة لم اثبت فيها وظيفتي كمدرس حتى لا تمنعني الوزارة وعليكم أن تحتسبوا أيام انقطاعي اجازة بدون مرتب حتى أعود بعد عام..

ومرقت الورقة. وكتبت:

السيد / ناظر مدرسة طاهر بك الاعدادية.
رجاء حفظ مكاني في العمل. سأعود بأسرع ما يمكن.

ومرقت الورقة وكتبت:

السيد / ناظر المدرسة..

لن أعود ولن أبقي هنا. سأنفجر...

ومرقت الورقة أيضاً. وفقرت من فوق السرير وسط الغرفة. واحد. اثنان ثلاثة. أربعة. واحد. الذراعان للكتفين.. اثنان.. الذراعان جانباً رفع. ثلاثة. أسفل خفض. واحد. اثنان. ثلاثة. هذا

الذباب اللعين بات معي في الغرفة رغم البرد وانكش فوق سلك الصباحين. هل اطارده؟ سينتشر ولا يخرج.. هذه الروزنامة المتعلقة بالحائط لا بد من تمزيقها. نوفمبر. بعد شهرين يبدأ عام جديد. وبعد اثني عشر شهراً ينتهي. لن اضع روزنامة في الغرفة في العام القادم.. هذه وضعها فاروق. لقد جهّز لي الغرفة تجهيزاً كاملاً. أين فاروق الآن؟ لم يعد ولم يرسل رسالة فلاغلق التليفزيون وافتح الراديو. إذاعة صوت مصر العروية تحييكم من بغداد. بعد أيام تحل الذكرى المشؤومة للزيارة الخيانية للرئيس المصري انور السادات إلى القدس. اليوم بدأت دورة الخليج لكرة القدم بالوقوف دقيقة حداداً لقرب هذه الواقعة الخيانية. ما هنا الرئيس المصري بالافكار العربية. واحد اثنان. ثلاثة وأقف في الهواء. وفتحت باب الغرفة فانسكب مستطيل الضوء المنبعث منها على الردهة وامتد طويلاً على الأرض ورايت البدر في السماء يرشك على الاكتمال. لقد رايت منذ قليل حين دق الشحاذ الباب. لم يتحرك من مكانه كثيراً. الوقت لا يمر. من الآن لن يمر بسرعة. لن أصل إلى اليوم الرابع للعيد إلا هالكا. أهلاً بك أيها البدر. أيها الملك. هانذا أقف في البرد أحبك. وحدي في هذا البيت الفارغ في هذا الحي الساكت في هذه البلدة النائمة في وسط الصحراء. هلاً نزلت وجلست معي قليلاً أيها الملك العظيم؟ لا امرأة تكلمني وأكلمها وأقول إن وجهها كاليد أو أنني رأيتك على وجهها. هل تعرف من قال بأنك ملك؟ ابن المعتز الشاعر الخليفة. كان روي الاستعارة والتشبيه. ما زلت أذكر ربما قتله خصومه بعد أن خصوه. يا الهي! إنه لعروة بن حزام صاحب الأبيات التي سمعتها صباح أمس من المرأة الباكية. ذلك الذي شهِق شهقة مات فيها، والذي لم يدركه ابن الخطاب فلم

يجمع بينه وبين غفراء.. أيها البدر الملك أين ستنام في الصباح ونمتي؟ أريد أيضاً أن أنام. ودخلت الحجرة وأغلقت الباب التمس الدفء. واحد. اثنان. ثلاثة. ما هذا الصوت الصادر من المطبخ؟ خروفشة متتابعة وانقطاع قليل. إنه فأر. فأر يمرح. فأر أدرك أن «سعيد» الذي تخصص في صيده في مكة الآن. بالضبط كما أدرك الكلب الأبيض الضخم خلو البلدة فنزلها ورايته أمس. يا للفأر الذكي! ويا لسعيد ومصيدته الجبارة! لا يستخدم مصيدة مألوفة. ابتدع طريقة وحشية مقززة. الفئران دائماً تذهب إلى المطبخ. وضع لوحاً من الخشب تحت حوض المطبخ بحيث يصنع مع الجدار زاوية حادة عند الركن. يطارد سعيد الفأر حتى يدخله في الزاوية الحادة ويضغط بقدمه على اللوح الخشبي فينفجر الفأر بين اللوح والجدار. ويحمل سعيد في ورقة يلقي به إلى الشارع من أعلى الباب. كل يوم يقتل فأراً. منذ اسبوعين توقف. اختفت الفئران وقال إنها لحست بقدوم الشتاء فلم تعد تخرج من جحورها. هذا الفأر كان يملك في مكان ما فلم يذهب إلى جحره. سائرته حتى يرسل وحده ولأغلق الراديو وأشغل التليفزيون الآن. طرقات خفيفة فوق الباب الحديد للبيت. انني اسمعها جيداً. لا يمكن أن يكون شحاذاً آخر. لقد أذن لصلاة العشاء وهما هو المذيع يتلو حديثاً. من يأتي في هذا الوقت؟ من يعرفني هنا لم يحج؟

..منصور.

فتحت بعد أن فتحت الباب. كان يتشم وأنا لا أستطيع أن أبعد عيني عن خصيتي القرد الزرقاوين فوق كتفه.

احترقت وجوه الباكستانيين، وصاروا أكثر حركة ومرحاً بعد عودتهم من الحج. سألت أرشد الذي دخل مكتبي ووقف لا يتكلم:
- هل كان الجو حاراً إلى هذا الحد؟
- كان برداً مستر اسماعيل. نمنا في العراء وسافرنا في عربة مكشوفة..

وعاد إلى ذلوله. كانت الساعة حوالي السابعة والنصف. قال لي ضيق:

- ما هي حكاية مستر عابد معنا مستر اسماعيل؟
- هل حدث شيء جديد؟
- أمس مساء بعد عودتنا تحدثنا في عيرانية الكامب هذا الاسبوع. لقد عاد من الحج أكثر خلاً.
- معذرة أرشد. أنت تعرف أنني لا أستطيع التدخل بينهما..
- أعرف مستر اسماعيل لكن.. لا بد أن يساعدنا أحد. هل أتحدث مع مستر عبد الله؟
- لا.

نظر إليّ طويلاً ثم انصرف دون تعليق. لقد أدركت فجأة أن

منتديات مكتبة العرب

<http://library4arab.com/vl>

عابداً لا يفعل إلا ما يُرضي عم عبد الله. لكنني بعد انصراف ارشد فكرت: هل جاء حقاً ليقول ذلك؟ لا بد أنه كان يريد الحديث معي في شيء آخر. عاد ارشد إذن إلى تردده معي في الكلام.

حين دخل نبيل يحمل القهوة كان يبتسم ابتسامة كبيرة. وضع الفئجان أمامي، وقال:
- لم أرك في العيد.
- كيف تراني وأنت في الحج؟
- أنا لم أجد.
اتسعت عيني وأبتسمت. لا بد أنه يمزح. قال:

- عدت من منتصف الطريق.. من ثلثي الطريق حقيقة. من الأشياء التي ضاقتني في العيد أنني لا أعرف بيتك. لو كنت أعرفه كنت زرتك وأمضيت الوقت معك. مر الوقت كثيراً علي وحدي هنا. نزلت إلى البلك أكثر من مرة، ورحت أمشي في شوارعها علني اصطدم بك في طريقي. خائني الحظ. لم أجد إلا كلياً شامداً.

- هل صحيح أنك لم تحج؟
ضحك وأقسم أنه لم يحج فعلاً ثم حاول أن يكتم ضحكاته فقال:

- شغ يا سيدي. وصلنا إلى «بيار غي» أنا وعابد. بيار علي قرب مكة. ومنها يبدأ الإحرام. إنها ليست مدينة ولا قرية. نقطة على طريق بها ماء وجامع صغير. هناك التقينا بجماعة من المصريين لأننا مستقلون أو توبيساً كبيراً.. كان علينا جميعاً أن نبيت الليلة

هناك. وكان بينهم شاب مجنون لا تعرف. عاقل لا تعرف. مصيبة والسلام. كان هو الإمام الذي يصني بهم ويخطب فيهم ويحدثهم عن المناسك. طبعاً انضمت أنا وعابد إليهم نستمع إلى صاحبنا الذي راح يحدثنا عن الواجبات بعد الاحرام. لا تقطع شجرة ولا زرعاً ولا تحلق ذنك ولا تقص اغلافك، وطبعاً لا فسق ولا رفث ولا قتل لأي حيوان ولو قملة. حتى لو خرج عليك أسد لا تقتله إلا إذا هاجمك، هكذا قال. طبعاً معه الحق لأنه لو خرج علي أسد لن أقتله. سيقطنني - وضحكنا بشدة وعاد نبيل يتحدث - بالليل رأيت ذئباً.. ذئباً حقيقياً يقف قريباً منا. كانت النساء نائمات في الأوتوبيس والرجال نائمين على الأرض. أنا وحدي كنت سهران. ليتني كنت نائماً. خفت وانتظرت أن ينصرف الذئب فلم ينصرف.

- طبعاً هاجمت الذئب؟

قاطعت ساخراً وضاحكاً. سكنت قليلاً وقال:

- أنت لن تصدق لكن عابداً يمكن أن يؤكد كلامي.. تبوك كلها تعرف القصة. كيف لم تصل إليك؟
سكنت. الحقيقة لم يتحدث أحد أمامي بشيء كهذا. تحدث سعيد ووجهه عن أشياء كثيرة طريفة وشاقة حدثت في الرحلة إلا حكاية الذئب هذه. واستطرد نبيل:

- أمسكت بحجر وقذفت به الذئب. أنا في ذراعي «عزق الصبا». كنت في مصر أقذف الحجر من «الكيت كات» يعبر النيل ويصل للرمالك. ما علينا. أصاب الحجر رأس الذئب فعوى وجري. لو لم يعو لما تنبه أحد. استيقظ الرجال واستيقظت بعض النساء واستيقظ صاحبنا وسألني هل سمعت صوت الذئب فحكيت له

القصة. غبي أنا لأنني فعلت ذلك. تقدم صاحبنا الى قطعة الحجر التي أشرت له على مكانها فوجد فيها آثار دم فقال لي إن إحرامي فسد وعليّ أن أحرم من جديد. كيف؟ تفك الاحرام وتتوي وتحرم من جديد. هل هناك أعجب من ذلك؟ أنا مُحرم وعليّ أن أفك الاحرام من جديد. قال لي إنها مسألة سهلة. كل الناس قالوا ذلك أيضاً وأنا وجدتها غير معقولة. في الصباح الباكر أخذوا طريقهم إلى مكة، وأنا وجدت تريللا قادمة من جدة تحمل سيارات إلى تبوك فركبتها. هل تصدق أنني وأنا اضع قدمي فيها أحسست بخطئي وكنت أعيد وأنفذ ما قيل لي، لكنني قلت إن هذه التريللا جاءت في الوقت الذي أراده الله لي. ربما أراد الله أن ينجيني من شيء خطير كان سيحدث لي في الحج. من يدري؟!

أطلت النظر الى عينيه. لم يكف طوال الكلام عن الابتسام. قال:

- أنا أعرف أنك لن تصدقني أبداً تماماً كما لم يصدقني صاحبنا حين قلت له إن الذئب كان سيهاجمني. قال كان عليّ أن انتظر حتى يفعل ذلك، قبل ذلك ربما كان يمشي هائماً لا يشعر بوجودي. كأنه كان من الممكن أن أقاوم الذئب إذا انتظرت وهاجمني.

قلت:

- إذن أنت لم تحج لأمك؟

وقف وقال:

- هي مَرَّة لا تستحق.

وانصرف وتركني أضحك بقوة لم ينهها غير دخول سيارة عم

عبد الله مسرعة في الباحة تثير زوبعة من الثراب.

دخل عابد الى غرفتي مضطرباً وقال:

- خذ ملف آرون بونكرز واذهب به الى عم عبد الله.

وجلس خلف المكتب المجاور للخزنة. قمت أنا وتناولت ملف

آرون من الدولاب.

سألته:

- ما الحكاية؟

- عم عبد الله سيخبرك..

دخلت غرفة عم عبد الله، فوجدته قد استلقى على الفوتيل

الضويل وقد خلع العقال والغترة وبدأ يغالبه النعاس. لا بد أنه لم

ينم الليلة الماضية. رايت صلبته لأول مرة. لم يكن في رأسه الا

قليل من الشعر فوق أذنيه. نظر الى دون أن يغير من وضعه وقال:

- سو ترمنيشن لأرون. غداً باكر يكون في تايلاند.

ارتبكْتُ. لماذا هذا الفصل المفاجيء لأرون؟

- لماذا لا تتحرك؟ أنه الاجراءات ثم احضر الملف عندي.

ضاع الكلام مني، واستطرد هو:

- اعرف أن آرون مدين للشركة بثلاثة أشهر من راتبه، وأعرف

أنك وافقت له على القرض. رُخ من أمامي..

كانت هذه أول مرة يتحدث فيها بغضب إليّ. أنا الحقيقة لم

أوافق لأرون على شيء. لقد توسطت فقط عند عابد. فعلها عابد إذن

وكذب. هذا أول اللعب القبيح. لكن هل أستطيع أن أقول لعم عبد

الله شيئاً. إنه مدير جاد غير مستعد للتضييع وقته في معرفة الحقائق. وإن أول ما يسمعه هو الحقيقة دائماً..

دخلت غرفتي. نظر إليّ عابد مبتسماً بوجه جامد. بدا مستعداً للرد غني أي كلام أقوله فلم أتكلم. خرج إلى غرفته وجلست أنهي إجراءات فصل آرون. كانت هناك استمارة يجب أن أملأها حتى إذا جاء وقّعها. وكان عليّ الاتصال بالجوازات لإرسال المُنقَّب الذي سيأخذ الجواز ويضع عليه تأشيرة الخروج بلا عودة، والذي سيحجز تذكرة السفر.

جلست أفعل ذلك وفجأة رأيت منصور يدخل بسيارته الكابريس الفارهة وجواره آرون.

— سويت له ترمينيشن؟

سألني منصور وهو يدخل إلى الغرفة وظفه آرون. كنت أضحك من قوله «ترمينيشن». عم عبد الله يعرف الانكليزية جيداً من عمله السابق في الدمام. كيف إذن يعرفها منصور؟ ربما لأنها مصطلحات تتكرر كثيراً أمامه. قلت وأنا مندهش من عدم وجود القرد معه.

— أسويه الآن.

كان هو قد جلس إلى المكتب المجاور للخازنة. وجلس آرون على أحد المقاعد الجلدية، فصرخ فيه منصور:

— لا تجلس.

قالها بالعربية وفهمها آرون ربما من إشارة يد منصور، فتجههم وجهه ثم وقف يبتسم لي في ارتباك شديد، وسألني منصور:

— لماذا تأخرت؟

حملت فيه الحظاظ ولم أرد.

— هيا، بسرعة..

هتف وقام تاركاً المكتب وخرج، فلم يعطيني فرصة للانفجار فيه. أشرت لآرون أن يجلس وسألته:

— ماذا حدث؟

— ضيطوا عندي خمرأ.

هذه ثاني مرة يتحدث فيها عن الخمر.

— هل كنت تصنع الخمر بحق؟

أجل مستر اسماعيل.. مستر عبد الله يعرف. إنني أعطيه منها. ارتبكت للحظة، واستمر هو يتحدث:

— كان كل شيء يمضي بهدوء. في إجازة العيد كنت تقريباً وحدي في الكامب. قمت بتحضير كمية كبيرة. كان مستر عبد الله في غمّان. لقد حضر أمس فقط. أول أمس عاد الباكستانيون. إنهم جميعاً يعرفون ولكن واحد منهم قال أن لا أفعل ذلك مرة أخرى. قال إنه بعد الحج لن يسمح بوجود خمر في الكامب. لم أهتم. أبلغ الشرطة. إنه غبي.

— للأسف يا آرون لن تعود للمملكة مرة أخرى.

— أعرف مستر اسماعيل. سأذهب إلى إيران. لقد عملت هناك منذ سنوات.

- لكن في إيران مظاهرات ضخمة الآن. انفجارات والشاء يضرب الناس بالطائرات.

ابتسم وقال:

- أعرف مستر اسماعيل.

لا جدوى من الكلام. سوف يُرحل آرون وإنساء كما سينساني. قدمت له نموذج انتهاء الخدمة ليوقع عليه وقتئذ:

- سأرسل لك الجواز والتذكرة في المكاتب. سأحجز لك بعد يومين لتدبر نفسك.

- أشكرك مستر اسماعيل. هل هناك مشكلة بخصوص القرض؟
لا.

- أشكرك مستر اسماعيل. إنني لن أنساك أبداً. أنت مصري طيب.

ابتسمت وقلت:

- المهم أن تشتري بيتاً في بانكوك.
وقف وقال:

- سأشتريه مستر اسماعيل.. سأشتريه. لا يد.

ورفت أصافحه فشدد عل يدي بيديه وخرج مسرعاً بهرول. بدا لي من قصته كحجر يتدحرج.

- سأعود معك اليوم.

فاجاني منصور الذي عاد إلى مكنتي بعد انصراف آرون.
- رأيتك تدخل بسيارتك الكابريس.

- تعطلت.

تأملت بحدّة بعد أن جلس إلى المكتب المجاور للخازنة وقلت:

- اسمع يا منصور. لقد طلبت مني شيئاً ووعدت أن أجيبك في الوقت المناسب فلا تطاردني.
سكت قليلاً. وقال:

أخشى أن تخذلني.. انه أمر بسيط جداً لا يحتاج كل هذا الانتظار.

حين حضر منصور إلى بيتي. ثاني أيام العيد فاجاني بأنه يريد أن يعرف متى سيتزوج سعيد من خطيبته وداد. أرهشني انه يعرف سعيداً وخطيبته. وكنت أنظر اليه وهو يجلس مؤدباً خجولاً في الغرفة وأرى الكحل في عينيه. عرفت بعد ذلك أن الرجال هنا غالباً يتكحلون في الأعياد سنة عن الرسول. كان شكله غريباً جداً وكانت هذه أول مرة أرى رجلاً يتكحل. وقال وأنا لا أستطيع ابعاد عيني عن عينيه:

- حتى لا ترتبك أخي اسماعيل أقول لك إنني أعرف وداد منذ ثلاثة أعوام. انها مُدرّسة في المدرسة المتوسطة وأختي تلميذة عندها. كانت تأتي إلى المحل ومعهما أمها لتشتري القماش. إننا نملك محلاً كبيراً في الشارع العام. لقد فكرت أن أتزوجها وذهبت وأبي وأمي كما يفعلون في مصر إلى بيتها وخطبناها لكن أمها رفضت. قالت إنها مخطوبة. ولم تكن مخطوبة أخي اسماعيل. رفضت أمها بشدة ورفضت المائة ألف ريال مهراً. وفضتني أخي

اسماعيل وأنا أعرف أن السعوديين ينزلون مصر في كل وقت يتزوجون. لقد خُطبت لسعيد بعد ذلك وصدمتني صدمة كبيرة..

كان وهو يتكلم، يبدو محزوناً بحق. ولم أعرف كيف أهون عليه. أعددت له شايًا ثلاث مرات وفي كل مرة يشربه ويبدأ أنه لن يترك البيت. كل ذلك والفرد فوق كتفه ينظر إليّ. قلت:

- ربما كانت علاقتها بسعيد قديمة.

- لا.

- كيف تعرف؟

- أنا أعرف.

- إذن...

ولم يدعني اكمل. قال:

- لقد فضّلت عليّ المصري. السعوديون أخي اسماعيل يتزوجون من مصر كل يوم بسهولة.

ضايقتني هذه المرة. كيف أشرح له؟ لا زيجة مما يحدث حقيقية. المسألة لا تزيد على غرام سعودي باللحم المصري، أو فقر عند المصريين الذين لا يغالون في المهور كما هو الحال في المملكة.

- وما دخلي أنا في هذه المشكلة؟

- أنت تعيش مع سعيد. أريد أن أعرف منك موعد زواجهما

تذكرت نظرتي الغاضبة إليّ يوم رأنا في البنك، ومعاملته الخشنة غالباً معي. ماذا يفيد أنه يعرف موعد زواجهما حقاً، وأرديني شيء من الخوف. شخص مثل منصور يبدو شديد التعقيد. قلت:

- أنا رغم عيشي مع سعيد لا أتحدث معه في أي شأن خاص.

- تكلم وأعرف.

قال بحسم ووقف لينصرف. لم أتم تلك الليلة إلا عند الصباح. ساعدني ذلك حقاً أن أنام نهار اليوم الثالث للعيد، أن اتقرب يوماً من أيام الصمت، إلا أنني حين جاء سعيد في اليوم الرابع، لم أستطيع أن أمنع نفسي عن التطلع إلى وجهه بين حين وآخر، وخشيت أن يظن سعيد إلى تطلعي إليه، ويسألني عن هذه الحالة المفاجئة، إلا أن سعيداً لم يظن لشيء، وثنا استطعت بعد يومين أن أكف عن ذلك. الآن يأتي منصور طالباً أجابة سريعة على سؤاله. إذن لا بد أن أكذب. قلت

- لو قلت لك متى يكون زواجهما هل تقول لي ماذا يفيدك؟

- لن يفيدني شيئاً، أنا فقط أريد أن أعرف. مجرد معرفة لا أكثر

ولا أقل.

- بعد عامين يا منصور..

ورأيتني ينظر إليّ بسعادة مفاجئة.

- أصادق أنت أخي اسماعيل؟

- صادق جداً..

- حياله ذلك يا طويل العمر..

وقام يصافحني ضاحكاً فرحان كطفل وجد لعبته المضيئة وقال:

- الكابريس ليست معطلة. لن أعود معك.

- كيف انكسرت سيارتك؟

سألت منذر الذي جاء لينحني بي قبل أن تغادر الباحة

بسيارتي.

- سيارة ملعونة موبيل ١٩٧١. سَقَطَتْ بها في حفرة. سحبها
الونش ورميتها عند أرشد.
قال ذلك وهو يصعد السيارة وبعد أن جلس استطرد:

- طول النهار تعالى يا منذر. رح يا منذر، كهرباء يا منذر.
ميكانيكيا يا منذر. مياه مقطوعة عن الجيش يا منذر. اسمنت ناقص
يا منذر. طيب يعطوني سيارة قوية. باكر سأحصل واحدة جديدة.
العمل بلا منذر يتوقف ومنذر لا يعمل بلا سيارة.

رحت أضحك وأراقب الطريق واستمتع بالهواء البارد قليلاً
الداخل إليّ من نافذة السيارة المفتوحة. فجأة تذكرت أنني لم أر
اليمني العجوز اليوم. هل حقاً لم أراه أم لم أنظر ناحيته؟ لا بد أنني
لم أنظر ناحيته. أربكني منصور إرباكاً شديداً.

- ما رأيك بمنصور يا منذر؟

سألته ولم أرتب للسؤال.

- منصور! قلت لك من قبل إنه مخبل. مجنون.

- أعرف. لكن ماذا تقصد بالضبط؟

ضحك ضحكة طويلة وقال:

- تريد القصة كلها؟

- كلها.

- اسمع.. منصور من عائلة كبيرة لديها تجارة واسعة في
التسارع العام. ترك تجارة أبيه وجاء يعمل سائقاً عند عبد الله.
ليس هذا اجنونا؟

- لكن عبد الله لا يستخدمه كثيراً.

- عبد الله يعرف عائلته.

- أهذا كل شيء؟

- منصور مجنون بمدرسة مصرية يريد أن يتزوجها. مجنون
بالمصريات. ليست هذه أول مصرية ترفضه.

- هذا غريب حقاً.

عاد يضحك ضحكة طويلة وقال:

- أنت تعرف كل شيء يا أخ اسماعيل. تريد فقط أن تستوثق.

قلت محوّلًا الموضوع:

- إلى أين وصلت مع جارتك الحسنة؟

- الله يستر عليك لا تذكرني. صارت صديقة لزوجتي. زوجتي

صغيرة بلهاء.

ضحكت واستمر هو يتحدث:

- أراها يا استاذ فكأنني رأيت الحرب.

- لا بد أنها جميلة بحق.

- أقول لك حبيب يا استاذ. كمين منصوب لمنذر.

. وفجأة كشف لي صدره:

- انظر. ضاع شديدي الأيمن من حريق قاذيفة مَرَّت من امامي،

وانظر هذا الهور في ريلة ساقي. وهذه ذراعي بها عشر غرز.

واستمر يكشف لي أماكن كثيرة مصابة من جسده، وأنا لا
أستطيع أن أتابع إلا قليلاً فغيتاي على الطريق.

- أنا من عائلة قداوية يا أخ اسماعيل.

لم أدري بما أعلق. صمتنا قليلاً ثم قال:

- أعذرني إن كنت أزعجتك. أنا لا أعرف بالضبط ما أفعل. المرة

السابقة لم أكن طيباً معك، لكنني والله أحب المصريين جداً. أنا فقط
أكره السادات.. هل تلومني؟
كان صوته يتهدج بما يشبه البكاء وهو يتكلم. وجدت نفسي
أقول:

- وأنا مثلك أكرهه يا منذر.

- الله يستر عليك يا استاذ.

واشعل سيجارة لي ولنفسه ثم قال بصوت خفيض:

- لا تخبر أحداً بما رأيت من جسمي. يعرفون أنني كنت غداً شيئاً
يرحلونني يا استاذ.

- معقول؟

- جداً.

- يعيدونك إلى الأردن؟

- هل تظن إلى فلسطين؟

١١

لا تلوميني يا واضحة. لقد تعلقني شعور الناجي من النار..

في طريقي إلى بيت واضحة فكرت بأن امضي معها اليوم أطول
وقت ممكن لكنني رأيته.. البيت الجميل ذا الحديقة ذات النخيل
وشجر الليمون، على بابيه جندي شرس، وفي شرفته جلس سيد
الغريب ملتفاً ببطانية. رأى سيارتي ورأني فوقف ولم أقف. ضاقت
نفسي رغم اتساع الدنيا حولي. لا أحد يستطيع إبلاغ الأمير بأن
«الشيخ» نسي محادثة الطبيب المصري. لم يسجنه ولم يطلق
سراحه. شركة ليحف مع الوقت المترهل. قلت لوجيه: «لا يمكن أن
تنسى المحكمة قضية كهذه، الأمر مقصود...». قال: «كل الناس
تعرف انه نسيان. هذا ممكن جداً. فكرت أذهب للإمارة وأطلب
مقابلة الأمير. وفطنت فجأة إلى انه قد مضى عام والغريب «موقوف»
ولم يفكر في ذلك أحد، وأصابني ضجر شديد فلم أذهب.

رأيت البيت اليوم وقررت أن أهرب من الدرس. وربما أهرب
أيضاً من الدرس الجديد لابن صاحب البيت الذي نسكنه، صالح

سفيور الثقيفي الذي حين قابلني به وجيه لم أصدق أنه تلميذ. قال وجيه إن التدريس لصالح قد يفتح لي الباب للتدريس لغيره، فيعينني ذلك على كسب أكثر ما يمكن في زمن قليل، ووافقت، واليوم موعداً لنبدأ، ولكن بعد أن أنتهي من الدرس الواضحة التي أمسك بنفسي أكثر من مرة مثلبساً بانتظار موعد الذهاب إليها.

عليّ اليوم أن أشرح لها درساً عن هيلين كيلر.. عن الإرادة الانسانية. واليوم أشعر بالخوف أكثر من كل وقت. أفكر كيف كان يخامرني شعور منذ رأيته فوق عربة الشرطة بأنني سألقاها، وكيف انني سأكون خاتمة القصة. أخاف عليها مني وأخاف منها عليّ. أنا رجل أغلقت شطآن البحيرة من زمان، فكيف أسافر كل هذه الأميال لألقي فيها بالحصى؟ وأحد فينا مقتول. لا أريد أن أموت ولا أن يكون لي في كل بلد خطيئة.. هل أقول لواضحة ذلك؟ هل تفهمه؟ هل يفيد؟ لتستمر قصتنا إذن إلى غابيتها المرسومة، لكنتي رأيت البيت الجميل والدكتور الغريب فحاصرني الشجر وفكرت أن أعود.

استقبلتني واضحة. فتحت لي الباب الخارجي وأفسحت الطريق، فدخلت منكس الرأس إلى الغرفة الواسعة، وقلبي يتدحرج أمام قدمي. خيل لي أنني أزورها بالليل ولا أحد في الدنيا غيرنا، لكنني ظلت خافضاً رأسي حتى لا أرى وجهها السافر، ولا شعرها الذي يدعوني لأخبيء رأسي فيه.

صغيرة واضحة كالعصفور، وتحتل من الفضاء فضاء كبيراً، ولكن لا بد أن أرفع وجهي إليها.

— أين الواجب؟

قلت حاسماً فقدمت لي الكراسة بيد مرتعشة. لا بد أن وجهي تنجم. ولم أشأ النظر إلى وجهها الذي لا بد ظلّته خيبة الرجاء. لم تعرف أنني غضضت البصر حتى لا أتنازل أمام دعوة شفقتها المرتعشتين.

— استاذ. هل من الضروري أن يُكتب الاسم قبل العنوان؟

— لا أظن أن ساعي البريد يعيد رسالة كتب فيها العنوان قبل الاسم، لكن هكذا تقتضي تقاليد كتابة الرسائل بلغة أجنبية.

— لا أعرف لماذا أفكر لو تصل الرسائل دون كتابة الأسماء.

— يمكن طبعاً لو كتبت رقم صندوق البريد.

لم أفهم إلا متأخراً ماذا تقصد. رأيته تنجم. خيبة رجاء أخرى. أدركت مقدار غبائي، ومقدار عنادها، ونظرت إلى الباب المفتوح فرأيت، الشيخ الهرم فوق العربة المتحركة.

— جُدّي.

هتفت وقامت بسرعة إليه من الذي دفع به إلى الباب وتركه هكذا دون كلام؟ ماذا كان يمكن أن يحدث لو لم أنظر وراءه؟

ودخلت به تدفعه أمامها، وأنا أتأمل كم هو ضئيل لا يزيد حجمه على حجم طفل، لولا أن بشرته سوداء مليئة بالفضون. ورأيت يديه مرتختين فوق البطانية التي تغطي ساقيه، وجلد عظامهما يشف عن عظام بيضاء، وعروقي زرقاء قائمة منتفخة.

— هذا جُدّي المصري. خالد حدثك عنه. أراد أن يراك.

قالت ذلك وهي تتركه بعيداً جوار الحائط، وأنا أجاهد أن أعرف

لون عينيه اللتين يطل بهما علي وأطل بعيني عليهما. بيضاوان أم خضراوان اضمحل لونهما؟ لا أستطيع التحديد. صفتان مدفونتان. هذا ما يبدو مؤكداً.
- هذا هو الأستاذ المصري.

هتقت واضحة لجدها، ورأيته يبتسم. أول مرة أرى شيئاً هزياً يبتسم. مبهج كطفل ولید. وفمست لي:
- تكلم فجدي أعمى.

لم اتكلم. قمت واتجهت اليه. أمسكت بيده أرفعتها أضافها وتركنتها فسقطت على حجره.

كيف إذن أعود الى الدرس؟ بدأت بالغباء الذي سبقه في الطريق سجر من أجل ذلك الذي يسجنه الجبن والنسيان، وأنهاء حضور هذا الجد. من الذي دفع به إلى الباب حقاً، لماذا لا أرى في هذا البيت أحداً غير خالد وواضحة؟

- هل ضايقتك اليوم؟

- لا.

- إذن لماذا تريد الانصراف؟

- سأعوض لك الدرس الحصة القادمة.

رأيتها تكاد تبكي، وظللت مندفعاً في قسوتي. لا تعلم أنني ردت أن أنور حول المكتب وأخذها في صدري.

- هل خطيبتك ليست بخير؟

للمرة الثانية تذكر خطيبتني. ما حاجتنا الى كل هذه الغباوة اليوم؟

- كما ترين. أنا لا خاطب ولا متزوج.

قلبت يدي أمامها وانصرفت مبرعاً. كنت أعرف انها تبكي في صمت خلفي، لكن ماذا أفعل؟ تملكتني شعور الناجي من الغار. لا بد أيضاً أن أجد طريقاً آخر لا يمر بالبيت الذي يحوطه النخيل والليمون والنسيان.

- يا هلا يا أستاذ.

هتف صالح وهو يستقبلني بحفاوة. بيت صالح لا يختلف عن بيت واضحة. بناء من دورين حوله ردهة تدور معه بلا أشجار.

قادني الى قاعة طويلة مفروشة بالموكيت الأخضر، وتوزع على جوانبها الحشايا بإهمال. لا مكتب هنا ولا مقاعد. جهاز تليفزيون كبير يتصدر القاعة، وتحت على الحامل الزجاجي جهاز فيديو، وجوارهما منضدة صغيرة فوقها مجموعة من شرائط الفيديو. بالمقابل، في الفاحية الأخرى من القاعة، يجلس أربعة شبان لم يتجاوزوا العشرين مثل صالح، وقفوا بمجرد دخولي، وصافحوني مبتسمين، وجلسوا من جديد ينظرون إلى بعضهم، ويضحكون بلا صوت.

- أصحابي، لا داعي لمعرفتهم.

قال صالح مبتسماً وأنا بعد لم أجلس. ابتسمت لهم فضحكوا وصفقوا في وقت واحد كأطفال.

- لا تتدهش يا أستاذ، يأتون هنا ياكلون ويشربون ويشاهدون الأفلام.

أدركت أن الجو لا يوحي بإمكانية التدريس فجلست صامتاً.
فوجئت به يسألني:

- تبغي ترى فيلماً يا أستاذ؟

- أجل..

صفقوا من جديد. وأنا لا أعرف كيف وافقت هكذا، لكنني ردت
لوشريت خمراً أيضاً.

قام واحد منهم وأحضر عدداً من الأفلام، وخرج صائح ليعد لنا
الشاي بنفسه. هكذا قال.

- قَسِّرْ لنا عناوين الأفلام يا أستاذ.

قال الذي يحملها وهو يقدمها لي. وقال آخر:

- الأستاذ يترجم لنا.

ضحكوا وصفقوا طرباً. وضعت الأفلام أمامي فوق الأرض،
والتفتوا هم حولي، وتناولتها واحداً فواحداً.

- هذا «راعي بقر منتصف الليل»

- هذا نعرفه.

- هذا «كلاب من قش».

- هذا ممتاز لكن رأيتاه كثيراً.

- هذا «موت في فينسيا»..

- ها. هذا فيه الصبي الصغير.

- وهذا «الخادم».

ضحكوا.

- هذا فيه الرجل الذي يتبول..

سَكَتُ للحظات. راوا معظم الأفلام فلماذا يريدون أن أترجمها
لهم؟ رأيت أيضاً هذه الأفلام في سينمات الاسكندرية، ورأيت
«الخادم» منذ حوالي عشر سنوات ولا أذكر ما إذا كان فيه شخص
يتبول أم لا. كنت أحب ديرك بوجارد. اري في وجهه دائماً مسحة
حزن عميق، وكنت قرأت عن هارولد بيتتر كأحد كتّاب المسرح
الظليين في إنكلترا، ورأيت اسمه في الأفيش ككتّاب للفيلم. يا
الهي! كان هذا أيام كنت أقرأ. مضى وقت طويل على ذلك حقاً.
قام واحد آخر وأحضر بقية الأفلام ووضعها أمامي فوق
الأرض.

- هذا «موبي ديك»..

- هذا عن الحوت. لا نبحاه..

وأدوا فرحتي بالفيلم الذي لم أشاهده وكنت أحب لو رأيته. لم
أقرأ «موبي ديك» أبداً وإن كنت قرأت عن تعاسة هرمان ميلفيل.
أحببت دائماً أن أقرأها ولم أقابها في مكتبة. ليكن. ما معنى أن
أُثير في نفسي «كوامن الشجن».. ما القراءة التي سقطت بين قدمي
وخلّفتها ورائي في زجعة الأعباء التي قدرها لي أبي أحسن تقدير؟
وما الكتابة لو كنت كتبت؟ لا معنى لأي شيء نسينه. لا يضعيك منك
حقاً إلا ما ليس لك رغبة فيه.

- هذا «قصة حب».

- هذا فاشل!!

- طيب. هذا «العودة إلى الوطن».

أسسكه أحدهم من يدي، وفتح عينيه بأقصى اتساع، وقال:

- تبغي هذا. هذا فيه رجل مشلول يلحس.

ضحكوا وزجره أحدهم:

- ايش نبغي هذا! انتظر حتى يفسر لنا الاستاذ بقية الافلام.

فوجدت بالاول ينكمش ويسكت. يعقد ذراعيه امام صدره، ويربع قدميه كتلميذ صغير في كتاب. لاحظت ان جلبابه متسخ، وقدميه كبيرتان بهما بثور صغيرة دقيقة لها رؤوس بيضاء، ورأبته يوصلق في بعينين واسعتين يزيد من اتساعهما شحويه وضالة وجهه. احسست بسخافة الامر كله. لو دخل صالح وانتذني. ودخل صالح يحمل فيلمين ويقول:

- هذا «الرسالة» يا استاذ. نبغي تراه! إنه ممنوع في البلاد العربية.

وفي اللحظة التي كدت فيها أوافق رغم الجهامة التي بدت على وجوههم استطرد صالح:

لا تؤاخذني يا استاذ. نرى «الرسالة» فيما بعد. غالب يريد أن يرى هذا الفيلم. لا أستطيع ان أؤد طلباً لغالب.

كان يشير الى الشاب ذي البثور في قدميه، فصفقوا كلهم وضحكوا. وقفز غالب وأمسك بالفيلم من صالح، ووضع في جهاز الفيديو، وضبط التليفزيون ثم جلس، وبالروموت كونترول أدار الفيديو.

خرج صالح من جديد، ولم يعطني فرصة الانصراف، وأنا لم اطلب ذلك. لم يعد بالشاي الا في منتصف الفيلم. وضع الصينية الكبيرة الفضية وعليها ابريق الشاي والكاسات امامنا على الأرض. لم نشرب ولا فكر واحد فيما أن يملأ الكاسات الصغيرة.

لقد بدأ الفيلم بموسيقى ناعمة. ثم ظهرت بقع من الألوان خضراء وحمراء وصفراء وزرقاء، وصارت تتشكل في خطوط طائرة، وتتقاطع وتتقابل في إيقاعات شاعرية، موجية بأجساد معدبة تتقابل بعد طول عناء. ثم خفت الموسيقى شيئاً فشيئاً، وتلاشت الألوان، وظهرت ساقا رجل مضمومتان تدخلان الكادر على مهل من جهة اليسار وفهمت الأمر كله لا بأس. نسيت إحساسي بسوء المعاملة وغباوة الاستقبال. وظهر عمود الرجل منتصباً ثابتاً لا يهتز، ومن بعيد أقبلت المرأة عارية تتضح ملامحها كلما ازدادت قرباً، ووقفت أمام عمود الرجل، ونظرت إلينا وضحكت ضحكة فاجرة، وانحنت تضع قفصها حول العمود.

هل أكذب فأقول إنني لم أكن بحاجة الى رؤية ذلك اليوم على الاقل؟ أنا لم أشعر بأي خطأ أخلاقي. في النهاية أنا تارك هذه البلاد، ولا يهمني ما يقوله صالح عن اندريس الذي لم يطلب تهية الجوللتندريس، وراح يتفرج على افلام ممنوعة. الذي حيرني طول الفيلم، كان غالب الفاتح دائماً فمه في دهشة، والذي لا يني يوقف حركة الفيلم بالروموت الذي رفض أن يتنازل عنه لأحد. كان يوقف الفيلم كلما ظهر عضو امرأة. لا أكذب أيضاً إذا قلت إنه سبب في كثيراً من التقرز. لكنني انتظرت إلى النهاية. لثلاث ساعات كاملة لم يغه احدنا بكلمة. ثم أترجم لهم شيئاً ولا هم طلبوا.

لا أعرف في أي لحظة من الفيلم انسلخت ورأيت وادي النيل من الشمال الى البحر الأبيض. ديوك تودن وشعشع تسطع على الشريط الأخضر النضيق في الجنوب فتفتتح زهور الغول البيضاء بطول

الذئب، وشمس تسطع على الجبال فيصحو رجال ناموا جوار البنادق
ويقفون كأنهم رايات وشمس تسقط على المعابد القديمة فيضحك
وجه رمسيس في أقصى الجنوب وتنطلق الكباش من معابد الأقصر
تتغوى وتجري تتناطح بعد قيد طويل وشمس تسطع فوق الدلتا
فتصور الأبقار ويصحو الأطفال يسحبونها حفاة إلى المزارع
الخضراء ورجال قاموا يغتسلون في رضا ويصلون ثم يعشون
والغفوس على اكتافهم أو يركبون الحمر وشمس تسطع فوق
القاهرة فيخرج الرجال والطلاب على رؤوسهم طرايش حمراء
يصيحون في الشوارع ويعطلون المصالح ويطلق البوليس عليهم
الرصاص وفي شرفة عالية يقف المندوب الساسي البريطاني يتفرج
والبايب لا يفارق شفثيه ثم شمس تسقط فوق الاسكندرية حانية
ويصعد هواء البحر إلى البر محملاً برائحة اليود ورياح خفي يحدث
عن ضلوع تننثي فلا يجد الا صدور الأجانب الذين احتلوا شمالها
وتركوا جنوبها الضيق المكتوم لأهلها وللغرباء جاعوا من الزيف
خلف سراب المدن، ثم رأيت وادي الذئب ينكمش فيقترب جنوبه من
شماله ويمينه من يساره ويصبح كله غرفة أو ردهة بيت صغيرة
سليسة بثلاث قديم وناس متعبين من رجال ونساء وأطفال قليلين
يصحو من بينهم واحد عند الفجر في العقد الرابع يرتدي جلباباً
قديماً يأخذ مخللة بها عيش قليل وملح ويضع قدميه في حذاء
مهترى ويتسلل خارجاً في هدوء وضباب فوق الدنيا وكل شيء مبلل
بالندى ويمشي لا يرى أحداً ولا أحد يراه ووحده يشق الضباب
الكثيف عارفاً طريقه فيركب القطار وينزل يعبر قناة ويقف ذاهلاً أمام
اتساع الصحراء ويتساءل هل ستمشي فوق كل الرمال؟ ويجيب
سأمشي ويمشي فوق أرض سيناء ينام الليل ويتابع المسير بالنهار

وكلما أهدق به الموت عطشاً تفجرت له الأرض بالمياه وكلما أهدق
به الموت جوعاً أنزل الله عليه مائدة من السماء حتى دخل أرض
فلسطين فرأى أهلها معلقين في المشائق يضربهم الانكليز من الأمام
واليهود من الخلف ولا زال عليه أن يلبي النداء الغامض لأرض
الحجاز فيعبر النهر ويمشي في وادي الأردن نازلاً حتى يدخل بيداء
تبوك متوكلاً على الله بلا زاد من ماء أو طعام فيرى «ضباب الخالية»
«وتمساء الخربة» «وتبوك» المنعونة ويواصل فيرى قلبية الملعزة
ويواصل حتى يصل إلى المدينة فيجلس على باب مسجد الرسول
يبيع الحبوب للداخلين فتصير له بعد ذلك تجارة ويصير له طواف
بالبلاد حتى رأى تبوك مرة أخرى فدخلها وفيها باع لامرأة حشى
وراءها حتى خيمة أهلها فأطعموه فقال ما أطيب طعامكم وأهناً
عيشكم كيف أسلوبكم وأنا غريب يمضي في البلاد أجبروني فجاروه
وصارت المرأة زوجته أنجبت بنتاً أنجبت واضحة بنت سليمان بن
سبيل فصار جدماً وصارت حفيدة.

يا الهي! ما اقرب المدن رغم اتساع البلاد وما اقرب البلاد رغم
اتساع الأرض!

دخل منصور إلى مكتبي في الصباح والفرد فوق كتفه وقال:
- استعد للذهاب إلى المدينة.

ابتسمت. كلما كلمني منصور أحاول أن اتكلف الابتسام. قلت:
- خيراً؟
- قال:

- ستذهب إلى مؤسسة الضمان الاجتماعي. ستحضر نماذج
للتأمين على العمال. نظام جديد أظن أن لديكم مثله في مصر.

اندهشت من تدخله الدقيق في عملي، ونسيت أن عم عبد الله
كثيراً ما يعطيه هذه القرصنة. قلت مبتسماً:

- هل أنت مديرنا الجديد يا منصور؟
جلس إلى المكتب القريب من الخزانة وقال:
- أريد أن أعطيك هذا الفرد..

انطلقت ضاحكاً. لم أعد أخشى جانبه. بدأ وقد هدأت نفسه منذ
أخبرته بالموعد الكاذب لزواج سعيد من ودا.
- لكنتي لا أحب الفرد.

منتديات مكتبة العرب

<http://library4arab.com/vb>

- ليس لك. لنحمله إلى ابن عمي بالمدينة. يريد واحداً من عمان
وأنا لن أسافر إلى عمان الآن

نظرت إلى القرد فوجدته ينظر إلي. كيف يمكن أن أحمل القرد
معى حقاً؟ هل يسمح للقرد بركوب الطائرات؟

- هل صدقتني يا أخي اسماعيل. أنا فقط أمرح معك.

تنفست بارتياح. قلت

- لكنني والله كنت مستعداً.

- تسلم يا أخي اسماعيل.

قال ذلك واطرق ينظر في صمت إلى المكتب، وأنا لا أدري ما الذي
حدث لي. أحسست برغبة شديدة في البكاء. تأثراً من سذاجة
ووداعة هذا الإنسان الطيب الذي لا أعرف ماذا يريد بالضبط.

ساعة ونصف الساعة ووصلنا. الطائرة صغيرة لعبت بها
المطبات الهوائية كثيراً. في مطار صغير يشبه مطار تبوك نزلنا. لا
مشاكل في الاستقبال فنحن قادمون من الداخل. رأيت عدداً كبيراً
من الرجال يجلسون على الأرض في أحد أركان صالة الوصول
زجاجية الجدران، وحولهم يقف عدد من رجال الشرطة. خليط من
المصريين والآسيويين كان الجالسون متراحمين لا يستطيع أن
تحصيهم، مغبري الثياب والوجوه فيهم حفاة. وخرجت.

فضاء واسع وسماء عالية ورياح عريضة مسفلتة تقف فيها
السيارات، الأجوة والخاصة. نصف ساعة من المضار إلى المدينة.
هكذا علمت. توقعت أن يتقدم مني سائق لكن لا أحد تقدم.

الخازجرون مثلي من انظار يتجهون إلى السيارات في صمت، وهذا
الرجل الجالس على المقعد المجاور لمقعد السائق يشير ناحيتي.
انظر حولي فلا أجد أحداً. يقصدني أنا اذن، ماذا يريد؟ هتف:

- أركب بسرعة قبل أن يأتي السائق.

لم أفهم لكنني دخلت العربة في المقعد الخلفي، وظهر السائق
وفتح بابه ودخل وهو يقول:

- جاء أخوك؟

- أجل.

تلقت الرجل في وابشسم، ولم ينتفت السائق الذي قال:

- يا هلا.

وأدار محرك السيارة وأنا في غاية الحيرة.

- أخوك يعمل في المصلحة؟

- أخي وابن عمي أيضاً. تركنا «عوايتاء» هناك في مصر.

ضحك السائق الصغير:

- والله زين ما سويتكم.

واستمر يضحك والسيارة تحركت. طلعة الله على النسوان».
قال السائق والتفت إلي. «لا تؤاخذني يا أخي». ورايت وجهه
عجوزاً. ليس اذن شاباً صغيراً كما تصورت. وفكرت أن أفضل شيء
لي هو الصمت. الرجل الذي دعاني مصري ولا أحسب أنه يؤذيني.

الطريق طويل ضيق يقطع جبلاً سمرأ وصمراء عالية متدرجة
الارتفاعات. جبلاً صخرية لامعة، على سفوحها أخاديد جافة من
آثار امطار بعيدة الزمان، وعلى الأرض المنبسطة بينها «حزات»
قديمة تنفث دخاناً شقيقاً خفيفاً كأنها فوهات براكين صغيرة خامدة

منذ زمن طويل، ولا رمال حولي ولا كثبان. لا أعرف لماذا تذكرت
الكلب الأبيض الضخم مثل الحمار الشارد الذي رأيته في طريق
تيوك وابتسمت. هنا لا بد أنهم يقتلون الكلاب في المدن والصحاري
معاً، والتفت إلي الرجل وقال:

- هذه جبال بركانية تشبه جبال الصحراء الشرقية عندنا.

لم ارد، في حاجة لنا لمعرفة اسمه حتى اخاطبه، لكنني رأيته وجهه
جيداً. بدا لي شخصاً عادياً لا يمكن التنبؤ بشيء وراءه، وبدا لي
مسكيناً أيضاً. فقميصه متسخ الياقة، والزرار الأعلى فيه مقطوع
والبلوفر الذي يرتديه قديم، لكن وجهه أبيض مشرب بحمرة خفيفة
وشعره أبيض كله وعينيه صغيرتان ذابلتان من التعب. واستمر
يتحدث مخاطباً السائق:

- جبال مكة وجدة كانت متصلة بالجبال عندنا في مصر في
الصحراء الشرقية وهي جزء منها.

- سامحني يا استاذ والله أنا ما شفت مصر.. شفت تركيا..

قال السائق ذلك بخجل حقيقي والتفت الرجل الي مبتسماً وقال:

- المنطقة الغربية كلها من المملكة كانت متصلة بالصحراء
الشرقية المصرية. لقد فصل بين المملكة ومصر الأخدود الإفريقي
العظيم في العصور السحيقة كما تعلم.

يضاطبي باعتباري شخصاً متعلماً. يريد ان يشعرني بأنه
شخص مثقف ولا يجب ان أخشى جانبه. بدأت اطمئن اليه.

أخذت المدينة تظهر. بيوتها الواطئة بينها عمارات كثيرة عالية

ورأيت مآذن المسجد النبوي والقبة الخضراء تلمع في الفضاء، وقال
الرجل:

- المدينة جميلة. هراؤها عليل وأهلها طيبون. إنهم الأنصار.

ابتسم السائق وقال:

- الله يرضى عليك يا استاذ.

ولم يختلف ما رأيته في الشوارع عما رأيته في تيوك. الشوارع
هنا أنظف قليلاً وأوسع والأسويرون أكثر. المدينة اكبر.

توقف السائق أمام الحرم النبوي. زحام من الداخلين
والخارجين في سرعة وصمت، وزحام حول الباعة العجائز الجالسين
على الأرض أمام الحرم يبيعون القمح للدخلين يلقون به للحمام.
هذا حمام سابح فوق الحرم وتحت السماء لا يصطاده أحد ولا
يأكله أحد. ونزلنا وسبقني الرجل ودفع للسائق عشرين ريالاً، وقال
بعد ان مضت السيارة:

- تستطيع ان تدفع لي عشرة ريالات. أعطيت السائق الأجرة
المقررة.

- أستطيع ان أعطيك العشرين ريالاً.

- أريد فقط الريالات العشرة. الانسان هنا قد يحتاج لكل هيلة.

هذه هي المسألة التي دعاني للركوب من أجلها، ولم أشأ الإزالة
في الكلام. أعطيت الريالات العشرة لكنه سألني:

- هل تعرف أحداً هنا؟

- لا.

- اذن انزل معي في الفندق. أعرف الفنادق الرخيصة.

هدوء ولا صوت لشخص ولا لراديو أو مسجل، ورائحة البخور والطور تضيخ المكان كله، صمت وخشوع كأنما الرقاق والبيوت كلها داخل مسجد كبير.

- من حسن حظك أنه لا توجد عمرة هذه الأيام والا ما وجدت مكاناً لقدم. الناس أيام العمرة تنام في الشوارع.

لم أرد. كأنما تركته بحق يرشدني. دخلنا فندقاً صغيراً اسمه «حراء»، وقابلنا في بهو ضيق مظلم شاباً مصرياً يتشم، وصحبنا إلى غرفة في الدور العلوي، وقال بلا مناسبة إنه لا يعمل بالفندق غيره وزميل آخر، ورحت أنظر إلى الغرفة الصغيرة التي لا تزيد مساحتها على تسعة أمتار. بها سريران صغيران منفصلان، وبدولاب معدني من ضلفتين لا يصل عرضه إلى المتر ولا يرتفع إلى المترين، وحوض مياه مثبت في الحائط فوق رف زجاجي عليه كوب بلاستيك واحد، وفوقه مرآة صغيرة صدئة الحواف، مغيشة انزجاج، وفي السقف مروحة، وأحسست بالاختناق كأنما كان الحر محبوساً في الغرفة وانطلق يحاصرنا مشبعاً بالرطوبة. لا نافذة للحجرة على الشارع. لها نافذة صغيرة على منور ضيق. قلت للشاب المصري:

- افتح النافذة.

ابتسم وفتحها. ولم يتغير الحال.

- اندر اثروحة.

أدارها وانصرف، وجلست فوق حافة أحد السريرين. رأيت صاحبي قد جلس على حافة السرير الثاني بفتح حقيقية صغيرة كانت معه، ويخرج منها جلباباً دخل فيه بسرعة بعد أن خلع بسرعة أيضاً ثيابه. فعلت مثله لكنني ارتديت بيجامة. لا أحب الجلابيب

كانت الشمس فوقنا قوية. نحن هنا في الجنوب قرييون من تبوك. النهار هنا خريفي، والخريف هنا كالصيف في مصر. وأربكتني حركة النساء أمام باب الحرم. كنا تحركنا قليلاً وحدنا أمام باب آخر. النساء كثيرات يدخلن ويخرجن كاشفات الوجوه. عيون خضراء وعيون زرقاء وعيون سوداء، وكما تعرف جنسيات الرجال في المملكة من سحناتهم وأزيائهم تستطيع أن تعرف البلاد نفسها من عيون النساء وإن بدت الوجوه كلها واحدة. هكذا فكرت فجأة وأنا أنظر إلى الوجوه المازجة كورود سباحة في مياه من الضوء. عبايات سوداء حقاً أمامي لكن تظهر من فتحات صدرها ملابس خضراء وحمراء وبيضاء زاهية لامعة. عبايات سوداء حقاً لكنها مع الضوء الأبيض للنهار تعطي الفرصة للوجوه اللامعة أن تعلق عن سحرها. هنا أمام باب الحرم النبوي الشريف لم استطع رفع بصري إلى السماء ولا أن أخفضه إلى الأرض. صارت عيناى عن مستوى وجوه النساء وعيون النساء وشفاة النساء ونضارة وجناتهن. لم يكن عمر بن أبي ربيعة مجنوناً وهو يحج للغزل. ما بالي لو رحت مكة. استغفر الله العظيم. ماذا أفعل في خطف العيون والراحة التي تبعثها الوجوه في الأرواح.. أنا الآن محمول على سرير من الزئبق.

- النساء هنا يكشفن وجوههن لا تندهن. المسائل كلها مقلوبة..

قال الرجل. فأنزلني إلى الأرض، ومشى فمشيت جواره كطفل يتبع نياه.

إلى رفاق ضيق أخواني. زحام شديد ولكن الحركة تناسب في

منذ صغري . كانت ترتفع دائماً وأنا نائم عن ساقي وأشعر بالهواء البارد في فخذي وظهري . كلما اقترح علي أحد أن ارتدي الجلباب شعرت على الفور بالهواء البارد . لقد أذهشني كثيراً انتشار الجلابيب في مصر . الناس صارت ترتديها في الشوارع وأحياناً في العمل . تقليد جديد أرساء وعمده العائدون من بلاد النفط ، ولا أعرف كيف لا يشعر هؤلاء الناس جميعاً بالهواء البارد في أفخاذهم ، وقال صاحبي :

- نوباح ساعة ثم نتغدى خارج الفندق .

- لا أشعر بجوع .

- انن نتغدى بعد أن نصلي العصر . لقد فاتنا الظهر . سنصليه مع العصر في الحرم .

أحسست فجأة أنه ثرثار ينكلم أكثر مما ينبغي ، لكنني تجاهلت الأمر وحاولت أن أنام . لم أستطع ولا هو استطاع . رأيته يتمنن ممسداً فوق السرير . رأيته ينهض يخرج من الحقيبة التي مع كتاباً ويعود يستلقي يقرأ فيه .

- اسمعي اسماعيل خضر موسى .

قلت ، فابتسم وقال :

- كان علي أن أعرفك بنفسي . كامل البلتاجي . لا تؤاخذني . لا بد أنني أربكتك .

- لا تشغل بالك . لقد فهمت اشاراتك .

- لي نظرة لا تخيب في الناس .

وسكت قليلاً ثم سألتني :

- ألا تحب القراءة ؟

- أنا قارئ قديم .

نهض بخفة ، وأخرج كتاباً آخر قدمه لي :

- هذه رواية رائعة ، وصغيرة كما ترى .

أمسكت بها وقلت مبتهماً :

- ليس في رصيف الأزهار من يجيب . اعرفها . لا ينس أن

أقرأها مرة ثانية . لقد مضى وقت طويل على قراءتي لها .

لم أكن بحاجة حقاً إلى قراءة ما يعطيني . كنت بحاجة إلى معرفة ما يقرأ . استطعت أن ألمح عنوان الكتاب «التقصير» . كتاب أسود على غلافه وجه غولدا مائير . سمعت عنه من قبل ولم أقرأه . وشرعت أقرأ رواية مالك حداد . انتهيت منها في ساعتين . سرقنتي الرواية الصغيرة العجيبة كما سرقنتي أول مرة قراءتها . رأيته يقف ويخلع الجلباب ويقول :

- لا بد أنك الآن في حاجة إلى المشي .

وكانه ناداني من عالم مسحور ، حتى أنني دعكت عيني وقمت أغسل وجهي من الخوض ، وأشعر أنني شخص آخر نزعوا جلده وأعطوه جلدًا أكثر بهاء . وعدت أجلس على حافة السرير أنظر إليه في صمت ، ثم قلت :

- حين قرأت هذه الرواية أول مرة أحسست أنني أنا الذي يقفز تحت عجلات القطار ، الآن لم أشعر بذلك . فقط خفق قلبي .

تأملني قليلاً وقال :

- أنا أقرأها كثيراً . ربما لا أقرأها إلا من أجل ذلك . سأنظرك

في البهو السفلي .

وخرج مسرعاً، لماذا بان على وجهه ضيق مفاجيء؟ وقفت أفكر.

دخلنا مسجد الرسول، فصلى الظهر والعصر معاً. أول ما فكرت فيه ونحن نترك الفندق أن لا أنظر الى وجوه النساء. الدخول الى مسجد الرسول ليس بالشيء العادي. في عيد الأضحى لم استوعب فكرة أن تأخذ سيارة وتذهب لحج وتعود في أيام قليلة. الآن لا أصدق أنه يمكن أن تنزل من فندق وتدخل المسجد النبوي في دقائق. توقعت أن اهتز وابكي. ربما لهذا السبب لم يحدث شيء. دخلت المسجد وتطلعت الى الحمام السابح في الفضاء فوق الجزء المكشوف. لفت انتباهي اتساع المسجد الهائل، وأعداد الناس الغفيرة، وانقسام المسجد الى نصفين، الأيمن للرجال والأيسر للنساء. لا أرى وجوه النساء الآن. وجوهنا جميعاً إلى القبلة. لو التفتت لي كل هاتمة النسوة كنت في الحال. لا يحتاج أي انسان لدخول الجحيم غير أن يرى هذا العدد الهائل من وجوه النساء دفعة واحدة. يا للشيطان الجهنمي الذي يحاصرني! قال البلتاجي: - لن نستطيع الوصول الى قبر الرسول الا بعد الانتهاء من الصلاة.

- وجلسنا في الجزء المكشوف من المسجد، ثم أدن للصلاة وصلينا. خشوع غامر تلبس الدنيا مع صوت الشيخ الندي الذي يؤم المصلين. اكذب اذا قلت اني شعرت بتحول في شعوري ناحية الايمان، فأنا غير ملحد. واكذب اذا قلت اني لم اشعر بشيء. وانتهيئا وكلمني البلتاجي: - انتظر قليلاً حتى يخف الزحام.

وكنيت أنا أحدث نفسي. أبهذه السهولة يمضي الوقت في حضرة الرسول؟ منذ تفتحت عقولنا نسمع الكبار يطمون بالزيارة، ولم نملّ قط قصة الهجرة في المدرسة والبيت. اختبأ الرسول في الغار وصاحبه أبو بكر فَبَاضَ اليمام على الباب. وعنكب العنكبوت، وفزع أبو بكر وهو يسمع أصوات أقدام خيل الكفار، والرسول يطمئنه لا تفزع إن الله معنا. قال أمي ذلك كثيراً. قال حين رأني أبكي مع الناس: يوم تتحى جمال عبد الناصر ويدخلت إسرائيل البلاد: «لا تحزن إن الله معنا»، وقمت أتقدم إلى قبر الرسول.

- بين منبري وقبري روض من رياض الجنة. هذا حديث نبوي وهذه هي الروضة الشريفة يا اسماعيل..

قال البلتاجي وهو يراني أتقدم بصعوبة بين الجالسين من الاسيويين المستغرقين في قراءة القرآن من مصاحف صغيرة في أيديهم، يقرأون بسرعة ويهترون مع القراءة ولا يكادون يحسون بمن يتقدمون وسطهم.

- كان قبر الرسول وأبو بكر في بيت عائشة لكن عمر أوصى أن يدفن معهما. منذ دفن عمر لم تستطع عائشة أن تتفضل في ثيابها خرجاً من عمر. هكذا قالت هي. بعد ذلك الحق البيت بالمسجد.

البلتاجي يتحدث وأنا لا أهتم بالرد عليه. سأقرأ الفاتحة وأطلب الرحمة لأبي والصحة لأمي والتوفيق لإخوتي. وقفت أمام قبر الرسول وصاحبيه وأوشكت على التراجع. كيف حقاً لا أبكي؟ من ينقذني من حالة الخلاء الروحي التي تلبستني منذ زمن طويل.. منذ أمسك أبي بأيادي أخوتي وسلمهم إلي.. منذ قالت وهي تبكي

تركتني في اليوم الخامس من يونيو. ألا يذكرك هذا التاريخ بشيء؟
يوم لا يمر كل عام كبقية الأيام.. يوم سيظل معنا، حتى لو حاربنا
وانتصرنا ونسبه الناس، سأكون أنا الوحيدة التي لا تنساه، لأنك
تركتني فيه. لماذا يا اسماعيل لا تعرف كيف تخاف؟ لماذا تكون
طعنك باقية طول العمر. لا يشفي جرحي انتصارنا يوماً على
اسرائيل. يا طول جرحي وبس عذابي.
وخرجنا. ما كدنا نخرج حتى سألني
هل أنت تصلي حقاً؟
لا.

أجبت دون أن أنظر إليه. وددت أن أكذب، ووددت لو قلت: نعم.
أنا أيضاً لا أصلي لكنني كنت خائفاً منك. هيا نر المدينة..

عريض محند أحمر قاني قائم منطفيء هاديء مستكين غامض
يغمره الضوء. فبنام داخله ولا ينعكس كأنما هنا نهاية الرحلة
وموئل الراحة. انه جبل أحد. الهواء يعلا الفضاء امامه بارداً
منعشاً. والجبل الذي يحوط المدينة من الشمال كأنه حارس صامت
يقف في ثبات يقيها شحور الزمان. جبل في لونه حزن وخشوع.
والواقفون قليلون لا يزيدون على باعة التمر الجاف والحناء والعطر
في الزجاجات الصغيرة والسواك. ونحن، كأنه لم ينزل المدينة غرباء
غيرنا اليوم. لا أحد يتكلم من الباعة ولا صوت يرتفع.
التمر والحناء والعطر والسواك سعة عن الرسول، والكحل
أيضاً.

قال البلتاجي ولم يتكلم أحد غيره ذلك الاصيل وعاد يقول:

- كان الرسول نظيفاً مقبلاً على الحياة. كان يحب كل شيء ولا
يرضى بالقليل إلا في المال والطعام. أنظر، من هنا جاء خالد بن
الوليد.

أشار الى المكان الشهير للواقعة.

- وهنا كان يقف المسلمون.

ورأيت حيث أشار مستطيلين من الطوب الصغير على الأرض.

- هذا الطوب يحدد قبري حمزة ومُصعب بن عمير. أعظم شهداء
الواقعة. هل تعرفهما؟

- اعرف حمزة. ذاك الذي أكلت كبده أم معاوية.

قلت. وتهديج صوت البلتاجي فجأة بالبكاء.

- كان مُصعب فتى الفتيان في قریش. أجملهم وأغناهم، وإذا
أمن بالدعوة ترك كل شيء. ونحمل الجوع والعري وهو محاصر مع
المسلمين في شعب أبي طالب، وأبداً لم يستسلم. كان هو حامل
الراية ذلك اليوم. ولم يتركها حتى تمزقت أعضاؤه ومات.

وسَكَت. ومن فوق الجبل هفت علينا نسمة طيبة ضربة، وكنا
نوشك على الدخول في المغرب حيث يتسلل الليل على مهل، والشمس
على يسارنا بعيدة حمراء تتراجع عن الدنيا في حزن. وأنا أرى
المسلمين يتركون مواقعهم فوق الجبل وينزلون حتى لا تقوتهم
الغنائم والمعركة توشك أن تنتهي بالانتصار، فإذا بخالد بن الوليد
يظهر عالياً كجبل فوق الجبل ومعه جنوده ويغيرون على ظهر
المسلمين، ويثبت الرسول، وتنكسر سفتة، وينهزم المسلمون،
وسؤال الامتحان الدائم عن العبرة من الهزيمة، والإجابة طاعة
القائد.. لكن لماذا كان السؤال يتكرر كثيراً؟

وتحرك البلتاجي يمشي فمشيت.

في الحجرة التي كان نورها ضعيفاً أحسست بالاختناق. فطلبت مصباحاً آخر أكبر، واندثشت من عدم إدراك البلتاجي لضعف الضوء هو الذي يبدو شحيح النظر. استلقيت على سريري أفكر ما الذي أشعر أنه ينقصني الليلة. التليفزيون؟ استطيع أن أنزل إلى بهو الفندق. لقد لحثت جهازاً، ونحن ندخل عاندين، بعد أن تناولنا طعامنا في مطعم صغير خلف الفندق. لكن أي نزل؟ هنا استطيع أن اجلس بينهم؟ باكستانيون أو أفغان أو أتراك.. مسلمون ومن كل البلاد، فالمدينة لا يدخلها غير المسلمين، لكن ما يدريني أن الآسيويين سيجلسون صامتين. قد ينكلمون ويتقافون بكلماتهم السريعة ويفسدون جلستي أمام الجهاز. لأبقى إذن في الحجرة. وسألني البلتاجي:

- كم صار لك في الملكية؟

- ثلاثة أشهر تقريباً.

- هل تعمل عملاً ثابتاً؟

- لا أفهم ماذا تقصد.

كان مشغولاً بأعداد كويين من الشاي بجهاز كهربائي صغير أخرجه من حقيبته. لم يرد إلا بعد أن انتهى ورحنا نشرب الشاي:

- اقصد هل تعمل بعقد رسمي أم مشي؟

- تعاقدت قبل حضوري، لكن كيف تعمل هنا بلا تعاقد؟

- يتسم واجاب:

- كان عليك أن تدرك ذلك وحده. ألا ترى معي عدة الشاي؟

وأشار إلى الحقيبة الملقاة جوار الحائط، وقال:

- فيها كل ما يلزمي. صغيرة كما ترى ولكن تحوي الكثير.

وقام وفتحها، وأخرج منها مرتبة تمتليء بالهواء فتصلح للنوم، ولحافاً يمتليء بالهواء أيضاً ويدخل الإنسان فيه ويغلقه حوله بسُسُت في الجانبين، وأشياء أخرى كثيرة، وقال:

- جئت في عُمره منذ عام ولم أعد إلى مصر. لقد وجهوا إنذاراً لكل من يحمل هنا بلا عقد رسمي، أن يصحح موقفه قبل شهر رجب الماضي.

- لماذا إذن لم تتعاقد قبل الموعد؟

- لأنني قد أسافر في أي وقت.

وسكت. ولا بد أنه أدرك ارتباكِي، فقال:

- كان من السهل أن أتعاقد قبل القرار الأخير. الكفلاء يحبون هذا النوع من العمالة الذي لا يترتب عليهم أي حقوق للعمال. بعد القرار صار خطراً على الاثنين معاً العمل دون تعاقد، لكنني لم أتعاقد. ما زلت أجد الكفلاء الذين يغامرون بتشغيلي. أنا استطيع أن أقوم بأعمال كثيرة أقلها الكتابة على الآلة الكاتبة. لكن هذا ما حدث. لذلك أنا لا أسلم من المطاردة. عند وصولك إلى المطار كنت أنا ضمن المقيوض عليهم لترحيلهم لأنهم يعملون بلا تعاقد رسمي، لكنني استطعت الهرب. كل مرة يتم القبض علي استطيع الهرب.

تأملته في غاية الدهشة. قلت:

- كل هؤلاء الذين كانوا محاصرين برجال الشرطة مقيوض عليهم؟

- وأكثر منهم كل يوم يتم فرحينهم.

وسكتنا قليلاً ثم قال:

- لا بد أنك ستسألني كيف استطعت الهرب.

قلت في أسي:

- ما يدعشني كيف وأنت الشخص الذي يبدو مثقفاً متعلماً،

تقبل لنفسك هذا الوضع الصعب.

وكأنما كُتِبَتْ لي هذه اللبنة في لوح القدر. لقد أحسست حين وضعت قدمي على سلم الطائرة في طريقي للمدينة، أنني سوف أرتاح قليلاً من خوفي الباهظ من تطور الأمور مع واضحة، تركتني أمسك يدها بين يدي في الدرس التالي ليوم رؤيتي لجدتها. قالت فجأة لماذا تعاملني بهذه القسوة؟ وكنت أنا أرفع صوتي بلا سبب في الحديث كأنني أود تنفيرها من الأمر كله. ربت عن ظهر يدها ففركتها فأخذتها لتنام بين راحتي يدي، وأحسست كأن بينهما عصفوراً صغيراً يود لو ينتفض فلا يستطيع. عصفور دافئ ينبض الدم متسارعاً في عروقه. حالفتني الحظ وتركت يدها في اللحظة التي سبقت دخول خالد البيت. لم يقابلني حين ذهبت. كان عائداً لفوره من رحلة قصيرة للرياض. لم يدخل إلينا قط في أثناء الدرس. فعلها اليوم ودخل يصافحني فارتعشت كما لو كان رأني بالفعل. احتجت إلى وقت حتى استجمع انفاصي بعد أن خرج. وكئنّها كانت تعرف، كانت تكتب وتبتسم من خوفي وارتباكي.

لماذا حقاً لا أستطيع الابتعاد، ولا أطيع الاقتراب من واضحة

بنت سليمان بن سبيل. إنها أصغر من كل هذا العناء. واضحة بنت سليمان بن سبيل عادت سيرتها الأولى. اليوم ضُبطت متلبسة مع المصري اسماعيل خضر موسى. وستُرحم وستُرحم. لن يُرحل من البلاد. سيُلقى به من طائرة إلى صحراء الربع الخالي. مصري ملعون مثل رئيسه الذي يدعو عليه المسلمون ليل نهار أن يموت لأنه وطئ القدس بقدمه المدنسة، وجلس مع اليهود الذين أمرنا الله أن نقتلهم حيث نثقهم. يا أرحم الراحمين. يا صالح سنيور الثقيفي أغثني بفيلم آخر. وذهبت إلى صالح، وكان غالب وحده الموجود، وكان بيكي، وصالح يسبه، يا صالح إنه ولد مسكين هزلان فقير معزوق الثياب. يا أستاذ أنت لا تتدخل، هذا الملعون لا مسكين ولا فقير. هذا مصاب بزهري يا أستاذ. انظر إلى قدميه.. ملا جسمه كله ولا يقول الكلب. لقد مرقت كل الشرائط وما هي الكوام أمامك ورفعت الفيديو والتلفزيون من الغرفة. هؤلاء الأوساخ يريدون قتلي. أخرج يا أخا القحبة، وغالب بيكي بحرقه. وصالح يدفعه أمامه بعضاً صغيرة حتى لا يلمسه ولا يلمس ثيابه ويعود يكلمني. هذا طرده أبوه من المنزل حين عرف القصة. حطم التلفزيونات السبعة التي في بيتهم وحطم أجهزة الفيديو. أبوه مجنون اشترى لكل ولد من أبنائه تلفزيون وفيديو حتى لا يتنافسوا ولا يتهاوشوا. المشكلة يا أستاذ إن هذا الكلب لا يكتفي بالأفلام الجنسية، والزهري يا أستاذ مرض خطير. هل لا تعرف ذلك؟ اعرف يا صالح وهما هنا يبدأ الدرس. لا درس اليوم يا أستاذ. لا تخف. راتيك محفوظ. من قال يا صالح إنني أستطيع أن آخذ راتياً بلا عمل؟ ومن قال يا أستاذ إنني احتاج الدرس. أنا أنجح. يأتي المدرسون قبل الامتحانات إلى مخزنتنا، يأخذون البطانيات واثواب الحرير

والصوف وأنجح. لا تنتظر إلى عمري. أنا أرسب بإرادتي. بإرادتي لا أذهب للامتحان. أعطي المدرسين ما يريدون وأخذ ما أريد ولا أذهب للامتحان. أبي رجل حمار يأتي لي كل شهر بمدرس فأطرده. أنت أحببتك وسأطلب من أبي أن يعطيك راتباً أكبر بشرط أن لا تدرس لي يا استاذ. اجلس نتحدث في أي شيء إلا الدرس. ومشيت والظلام فوق الدنيا أكثر من كل وقت، وركبت سيارتي ولم اتنيه للطريق الذي اخترته، ورأيت المنزل الموقوف به سيد الغريب مظلماً كله خارجه وداخله، ومغلق الأبواب والنوافذ، ولا صوت إلا صوت زواجات النخيل العالي يحركها الهواء برتابة. ومشيت فوجدت نفسي في شارع ضيق لكنه مضاء بمصابيح صغيرة أعلى أبواب البيوت، ورأيت غالب في أحد الأركان ممدداً، وقد أسند ظهره إلى جدار بيت قديم، ومد ساقيه على الأرض. وحوله وفوق ساقيه تتقافز القطط، فانحسست بالقرب من كل شيء، وفي البيت لم أوافق سعيداً ووجهياً واستمر في المهزلة. قلت لوجيه ما كان عليك أن ترشحني للدرس مثل هذا الولد، وقلت في المدينة انس فقابلي البلطاجي. قال: هنا يا صديقي اسماعيل تقذف المطارات بالأحلام والمنى تتدحرج أمام أرجل القادمين قريية جداً من أيديهم لو انحنوا. كل شيء في الدنيا نجده هنا. لعب أطفال هونج كونج جوار بيض رومانيا الشيوعية وملابس تايوان انقذرة جوار دجاج بلغاريا الشيوعية أيضاً وعطور باريس جوار ساعات كوريا الزيفة واليابان القوية. هنا تبيع كل العملات وتشترىها كما الشهيقي والزفير. هنا شرطة أيضاً للجرائم الصغيرة. أما الجرائم الكبرى فغالباً يحترقها الظلام. هنا نهر متدفق سيال لا يعترضه جندل ولا شلال. نهر من المكاسب فقط عليك أن تختزل من عموك بعض أعوام تنسى فيها أن يكون لك

صديق. أن تحب أحداً وأن يحبك أحد. أن تكون مثلي راضياً بكل شيء ولا تفكر حتى بما تأكل. جينة شيدر من استراليا أم جينة حلوم من قبرص. لحم ضأن من الأردن ثم ضأن محلي بلا طعم. أنا بجل وقف عند فكرة فوقفت الدنيا أمامي. كان ذلك منذ زمن بعيد جداً. قبل ثورة يوليو، حركة الجيش، وكنت نم انتة بعد من دراسة القانون بالجامعة. قامت الثورة وأنا في السجن فأخرجوني كما أخرجوا كل الوضنيين، لكنهم عادوا وأخذوني عام ١٩٥٤، وكنت انتهيت من دراستي وتزوجت، وقالوا إني من الإخوان. وأخرجوني بسرعة حين عادوا إلى ملفي عندهم. ملف الملكية الذي تسلمته الجمهورية الفتية. وعادوا وأخذوني عام ١٩٥٦ لأشهر قليلة وقالوا شيوعي، وأخرجوني قبل العدوان بأيام، فذهبت أقاتل في القتال، وعدت بعد الحرب وسُلمت سلاحي. تعرف؟ قليلون هم من سلموا سلاحهم. الكثيرون باعوه أو هربوه. وعادوا وأخذوني عام ١٩٥٧ ولم أخرج بعد ذلك إلا عام ١٩٦٤. رأيت ابني الذي صار عمره تسع سنوات، وأبنتي التي صار عمرها سبعة وأخذوني عام ١٩٦٦ وأخرجوني بعد النكسة بشهور وأخذوني عام ١٩٧٠ وانتهى دور جمال عبد الناصر معي وتسلمني السادات الذي أفرج عني وعن غيري وتركتني في الشوارع أربعة أعوام ثم أخذني عام ٧٥ في أول أيام السنة وأخرجني بعد ثلاثة أشهر ليأخذني عام ١٩٧٧ ليخرجني وأخرج أنا من مصر كلها.. هل كنت أحتاج حقاً إلى كل هذا الوقت لأكره الوطن؟ أم فقط جئت لأن زوجتي خزلت الشقة إلى روضة أطفال استعاضت بهم عني، وعن ولدنا الذي يعيش في السويد الآن، وبنفتا التي تزوجت مدرساً معارفاً إلى الجزائر؟ أنا لا أعرف لماذا أتيت إلى هذه البلاد دون غيرها. كنت أدخل وأخرج من

السجون أكثر قوة رغم كل ما، لعلك سمعت عنه، من مأسر بالسجون. زوجني فقط هي التي انكسرت. تدهورت وشابت بسرعة وشاخت. المرأة كالأرض بلا ربي تتشقق. لا نسألني لماذا لم أسافر الى أوروبا كما فعل الكثيرون، ولا لماذا لم أذهب الى بلاد عربية أخرى وأخذ صحيفة وأذاعة وأستم؟

وبكى. ولم يتوقف «ما زوشي غبي يستمرىء العذاب. رفضت أن أتعاهد مع أحد لأظل معرضاً للترحيل. مريض أنا، متفوق في مرضي، يستحيل علاجي.. أم تتراني أود فعلاً أن يعيدني الى بلدي أحد. أن يجبرني أحد على حب البلاد؟ لم أكن شيعياً أبداً يا أخ اسماعيل ولا طبعاً كنت من الاخوان. بالقوة ادموني السجون فقط لأنني بدأت حياتي بحب الوطن».

وأجهش في البكاء بصوت عالٍ. فقامت من فوق سريرى مرتبكاً وجلست جواره فوق سريرى.

- هَوْن عليك يا أستاذ كامل.

- هل تعرف لو عرفوا عني شيئاً هنا كم سيفأ سُبُجري فوق عنقي؟ هنا النملة لو شربت من طريقها ستجد فوقها ألف قدم. هنا لو أذن الديك قبل الفجر ما رأى فجراً بعد ذلك ولا صباح. هنا لافئة (انت فوق الجحيم). لقد فعلها السادات وضيعنا جميعاً معه رجل واحد أضاع أمة. أي قطع؟

لم أسمع البلتاجي بعد ذلك إلا قرب الفجر. نمنا واحسست قبل النوم بتعب لم أعهد. اختلط أذان الفجر الذي يقطنني بنحيب

مكتوم لم أتبع مصدره إلا بعد لحظات، ولم استطع النهوض للحديث معه مرة أخرى. خشيت أن أخجله، وظللت على وضعي نائماً وعلى انتظام أنفاسي. تذكرت ما فكرت فيه قبل أن أنام. القصة لها جوانب خفية لم يدل بها. ثم ما الذي حقاً يجعله يشعر كما لو كان هو الذي يقفز من القطار تحت العجلات كلما قرأ رواية مالك حداد؟ لقد تمنيت لو حدثني في الرواية مرة أخرى. وبدت لو قلت له اني كنت مشروباً صغيراً لكاتب للقصة أيضاً إلا اني نسيت. علقتني رسالة أبي في الدنيا بين السماء والأرض، وابتلع القضاء كل الكتب والأوراق والأقلام. لكنه داهمني بحكايته. ياله من عاجز مسكين! ان أعظم ما أودعني الله هو النسيان. لولا نعمة النسيان لصرت مثله فلكل منا سجن ضيق فيه شيئاً عزيزاً حتى ولو لم يطل سجنى.

ونمت من جديد ورأيت. الديك الضخم رأسه هناك في الأعلى وعُرفه في السماء السابعة وجسمه ممتد الى الأرض وجناحاه يملآن فضاء الدنيا بالألوان الزاهية، ثم راح يضرب بجناحيه الهواء فتهب رياح وأعاصير ويصير برد ثم يسكت فيصير حر ويعود يخفق بجناحيه فيندفع الهواء البارد يكاد يجمدني أنا الذي أنظر اليه من أسفل في فزع ثم يسكت فأكاد أغرق في بحر العرق وأموت وأحس كما لو أن أحداً يمسك براسي يضعه في برميل ماء فاخترق واضرب بذراعي الهواء وفي اللحظة التي تكاد فيها الروح تُفَرُّ مني يرفعني فتواتر أنفاسي ويصبح الديك كوك كوك كوك كوك سبحان الملك القدوس كوك كوك كوك كوك سبحان الملك القدوس وإذا برأس الديك يسقط فوق صدره ويندفع الدم يملأ الفضاء بلون أحمر وتغرق الأرض في

الاحمرار وأسمع ضجة في الخارج، فاصحوا فزعاً فلا أجد البلتاجي
ولا حقيبته. ترك لي فقط رواية (ليس في رصيف الأزهار من يجيب)
وبصوت عجالات القطار.

١٣

هنا يمكن للإنسان أن ينسى كل شيء. أدرك ذلك جيداً. الوقت
المترهل مثل الوقت المرحوم. الإنسان يفرقائك.

كان عليّ صباح وصولي إلى تبوك أن أبدأ في تحرير استمارات
الضمان الاجتماعي التي أحضرتها من المؤسسة الرئيسية في
المدينة. لم أبق في المدينة غير نهار اليوم الثاني. ذهبت في صباحه
إلى المؤسسة وأخذت الاستمارات، وفي مساءه أخذت الطائرة
عائداً.

كثيراً ما فكرت أنني سأصطدم بالبلتاجي مرة أخرى في الطريق،
وربما في المطار، لكن هيهات. كأنما كان حُلماً. والآن وأنا جالس في
غرفة مكنتي أملاً خانات الاستثمارات ببيانات العمال لا يفارقني
وجهه. ووجدت نفسي أتوقف عن العمل. أقف وأبتعد عن المكتب،
والدور في الحجرة أعصر ذهني، لا أتذكر أين رأيت وجه البلتاجي من
قبل. في الصحف. أجل في الصحف المصرية. كان ذلك منذ سنة..
سنتين.. ربما ثلاث. لا أتذكر بالضبط. ورأيت أكثر من مرة. في أي
صفحة ولاي سبب؟ لا أذكر.

وعدت أجلس إلى مكنتي غير قادر على مواصلة العمل. مكتوب

إذن أن أنسى هذا الرجل مرتين «تبوك تنسيك امك وأبوك» مثل حقيقي هنا. لا يحتاج المرء إلى أكثر من يوم واحد من النسيان ثم ينسى إلى الأبد. لا أحتاج إلى أكثر من دقائق مع منصور حتى أنسى كل شيء إلا منصوراً. دقائق مع نبيل فأنسى كل شيء إلا نبيلاً، أو أرى ذلك ومندثر. نظرة إلى اليميني الذي سيأتي في موعد يحرك السواك في فمه، أو موقف سخيف من عابد. لكن تبوك كانت أكرم. أضاء باب الغرفة بوجه متائق وشعر أشقر حرير وعينين زرقاوين باهوتين. امرأة سافرة الوجه، تقف بالباب، تنظر إلى بابشامة وأثقة. امرأة حقيقية تريدني بنظرون الجينز الضيق وفوقه بلوزة حمراء الياقة ويلوفر أزرق. وعلى كتفها ظهرها شال أبيض. ووجدت نفسي أقف.

- غورد مورنغ.

قالت ودخلت وجلست أمامي وسألتني ما إذا كنت أعرف الانكليزية. كل ذلك في وقت واحد تقريباً. ولم تكف عن النظر إليّ باتساع باهر في عينيها. بدا أنها تكاد تضحك من ارتباكها وقالت إنه يمكنني أن أجلس، واكتشفت أنني ما زلت واقفاً فجلست، وسألتني أن أطلب لها فنجاناً من القهوة من مستر نبيل. تعرف نبيلاً إذن.

وتساءلت هي.

- أين مستر عابد؟

- في مكتبه.

- ليس هناك.

- لا بد أنه خرج لأمر سريع وسيعود. هل من خدمة أؤديها لك؟

وظهر نبيل عند الباب يتسّم. ويقول بدهشة، مصطنعة، وبصوت تمثيلي عال:

- أوه مسروراً!

ضحكت هي، وابتسمت أنا، ودخل هو يصافحها. أعطت يدها دون أن تتحرك، فأتقاها قليلاً في يده وهو يخاطبني:

- روز ماري زوجة مستر لاري. أجمل أجنبية في البلاد.

ترك يدها، ففمرت لي بعينها، وهزّت كتفها وسألتني عما يقول. ترجمت لها الكلام فضحكت وقالت:

- لأنني المرأة الأجنبية الوحيدة هنا.

ابتسمت وبدأ لي الأمر سهلاً. هذه سيدة بسيطة تعطيك الإحساس بالآلفة. وسألت نبيلاً أن يعد لنا فنجانين من القهوة، ما كاد يخرج حتى فكرت كيف تعرف نبيل حقاً. مضى عليّ ثلاثة أشهر هنا ولم أرها. هل تأتي في موعد آخر بعد مواعيد العمل؟

- هل أنت جديد هنا مستر...؟

- اسماعيل. لي ثلاثة أشهر هنا.

- أسفة لم أرك. لقد سافرت إلى أمريكا الأشهر الثلاثة الماضية.

- هل تعملين هنا؟

- مستر لاري زوجي هو الذي يعمل. العمل ممنوع بالنسبة لي. أعمل بشكل خاص وبشري في حضانة مستر عبد الله.

- لا أعرف أن لمستر عبد الله حضانة.

- له حضانة مشهورة بالبلدة تدبرها زوجته. كيف لا تعرف ذلك؟ وضحكت فأجبت:

- ربما لأنني أعزب.

واستمرت تضحك. وقالت إن زوجة مستر عبد الله ضخمة جداً رغم أنه ضئيل للغاية، وهي لا تكف عن أكل اللوز طول النهار، مع أن هذا خطر جداً على الصحة. ويدخل نبيل بالقهوة وقبل أن يخرج سألها

- أميركا إذ غود روز؟

- غود نبيل. فيري غود.

وضحكنا ثلاثتنا ثم خرج نبيل الذي أحمر وجهه بشكل لافت للنظر. مضى وقت طويل ونحن نتحدث. حاولت هي أكثر من مرة الانصراف، وأنا أشجعها على انتظار عابد، فتستمر جالسة، وأتمنى أنا أن لا يعود عابد، ولا يدخل مكنتي أحد، وإذا بالساعة صارت الواحدة، ولم أظن حتى لإبتسام انيمني الذي رأيته فجأة فتذكرت أننا لم نتبادل الابتسام اليوم، وتبادلناه على الفور، وإن بعابد يقف بالباب.

- هالو روز.

هتف وهو يدخل يصافحها، فصافحته وهي جالسة، ولحنت الضيق على وجهه، وقال:
هلاً أتيت الى مكنتي؟
وقفت وقالت:

- لا بد أن أذهب الآن إلى الكامب. ليس لدي وقت أكثر من ذلك. أحبيت فقط أن أراكم.

وانطلقت خارجة بعد أن صافحتني، ولوحت له بكفها، وسألني عابد فجأة.

- ألم يسأل عني أحد؟

- روز.

لا أعرف كيف قلت ذلك. نظر إليّ شزراً، وخرج إلى غرفته، وأنا أشعر بالأسف الحقيقي على أجابتي بهذا الشكل الذي لم أحط له.

على المكتب الاستثمارات السخيفة التي كنت أملأها وأريد أن ألقى بها كلها في الباحة..

روز ماري اسم جميل بحق. لا يزال في الغرفة شذا عطرها. يا الهي! كم هي خفيفة كريشة منتشية، كعصفورا مجنونة صريحة دهشت لكل أجاباتي. خريج فلسفة، ويعمل مدرساً للغة الانكليزية في مصر، وهنا مسؤول عن شؤون الافراد! أي خلط! لكن هذه حالتي بالضبط وأنا فيها غير متفرد بين المصريين. ستجدين هنا عمال محارة وقيشاني من حملة المؤهلات العليا. هذه حالة مؤسفة لكن هذا ما يحدث على كل حال. ولم أشأ الاستطراء. هذا وقت الانكشارية فيه طُرِدَت مهن الدرجة الثالثة والرابعة العقول وساققتها أمامها بسياط السخرية. ميزان العدل مختل في بلادنا، ولعله كذلك في بلادكم والاماناً جئتم! لنا عذرنا وليس لكم العذر. البترول سيد هذا الزمان يقف عند باب حدودنا الشرقية والغربية ويقول أرض مصر أرض حرام. مؤامرة جغرافية. هل يصدق ذلك أحد؟ أنا أصدق. فالمؤامرات تحدث دائماً ببلادنا. وان لم يفعلها العدو نفعلها نحن. لدينا والة وقت كثير لذلك. ولدينا صحف ومجلات

وإذا عات تجعل الأسود أبيض والأبيض أسود أو عديم اللون والطعم والرائحة. ولم أقل شيئاً من ذلك، تذكرت فقط كامل البلطاجي، لكن قلت: «أنت كما تقولين خريجة اجتماع وتعملين هنا في حضانة أطفال بشكل سرّي، لا تختلف كثيراً أذن». قالت إن زوجها خبير كبير، وكانت تضحك وتحداني كأنها تعرفني من قبل، وقالت إنه هو الذي دفعها للعمل بالحضانة لأنه ممنوع أن تعمل، فلا هي طبيبة ولا مدرسة ولا معرصة. ثم لآنت وقالت إنها تقدرني ولا ترى يوماً علي، وقالت إن حلم حياتها أن تقوم ببحث عن حالة الأعراب في البداية الآن.. عن التغير الذي يلحق بسكان البوادي، لكن السلطات لا تسمح لها لأنها غير مؤهلة من أي جهة علمية. لذلك سافرت إلى أميركا واستطاعت أن تأتي بـ خطاب من جامعة شيكاغو إلى السلطات لتسهيل مهمتها، ولم تدرك أنه ستقابلها مشكلة أخرى. طلبت السلطات أن يكون معها «محرم» في تحركاتها، ليس من المعقول أن تسافر امرأة وحيدة بين البوادي، ومستمر لأري لن يترك عمله ليفعل ذلك، والوحيد الذي يمكن أن يساعدها هو «جورج»، أخوها الذي لم يوافق على الحضور من أميركا للعيش في بلد تجل فيه الناس بسبب الخمر. ضاعت منها الفرصة إلى الأبد. هل رأيت البداية هذا؟ سألتني. لا. رأيت شحاذاً نزل البلدة في يوم عيد، لم أقل ذلك. ودعيتني لزيارتها وزوجها في «الكامب». لماذا حقاً وجهت لي هذه الدعوة ولم يسبق أن عرفتنني من قبل؟

رأيت اليميني جالساً والسواك في فمه، ورأيت بسعته اليوم

أجمل، والشمس كانت بيضاء تغطي الدنيا بدفء جميل، لقد بدأ البرد يشتد بالليل هذه الأيام، وصارت الشمس تصحو معنا مرهقة تصعد إلى السماء في مهل، ولا يبدو أنها امتلكت الفضاء إلا عند الظهيرة. لكن البرد بالنهار ليس قارساً عن أي حال. تركت مكتبي والبهجة التي تركتها روز في الحجرة لا تزال تضحك في وجهي، ودخلت البوقية فوقف نبيل فزعاً.

- لقد خرج عابد إلى البلدة. كيف ستجلس هنا؟

- ما الذي يمكن أن يحدث. تليفون غبي لطلب أكثر غياب. هل لديك مقعد آخر؟

كان حين دخلت يجلس على المقعد الوحيد، يقرأ في مجلة «الوطن العربي»، ويوشك أن ينكفيء على الصفحة. أدركت أنه ضعيف النظر كثيراً. قال:

- اجلس أنت على هذا المقعد وسأجلس أنا على الأرض.

تكلم واقعي في الحال، والمجلة لا تزال في يده. جلست وقال:

- بوقية على قد الحال. لا تلمني.

كان البوقية صغيراً للغاية وقدرراً، يذكر بك ببوقيات المصالح الحكومية في مصر. دولاب معدني صدئ صغير معلق على الحائط بلا أبواب، وعلى أرففه الثلاثة علب وبطرمات للشاي والسكر والقهوة، وتحت الدولاب بوتغاز مسطح فوق منضدة خشبية. يبدو أن نبيل هو الذي صنعها من خشب قديم غير مهذب، وعلى المنضدة أكواب وفنجانان. وفي الركن الآخر من البوقية ثلاثة «مستنق» هاوس، كبيرة بيضاء.

- شيء غريب يا أخي! يهتمون السادات شتيمة فظيعة. كل
المجلات هنا تشتم السادات.

- هل تحب السياسة؟

- أبداً عابد يهتمري المجلات ولا يقرأها فاقراها أنا.
ضحكنا وعاد يتكلم:

- يقولون إنه سبب حرب لبنان، وضياح فلسطين، وعمل
للأميركان. أنا أعرف أنه عميل للأميركان. كل شيء في مصر أصبح
أميركانياً. ثلاجات وغسالات وملابس. أنا مثلاً لن أشتري شيئاً من
هنا لأن كل شيء هناك - وسكت لحظة ثم ضحك وضرب جيبه بيده
- إنهم لا يقصدون ذلك. عميل يعني جاسوساً.

وضرب الأرض بالمجلة وتركها ووقف يسألني:

- تشرب شاي؟

- قهوة.

أجبت وأنا أضحك، وتناولت المجلة أقلب صفحاتها بينما
انشغل هو بإعداد القهوة التي قدمها لي وقال:

- الغريب أنك حين ترى السادات في التلفزيون يصعب عليك.
يذكرك أحياناً بفؤاد انهندس.. أي وأله.. لكن.. فلسطين ضاعت
من زمان، وحرب لبنان قائمة من زمان أيضاً، أمعقول أن السادات
هو السبب؟ بلا سياسة.. بلا نيلة.

وتناول المجلة التي كنت وضعتها على الأرض، ومزقها ووضعها
في سلة المهملات، وأنا أضحك حتى دمعت عيناي. وسكتنا طويلاً
حتى قال:

- والدي الله يرحمه كان له في السياسة.

- أبوك؟

- أظن المسألة واضحة يا اسماعيل.

ضحكنا وأنا لم أكن أقصد شيئاً، أدهشني حضور بديهة
وطريقته في الكلام اليوم.

- زمان. زمان جداً. كان أبي من الإخوان الذين اشتركوا في
حرب فلسطين. عاد مقطوع الذراع والساق. أي وأله. الساق
اليمنى والذراع اليسرى. شيء لن يصدقه أحد. لكن هذا ما حدث
- وبدأ جاداً فجأة - كان سبباً في تعاسة الأسرة. لا عمل ولا قدرة
ولا أحد يسأل. قامت الثورة ولم يبق للإخوان قيمة. هكذا كان يقول
أبي. وهكذا حدثتني أمي فيما بعد. أنا ولدت يوم قامت الثورة.
اليوم نفسه. لا تسألني كيف استطاع أبي ذلك فأنا أشبهه تماماً
وأكثر أخوتي شبيهاً له. صورته لدينا معلقة للآن. كان لي خال
مجنون يساعدنا ويأخذني إلى الإذاعة في عيد الثورة، بعد أن
أصبحت قادراً على المشي والكلام. كان هناك أطفال كثيرون يذهبون
في اليوم نفسه. أطفال كثيرون جداً ولدوا يوم الثورة. كانوا يذهبون
أسماءنا ويعطون كل طفل باكور شيكولاته ونصف جنيه. أمي قالت
جنيه. كان خالي يأخذ الفلوس ويعطيني الشيكولاته. ما علينا. لا
تضحك من فضلك. هذه حقائق وليست قصصاً. صدقني. جاء يوم
كان أبي كهاده ممدداً في حوش البيت الواسع يتشمس. كان
انهار يطلع فيخرج اخوتي الأكبر مني للعمل، ويخرج أمي إلى
السوق. ويزحف أبي إلى حوش البيت، وأنا لعب حوله. بيتنا قديم
جداً من أيام المماليك. حجراته واسعة تسكن في كل حجرة أسرة

كاملة، والبيت بوابة ضخمة لها ضلفتان من جذوع الأشجار الحاطة بالحديد. بوابة مفتوحة لا يمكن لأحد أن يحركها لأن التراب علا حولها من أسفل. تصور أنه فوق البوابة توجد سورة الفاتحة منحوتة في الصائط بلون أزرق باهت وتحتها خان السجقدار... ولا يوجد اسمه. يوجد فقط اسم الذي بنى البيت المعلم محمد إبراهيم وولده إسحق ويحيى. هذا مكتوب على البوابة.. لقد تركنا هذا البيت بعد ذلك وسكنا في شقة مستقلة في الحي نفسه. حي المذبح بامبابه. كُنْزْنَا بصرنا رجالاً. ثلاثة أخوة وأربع أخوات. واحد من أخوتي في السجن الآن. كان موظفاً بالبريد واختلس فلوس التوفير. أي والله لا تضحك. (نعود إلى أبي). في ذلك اليوم الغريب جداً دخل حوش البيت جمل هائج. جمل عالٍ كأنه قطار. داس فوق أبي الذي لم يستطع الحركة ولا الصراخ. ربما صرخ ولم يخرج صوته. أنا كنت في طرف الحوش أصرخ، والجمل يدوس فوق أبي مرة ومرة ومرة. يتراجع ويهجم على أبي رافعاً ساقيه الأماميتين، وأرى خفيه عريضين أسودين يدوس بهما على أبي الذي يرفع ذراعاً واحدة لا تصل إلى عنق الجمل وساقاً واحدة لا تصل إلى بطنه. لقد خَرَجَتْ النساء من الحجرات، والأطفال، ووقف الجميع يصرخون. لم يكن هناك رجل واحد. كل الرجال كانوا قد خرجوا يعملون في المذبح القريب. وفجأة قفز إلى الحوش خمسة من الرجال معفرين منكوشي الشعر كأنهم الجنون الحمر يسكرون حياءً وسواطمٍ وسكاكين، لكنهم وقفوا مذهولين. كانوا هم أصحاب الجمل، وكان الجمل يتعد عن أبي على خطفه زَيْدٌ كثير، وأبي سَكَنَ ولم يعد يرفع ساقاً ولا ذراعاً. وقف الجمل يتنفس متعباً، ثم أناخ بهدوء على الأرض والرقاء على خطمه ينثال على التراب ثم مَدَّ عنقه

كمن ينام وانقلب على جانبه، والرجال الجنون الحمر تقدموا منه بحذر، وعقروه من رقبتهم، وجروا إلى الخلف، لكن الجمل لم ينهض ولم يهتج. فقط رفس رفسين وسكت مثل أبي.

وسكت نبيل طويلاً. أطارق ينظر إلى الأرض بخفي دمعاً يحاول الانسياب، ثم رفع إلى وجهه وهو يمسه بكفيه، وأبتسم وقال:

- عملت بنصيحتك. لم أرسل لقطييتي شيئاً هذا الشهر. لم يصنني منها خطاب بعد. أيضاً لم أرسل لأمي ولم يصلني منها خطاب.

عدت إلى حجرتي أشعر أن شيئاً ثقيلاً فوق كتفي يكاد يحني ظهري. وكأن اليمني الجالس في الشمس ينتظر نظرتي ابتسم. لم ابتسم وكادت اقترب منه. أود لو صرخت فيه هاتفاً: لماذا تخايلني كل يوم بابتسامتك البلهاء؟ من الذي أعطاك حق الجلوس بلا عمل؟ ماذا تعرف هنا عني حتى تبسم لي؟ لكنني دخلت الغرفة وسمعت صوت سيارة تدخل الباحة بسرعة. ليكن من يكون فيها. لديّ اجابة جامزة على السؤال السخيف. لم يتصل أحد يسأل عن شيء في غيابك يا عابد ويا عم عبد الله. لكن الذي دخل الغرفة كان عابداً ومعه شاب مصري يرتدي بذلة أنيقة، وله وجه حسن، وتظارة بيضاء، وشعر أسود مهذب، ويحمل حقيبة سمسونائيت لامعة.

لم يسألني عابد عن شيء. جلس خلف المكتب المجاور للخازنة، وجلس الشاب الأنيق أمامه، وجلست أنا إلى مكثتي.

- الأستاذ اسماعيل. زميلنا.

قال عابد للشباب الذي قام يصاقطني بدماسة ثم جلس.
وخطبني عابد:

- الاستاذ عيد الحميد مندوب بنك الدلتا جاء إلى هنا لترويج
سندات بنكية، هل تحب الاشتراك فيها؟
- ليس الآن.

- أنا كنت أعرف - وخطب المندوب - أنا سأفترى عشرين ألف
دولار.

قال ذلك ونظر إليّ، وفتح المندوب الحقيبة يخرج أوراقه فقامت
وتركت المكان كله. كان عابد بالبلدة ويستطيع إنهاء الشراء هناك،
لكنه أتى بالمندوب ليرى ما تصور أنه إهانة من روز ماري التي
جاءت تسأل عنه فجلست معي، ووجهت لي الدعوة أمامه، ولم
تذهب معه إلى حجرته.

أخذتني قدماي إلى الجراج. ورآني أرشد ونحن نشرب الشاي
أحملق في طبعة جريدة (الشرق الأوسط) الانكليزية الموضوعة على
المنضدة بيننا.

- لا عليك مستر اسماعيل. هذه مشاكلنا في باكستان.

قال ولم يأخذ الجريدة ولم يعتذر عن وجودها في العمل. لم يعد
يخشى جانبي. في الجريدة مقال يشغل مساحة كبيرة عنوانه «الراي
العام يضغط من أجل انقاذ بوتو». وكنت أعرف من الصحف

والاذاعات أن بوتو ينتظر محاكمة ثانية بعد أن قدم التماساً بإعادة
النظر في حكم الاعدام. قال:

- ضياء الحق يطبق الشريعة الإسلامية الآن. إنه يستجدي
المملكة السعودية مستر اسماعيل.
سألته.

- هل تعتقد أنه سيعدم بوتو فعلاً؟
اجاب:

- سيقطله. ولو استطاع أن يقتله مرتين لفعل مستر اسماعيل..
ورأيت نبيلاً يدخل مضطرباً إلى الورشة يخطبني:
- تعال بسرعة. عم عبد الله يسأل عنك.

سبقني في العودة ومشيت خلفه مسرعاً. أصابني يعبوى الهلع
الذي كان في عينيه، لكنني فكرت هل يتصور أرشد أنني مهتم
بالسياسة إلى هذا الحد. وفكرت أيضاً كيف فسد اليوم كله.

اشتد البرد. اليوم هو الثاني والعشرون من ديسمبر. في الصباح نجد المياه في الحنفية مجمدة. هذه حالة لا تحدث إلا في البيوت العربية المكشوفة التي يظل الطلّ يقام في ردهتها طول الليل. المشي في الردهة الصغيرة من الغرفة إلى دورة المياه كأنه سباحة في بحر من الثلج. التليفزيون الآن له طعم مختلف، لا يذكرني بأن الدنيا أكبر مما حولي، يشعروني بالدفع، نشاهد برامج في غرفة فاروق الخليفة.

- لسنا في حاجة إلى شريك رابع.

قال وحيه.

- نجعل غرفته غرفة معيشة.

أردف سعيد. انقطعت أخبار فاروق تماماً. لم يرسل إلينا ولم يأت له ذكر في خطابات اسرتي. ومضت ثلاثة أشهر هي مدة القبرا التي خرج بها. لن يعود.

نقلنا إلى غرفته منضدة جعلناها سفرة وبعض مقاعد وتركنا سريريه كما هو. أحرص أن يكون صوت التليفزيون عالياً وبدهش سعيد ووجيه. أقول إن موجات الصوت تراحم موجات البرد

منتديات مكتبة العرب

<http://library4arab.com/vb>

وتطردّها من الغرفة. يقولون أنني داخل على مرحلة من الجنون، ونضحك. في السادسة والنصف صباحاً أغادر البيت. أجد سيارتي امام الباب مغسولة بالندى، وكل يوم تملأ الفضاء شايورة كثيفة لا تنقشع قبل التاسعة. بعد أن أدخل إلى سيارتي مرتجفاً وأغلق بابها وأديرها أنفث بخار الماء من فمي، وأتذكر مبارياتي مع الأطفال في طريقنا إلى المدرسة. من الذي ينفث بخاراً أكثر لوقت أطول. كل يوم الآن أفضل ذلك وأضحك. اليوم اختلف. صحوت أشعر بغثيان. ذهبت إلى الحمام وبقيت فيه بعض الوقت استجيب للرجبة في القيء ولا يحدث. عدت إلى الغرفة غير قادر على الوقوف. تمددت فوق السرير وسحببت الغطاء فوقى أفكر ألا اذهب الى العمل. لكنني ذهبت. مضت نصف ساعة وأنا متردد بين الذهاب والبقاء فوصلت متأخراً.

- أين أنا؟

ورأيت أشياء رمادية وأشياء بيضاء، وميزت من بينها وجه عايدة قريباً مني.

- لا تضع يدك فوق الجرح. لقد مرّت بسلام.

سمعت صوتها. أذكر ذلك وأنا استيقظ للمرة الثانية. هذا هو الدكتور وجيهه يجلس على مقعد جوار رأسي يبذل شفقتي بقطعة قطن مغموسة بالماء وأنا ممدد فوق السرير. في الغرفة ثلاثة أسرة أخرى عليها ثلاثة رجال نائمين لا أرى وجوههم. أنا في المستشفى والوقت ليل فنور الغرفة مضاء.

- ماذا جرى يا دكتور؟
- لا شيء. دأمتك الزائدة الدودية فاستأصلناها.

- معقولة؟

- ذلك يحدث للناس كل يوم.

- أنت الذي أجريت العملية؟

- كنت تحب أحداً غيري؟

- لا. أشكرك جداً.

وأحسست بأسفي. لم أقصد من سؤالي شيئاً. وقال:

- لا تتحدث كثيراً. الأفضل أن تنام. نحن الآن في منتصف

الليل. في الصباح أحرص على أن تمشي قليلاً.

ثم وقف وقال:

- يوجد طبيب نوبتجي وممرضة. إذا احتجت شيئاً. جوارك زر

جريس اضغط عليه. هل تطلب شيئاً قبل أن أمضي؟

- أين عايدة؟

- تعمل بالنهار. ألا زلت تذكرها؟

أجاب وأنصرف على الفور ولم ينس إطفاء النور.

ظلمت فقطاً في ظلام الغرفة. أذكر الآن كل شيء. لقد وصلت الى العمل متأخراً. فأخبرني عايد يفضب عم عبد الله وكيف اضطر هو الى فتح مكتبي لأخراج دفتر الحضور للعمال، ولما سألته كيف فتح المكتب قال عليّ أن لا أنسى أن المكتب والغرفة كلها كانت له من قبل.

حاصرني الضيق وأحسست بمغص مفاجيء، والرغبة في القيء.

عاودتني، والغثيان كاد يفقدني توازني. أسرع إلى دورة المياه ووقفت أمام الحوض الفرج ما في جوتي، ولم أكن تناولت إفطاري بعد. حُبل إلي أن معدتي ستقفز من فمي، وتقصّد عرق شديد على جسمي، واشتعلت الحرارة في وجهي، ولم تعد قدمي تستطيعان حملي، فامسكت بحنفية الحوض بيديّ اللثنتين. ولم أدري بعد ذلك إلا وأنا استيقظ في المساء في المستشفى. لا بد أني سقطت على الأرض. رائدة ملعونة بحق تلك التي أخذتني بفتة بلا إنذار. هل يكون الموت مختلفاً عن الوقت الذي مضى وأنا مُحَدَّر فيه لا أشعر بشيء؟ لا أظن. الموت سهل إذن، لا أدري لماذا فكرت في ذلك الآن. ربما لأنه المستشفى الذي مات فيه فيليب منذ أيام. لقد ظلت أسرع خلف نبيل حين ناداني وأنا عند أرشد، وعند بوابة الشركة توقف وقال:

- مات فيليب. عم عبد الله حزين جداً..

ولم يقل شيئاً آخر. انحرف إلى البوفيه وتركني أتقدم ببطء إلى غرفة عم عبد الله ذاهلاً. رأيت على وجهه غيظاً مكتوماً. قال:

- سيؤلفيليب مكافأة نهاية الخدمة. شهر ونصف عن كل سنة وأخبرني كم يصير له.

كنت أعرف أن فيليب أو غيره يستحق مكافأة نهاية الخدمة شهراً فقط عن كل سنة. ولأنني أعرف أن فيليب يعمل منذ خمسة أعوام قلت:

- سبعة وثلاثون ألف ريال ونصف.

- أمّاكند؟

- أجل. كان ملفه على المكتب في الصباح أمامي أنقل منه بيانات لاستمارة الضمان.

- اجعلها خمسين ألفاً. قل على مسؤولية المدير. ثم خاطب عابد الذي كان يقف جوارِي - وانت تذهب في الصباح بالمكافأة لزوجته. تنصرف الآن لتجهيز الصندوق الذي ستشحن فيه الجثة إلى سيلان. تدفع ثمن الشحن وثمان التذاكر لزوجته وأولاده وأحجز لهم على أقرب طائرة.

- ألن يدفن هنا في الملكة؟

تسأل عابد، فصرخ فيه عم عبد الله:

- أيش يعني يُدفن بالملكة؟ لأنه أسلم؟ يدفن في بلده بين أهله. وسكت فانصرفنا وأنا أشعر بالرتاء لعابد الذي يبدو ملكياً أكثر من الملك.

دخلت غرفة مكنتي وجلست صامتاً. وإذا بمنصور الذي يختفي كثيراً يظهر داخلاً والقرود فوق كتفه، ويقول بعد الجلوس:

- هه: كان يريد الحصول على الجنسية. كان يريد البقاء في الملكة. قتل نفسه. ذهب اليوم للشيخ بالحكمة ليشرح إسلامه. انتهى كل شيء، وحولوه إلى المستشفى للختان فمات.

- ختان؟

- طبعاً. ما في ختان في مصر؟

نظرت إليه غير قادر على التخلص من دهشتي. واستطرد:

- ختان رجل مثل فيليب ليس سهلاً. عملية جراحية.

لم أكتف بما سمعت، ولم يكن أحد يعرف شيئاً آخر. في البيت

سألت وجيهاً فلم يقل أكثر من ذلك أيضاً وأنا لا اصدق. وجيه الذي لا يريد أن يوضح لي كيف مات فيليب يخفي عني أمراً. وجيه هو الجراح الأول بالمستشفى. ما يدريني أنه لم يخطئ. وتسبب في موت فيليب. لكن هل يخطئ طبيب مثله في الختان؟ لا أظن أن روح الغاوي المتعالي صاحب التميز تجد لها وسيلة للتعبير في غرفة العمليات. غرفة العمليات مثل غرفة العبادة، يعمل فيها الطبيب باخلاص في المريض الذي أسلم له روحه. أيكون وجيه سيئاً الى هذا الحد؟

صرت انظر إليه ويتحاشى هو نظراتي. لعله فهم ما أفكر فيه، ولعل ذلك هو الذي جعله يسألني اليوم ما اذا كنت احب لو أجرى لي العملية أحد غيره.

لم أستطع أن اتقبل موت فيليب بسهولة. صرت عازفاً في العمل عن الكلام. وفي المساء ذهبت الى واضحة، فقالت:

- لماذا تبدو كثيراً على غير ما يرام يا أستاذ. هل تضايقت بلادنا الى هذا الحد؟

سكتت. تأملت عينيها، فأرخت اهدابها فوقهما، لكن كان لا بد أن ترفع الاهداب. أنا لا آتي إليك إلا وروحي منجذبة للحضور، إلا وقلبي فرح جذلان. لكن دائماً ما يحدث شيء يلغني بالاختناق. وحكيت لها قصة الطبيب المصري الموقوف الذي رايت بيته في الطريق مرة. ففاض الدم من وجهها، وحكيت لها قصة فيليب. فابتسمت في خجل. قالت ذلك يحدث في كل الدنيا وستنساها. ثم قالت بغضب إنها لا تفهم معنى دخول هؤلاء الناس في الاسلام،

ولا تصدق أنهم حين يعودون الى بلادهم يحتفظون بالاسلام. تفهم هي بنت البلاد بجسها العفوي كذب الامر كله. بالضبط كما يفهمه منصور. لكنني أرى في حالة فيليب بعض الصدق ولا أستطيع الدفاع. رجل تجاوز الخمسين ولديه من الأبناء عشرة لا يكتب. رجل ضعيف يحاصره الخوف من العودة إلى بلاده دون أن يكون قد حقق ما أراد لأولاده فاختر أصعب الطرق. ينزع من جذوره.

قلت لها سأحاول أن آتيك بعد ذلك خالي البال، فابتسمت وراق لي وجهها، وعدت انظر إلى غزارة شعرها. فنتحرك في جسدي طاقة خفية، وأشم عضرها الفاعض فانكمش ويحاصرني الخوف، وقالت إنها تحب مصر كثيراً وتتمنى لو زارتها، وإن جذها يقول إن أهله في مصر كثيرون ولو سافر واحد منا إليهم لاحتقوا به. وسكتت وقالت المشكلة ان جذها لا يذكر أين يعيش أهله ولا أين كان يعيش. ثم ابتسمت وقالت مسكين شاخ وفسد. وسألته هل أعرف مصر جيداً. قلت أعرف الاسكندرية لكن لن يكون الأمر صعباً لوجاءت أن أعرف القاهرة واسوان وأي مكان. وطالت نظراتنا ثم قالت إنها تحب الافلام المصرية، وكثيراً ما لا تصدقها لكنها تندش من جمال «النسوان». وطالت نظراتنا وقلت مبالغاً أنت أجمل، وأطروقت خجلاً وقالت «الحرفسندنا يا أستاذ»، وقلت قاصداً «أراك أجمل». ورحبت اقرأ وجهها فإذا بها تشره طويلاً وتطفر على الوجه ألوان شتى من الأسى والضيق. وقالت هل تعرف لماذا تعطيني الدرس يا أستاذ؟ هل تعرف لماذا لم تلجأ لأحد المدرسين؟ باغتتني وقامت وجهها وقلت اعرف يا واضحة بل إنني رأيتك فوق العربة وتحت الشمس. ورأيت عينيها تثبتان وينسكب منهما الدمع كما لو كان ينتظر خلف الباب.

استيقظت في حوالي التاسعة. ما زلت أسمع «صوت» عصفير خارج النافذة. رأيت وأنا أفتح عيني الثلاثة الذين فوق الأسرة. كوريسون يتكلمون واليهجة في عيونهم وضجيج غريب في أصواتهم. ورأيت ألسانهم تتحرك بسرعة غريبة أثناء الكلام. ابستمعت لهم، فقالوا معاً في مرج: «غود مورننغ. غود داي إن شاء الله». ابستم مرة أخرى. ورأيت عابدة تدخل الحجرة على وجهها ابتسامة رائعة، وتتألق عيناها السوداء الواسعتان في وجهها الضمري، وتزهو ملابسها البيضاء.

وقفت جوار السرير وقالت:

- يجب أن تنهض فوراً وتمشي في الطريقة بقدر ما تستطيع.

لم أزد وبقيت أتأمل وجهها. قلت:

- أنت عابدة؟

اقتربت أكثر وقالت:

- هيا انهض. سأساعدك.

وأمسكت ذراعي تنهضني. قلت:

- سأمشي وحدي.

شفت وقالت «قتلوني يا أستاذ» واطرقت فوق المكتب فمدت يدي ومشيت بها فوق شعرها الفزير الناعم ثم نزلت بيدي إلى خدها الأسيل الذي كان مثجاً ورفعت وجهها من تحت ذقنها. لا عذاب في الدنيا يمكن أن يرسم على وجه كالذي رأيته على وجهها الصغير. وأخرجت من جيب سترتي منديلاً ورقياً ورحت أمسح الدمع وما سال على وجنتيها من كحل معه. لم أتكم ولم تتكلم ولم يكن ممكناً استكمال الدرس اليوم أيضاً. وقفنا واقتربت منها فإذ بها تفتح عينيها في انبهار وارتعشت شفاتها وانحنيت واستطالت هي إذ لا بد شئت على أطراف قدميها لكنني لحت الباب مفتوحاً كالعادة. ذهبت إلى الباب لأغلقه فأخذت طريقي وخرجت مسرعاً.

وعدت إلى واضحة أمس أيضاً فلم أجدها. قال خالد إنها سافرت للرياض وستعود بعد اسبوع. ضحك وقال إن لها حالة في الرياض كثيراً ما تشاق إليها ولا تستطيع واضحة أن تتأخر عليها. وطلب إليّ الجلوس فاعتذرت، ومشيت أفكر هل هو صادق فيما يقول أم أن واضحة أثرت الابتعاد... ها أنذا بالمستشفى ولا بد أنني سأمضي اسبوعاً أيضاً. النوم يقلب عني الآن وأسمع صوت آذان الفجر بعيداً في البلدة النائمة.

- إذن لا تتأخر.

وتركتني وخرجت.

قعت ومشيت قليلاً مستنداً الى جدار الغرف، وعدت الى السرير، فصعدت فوقه متعباً، ورأيت الكوريين يقفون في جلابيب بيضاء يحزمون حقائب صغيرة جداً. دخلت عابدة ومعها حقنة، فكشفت لها ذراعي.

- السلام عليكم.

هتف الكوريون وهم يخرجون. لم تلتفت عابدة إليهم ولوحت لهم بيدي. رأيتهم يمشون متجاذبي السيقان قليلاً، ولا بد أن عابدة ادركت ما افكر فيه، ورأت الدهشة في عيني إذ قالت:

- كوريون اشهروا اسلامهم أمس.

ابتسمت وخرجت وعند الباب قالت:

- لا تحاول أن تشرب شيئاً اليوم، وطبعاً لا تأكل.

لم تعد بعد ذلك الا عند الظهر. دخلت وخلفها عربة المرضى يدفعها نعمان ومعه امرأة ضخمة مصرية نادتها عابدة «بأم زينب» وهي تطلب منها أن تضع المريض برفق على أحد الاسرة. خرج نعمان وأم زينب يدفعان العربة الفارغة، وقالت عابدة:

- زائدة دودية أيضاً. داهمته في السيارة. شاب سعودي كان قادماً من مكة في طريقه إلى تركيا، قال ذلك قبل العملية، ويشعر هنا بالآلام حادة في بطنه فجاء إلى المستشفى.

ودخل الدكتور وجيه يرتدي البانطو الأبيض. بان لي طويلاً جداً كأنني لم أعرفه من قبل. قال:

- هيه. كيف حالك. مشيت اليوم؟

- هززت رأسي مبتسماً.

انا مشغول جداً. ربما أراك في المساء. هيا يا سسمر إلى العذلية الثانية.

وخرج وخلفه خرجت عابدة مسرعة. رغم ما بدا لي أول مرة، من تناافر بينهما، فوجيه لا يعتمد إلا عليها كما عرفت بعد ذلك.

زارني سعيد في الثالثة واحضر معه جلابياً وساعدني في خلع جلباب المستشفى القذر. وضحكت وأخبرت بشعوري حين أرى الجلباب فضحك وقال عليّ أن أتحمل الهواء في فخذي هذا الاسيوع وأحضر معه أيضاً علبة كبيرة من عصير البرتقال الجاف وثلاثة أطباق صيني وكوباً وملعقة وشوكة وسكيناً وبعضاً من ثيابي الداخلية وبطانية لأضعها فوقني وفوقها بطاطين المستشفى القديمة. وبعد سعيد جاعني نبيل. أطل عليّ بوجهه يضحك من الباب. أحضر لي علبة من الشيكولاته وقال إنه كاد يموت حين رأيته ملقى على الأرض في دورة مياه الشركة. قال إنه سمع صوت سقوطي وهو في البرقي. خرج ليرى مصدر الصوت فلم يجد شيئاً أمامه ولا يعرف ما الذي هداه للذهاب الى دورة المياه فوجدني ممدداً على الأرض. وضحك وقال: «أنت ثقیل جداً». هو الذي حملني بعد أن صرخ، وجاء عابد يجري فقلاني إلى المستشفى وقال ان أرشد حزين جداً لأجلي، ومنذر صرخ وقال مياه الأبار ملعونة. وضحك نبيل وقال ان روز ماري اتصلت تسأل عني، وانه كان موجوداً

بالمكتب فرد عليها. قالت له دآيزة اسماعيل، فقال «اسماعيل هو سبيتال» اندهشت وقالت «هو سبيتال» فقال هو «بيس. أو بريشن». وسألني هل أخفا في الانكليزية. وضحك وأحسست بالمرح في الجرح من شدة اهتزازي، فتماسكت، وقلت له أن يسكت، فمن أستطيع الضحك أكثر. ضحك وقال «اذن أغمك. ولكمك عن منصور»، لكنني ضحك بصوت مكتوم فقال «سينورك هو والقرد». وقبلني على جيني وانصرف.

أحسست بالعجز عن مقاومة العطش، وبجفاف شديد في حلقي وشفتي، ودخل نعمان إلى الحجرة، فقلت له أن يبي لي قطعة قطن، ورحت أمس بها شفتي. ورأيت يقف فوق رأس الشاب السعودي النائم في حجرة، ثم التفت وسألني:

- هل أفاق من البنج؟

- أفاق. كان يتكلم كثيراً ولم أفهم منه شيئاً..

ضحك وقال:

- كل الناس هنا يتكلم. كنت قادماً لأفقيه.

وانصرف بعد أن انتزع الوسادة من تحت رأس الشاب ووضعها عند قدميه وهو يقول «حمازة أم زينب». ورأيت الشاب يفتح عينيه ينظر إلى ثم يعود يسقط في النوم.

في صباح اليوم التالي بدت لي الدنيا أكثر بهاء حولي. أحسست بهزالي وشحوبي، وأن جسمي بات وكأنه من أثر.. شيء بين السماء والأرض. وأحسست كأنني استريح من رحلة صعبة أو صعدت على

جبل عالٍ وجلست فوق قمته المنعشة وفتحت مسام جدي للهواء النقي. فكرت في الأمس كيف مضى جميلاً. زارني عابد أيضاً لدقائق وزارني بعده أرشد وجلس صامتاً يتأملني غير مصدق. وقالت لي المعرصة التي تعمل بالليل أن شخصاً اسمه منذر جاء يسأل عني فوجدني نائماً وانصرف بعد أن ترك لي هذه اللقطة. فتحتها فوجدت فيها جلباباً جديداً وفوطاً جديدة كبيرة وزجاجة كولونيا أولك سبياس. يا الهي! كل هؤلاء أسرعوا يرونني ويطمنون عليّ. لا بد أن الأمور على غير ما يبدو لي.

وأهلت عابدة من الباب بإبسمامة أكثر القاء من الأمس. لعلي أنا الذي صرت أكثر عافية وأفضل استقبلاً لما أراه.

- تستطيع اليوم أن تشرّب.

ووقفت جوار السرير تعد لي كوباً من عصير البرتقال قدمته لي وقالت.

- ليس كله.

شربت وهي تنظر إلي لا تكف عن الابتسام. وضعت الكوب فوق الكوميدينو وأبتسمت. سألتها:

- لماذا لم أرك أمس آخر النهار؟

- أجرينا عمليات كثيرة وعدت إلى «السكن» في غاية التعب.

- طيب. يبدو أنك تضحكين لشيء تريدان أن تقوليه..

- اطلاقا.

وعادت تبتسم ثم سألتني:

- من هي واضحة التي رددت اسمها كثيراً وأنت في البنج. هل

هي مصرية؟ هذا اسم سعودي.

إذن أفضيت كثيراً من الأسرار. تجاهلت الأمر، وسألتها:

- أي أسماء أخرى قتلها؟

ابتسمت وقالت

- البلتاجي. كامل. آرون. أول مرة اسمع كلمة آرون. هل هو

اسم؟

- هزرت رأسي بإسماً واستمرت هي - فيليب. لقد كنت تردد

فيليب كثيراً جداً. أكثر من كل الأسماء.. من واضحة. أيضاً سيد

الغريب. هل تعرفه؟

أشرت لها بيدي أن تجلس على المقعد المجاور للكوميدينو

فجلست. بدت كتلميذة طيعة. تنهذت وقالت:

- أنا أريد أن أسألك عن فيليب.

- أنا لا أعرفه.

- فيليب سوساي بيليا. رجل أسود طويل له وجه قوي. سيلاني

اشهر اسلامه وجاء هنا للختان ومات منذ أيام.

أغمضت عينيها ووقفت سحابة دكنة خفيفة على وجهها ثم

ابتسمت وقالت

- يحدث هذا كثيراً.

- أريد الحقيقة.

- ليس الدكتور وجيه على أي حال. لم تكن نوبتنا، جراح

سعودي مبتدئ، لكنه أيضاً ليس خطأ الجراح. خطأ معلم

التحاليل الذي اختلطت عنده عينة الدم. حلل عينة مريض آخر

باعتبارها عينة فيليب. جاءت العينة سلبية في كل شيء. لكن فيليب

مصاب بضغط دم مرتفع جداً. اندفع الدم بقوة ولم يكن هناك

سبيل لإيقافه قمامات.

هذه هي المسألة إذن. خطأ تافه. لكن هل يحتاج الأمر أن يخفيه

وجيه غني ربما لأن الطبيب سعودي، وقالت عائدة إن إخصائي

التحليل بالمعمل سعودي أيضاً، ثم سألتني.

- لماذا تهتم به؟

- كان صديقي.

قلت وسمعنا نحيباً شديداً فجأة من الشاب الصغير الذي معي

في الغرفة. قامت واتجهت إليه.

- لماذا تبكي يا ياسر؟ بؤلك الجرح؟

قال ياسر الذي سمعت اسمه لأول مرة:

- الجرح حين يا ست عائدة.

جلست على مقعد مجاور لسريه وقالت بإسمة:

- تريد أن تعود إلى مكة؟

- أريد أن أرى أمي.

نظرت إليّ في دهشة. يبدو ياسر صغيراً حقاً في حوالي العشرين

لكن لا يظن أحد أن شاباً في سنه يبكي ليرى أمه. قالت:

- سترأها بالتأكيد. أيام قليلة وترأها.

- أمي هنا في تبوك.

وعادت تنظر إليّ في دهشة. وقال ياسر:

- أنا من مكة، لكن أمي من تبوك. لم أرها منذ مولدي. طلقها

أبي وذهب، يعيش في مكة وأخذنا معه أنا وأختي. لم يسمح لنا أبداً برؤيتها أو السؤال عنها وهي لم تأت يوماً إلينا. أنا أعرف أنها من تبوك واسمها «صالحة» وهي ختمة. أريد أن أراها.

قال ذلك وعاد يجهد بالبكاء. وبدت عابدة شاردة الذهن ثم قالت:

- سأحضر لك أمك بشرط أن تكف عن البكاء.

تطلع إليها بعينين واسعتين متوسلتين وقال:

- سأفعل. أحضريها لي الله يرضى عليك.

وتوقف عن البكاء ونام على الفور. نام توماً حقيقياً. وقامت عابدة واقتربت مني وقالت:

- هنا يتزوج الواحد أكثر من واحدة، ويعيش الضرائر بلا ضفائن، لكن لم اسمع أبداً برجل يحرم زوجته من أبنائها. هنا تفرح الزوجة أحياناً بزواج زوجها من امرأة جديدة لأنه يضطر أن يقدم إليها كل ما يقدمه للجديدة من ذهب.

- هل ستجدين أمه فعلاً؟

- سأجدها. لدينا هنا خادمة سعودية اسمها «وَحْبَة» تعرف كل شيء في تبوك، وإن تعجز عن الوصول إلى أمه صالحة الختمة كما يقول.

وَحْرَجْتُ ورحتُ أنا اتطلع إلى الشاب الذي نام بدواعة الطفل الصغير.

أقدام مسرعة تدب في الطرقة خارج الحجرة، وضحكات نسائية

تأتي من بعيد، ففقت على مهل، وغادرت السرير، ودفعت الباب اتطلع إلى الزحام. في آخر الطرقة رأيت عدداً من المرضى الرجال، وبعض المرضعات، ورأيت عابدة تقف على باب مكتبها. وتشير إلي أن أدخل إلى غرفتي. تقدمت منها.

- ماذا يجري؟

- شيء سخي.

ودخلت مكتبها غاضبة لا أدري لماذا. دفعني حب الاستطلاع أن أتقدم في الطرقة حتى وصلت إلى الزحام، وإذا بالدكتور وجيه يظهر فجأة غاضباً صارخاً في المزدحمين بالانصراف، ولم يبق واقفاً غير ضبية باكستانية وأنا. رأني وجيه ولم يكلمني وحدث الطبيبة الباكستانية بالإنكليزية:

- ماذا تفعلين يا دكتورة؟

- ليس هناك طريقة أخرى.

- لكن هذا لا يجوز في المستشفى!

- هما طلبا ذلك. ثم إن هذا عملي.

نظر إليها بغيظ شديد، وانصرف دون أن ينظر إلي، ثم توقف فجأة والتفت يقول للدكتورة الباكستانية:

- هذا مستشفى يا دكتورة وليس قسم بوليس.

وبدا أنها غير آبهة له، وعاد الزحام من المرضى والمرضعات، والدكتورة الباكستانية تنظر إليهم ببلاهة غريبة، وسمعتُ ضجة داخل الحجرة المغلقة. أصوات مختلفة. مواء وعواء وشخير وصراخ وشتائم وأنفاس متلاحقة ووقع أقدام سريعة وأشياء تقع ثم صمت

طويل وأنفاس متعبة ثم فُتِحَ الباب فظهر رجل سعودي متوسط
العمر ممزق الثياب، في عينيه غضب نارٍ، ولَحَتْ خلفه امرأة
جالسة فوق السرير تغطي نفسها بالملاء البيضاء وشعرها منكوش
وعيناها دامتان.
- هذه مجنونة.

هتف الرجل، ومَرَّ من بين الزحام كما تشطر السكين قطعة الزبد.
وسقطت غترته التي كانت منزلقة على كتفه إلى الأرض فلم يهتم بأن
يأخذها. ودخلت الدكتورة الباكستانية الحجرة وأغلقت الباب
وسمعت نحيباً طويلاً هادئاً وانقضى الزحام.

شاعت الحكاية في المستشفى بسرعة، وعرف الجميع أن
الدكتورة «سردار» الباكستانية سمحت لرجل أن يعاشر زوجته في
إحدى غرف المستشفى. جاء يشكو زوجته وكيف أنها تذكره أن
يعاشرها، وكانت زوجته معه، فقالت إنه هو الذي لا يستطيع ولقد
جاءت معه لتساعده على أن يعرض نفسه على طبيب، لكنه خدعها
ودخل بها إلى طيبة النساء. وقدأت «سردار» من روعهما وجلست
معهما طويلاً تتحدث بلغة عربية متعثرة عن الهدوء النفسي الواجب
قبل لقاء الزوجين. وفجأة أقسم الرجل أن يعاشر زوجته هنا في
الغرفة نفسها لتعلم الدكتورة أنه سليم، وتحبته زوجته ووافقت
فأغلقت عليهما «سردار» الباب.

- كيف يحدث ذلك؟

سألت عائدة التي دخلت تعطيني قرص «الامبيسلين». قالت

دون أن تنظر إلي:

- عالم مجاني..

وظهرت امرأة سوداء جداً وقصيرة وسعينة عند الباب، فقالت
عايدة:

- آيه يا «خبة» وجدتها؟

- ها هي معي.

وأفسحت طريقاً، فدخلت امرأة أخرى قصيرة وبدينة أيضاً،
حول راسيها ذهب كثير، وفي أصابعها وعلى صدرها، وتغطي وجهها
بطبقات من الحرير الأسود. سألتها عائدة:

- أنت صالحة؟

- نعم.

- هذا ابنك ياسر.

لم ترد المرأة. تَقَدَّستُ وكانت «خبة» قد تركت الباب وتراجعت،
ونظرت إلى عائدة التي بدا دمع يتفرق في عينيها. تَوَقَّعت مشهداً
عاصفاً بالدموع. وجلست المرأة على كرسي جوار سرير ابنها عند
رأسه، وتقدمت عائدة ووقفت امامها توقظه. فتح ياسر عينيه ونظر
إلى المرأة الجالسة، وقالت عائدة بصوت مخنوق:

- هذه أمك يا ياسر.

اعتدل ياسر بسرعة، واستند بظهره إلى ظهر السرير، وهتف
بصوت هامس:

- أمي.

قالت المرأة بصوت عال:

- كيفك ياسر. كيف أختك حصة؟

ولم ترفع الخمار متعدد الطيقات عن وجهها. تأملها ياسر وقال هامساً:

- بخير.

- كيف الشيبية؟

- بخير.

- تعيشون في مكة؟

- لا زلنا.

- الله معكم.

وقامت وانصرفت وعابدة تنظر الي وأنا أنظر إليها، ونظرتُ اى ياسر، فهز كتفه، وقال:

- امي صارت مجنونة.

- وينكت ولم ينظر إل أحد.

لم يكن من الصعب قتل الوقت. جاءت سيارة في اليوم التالي، وأخذت ياسراً الى مكة. وكان دائماً معي في الغرفة واحد أو اثنان، لكن لا علاقة بيننا ولا حديث. لقد حول وجهي غرفتي إلى غرفة ملاحظة يمضي فيها المريض قليلاً من الوقت قبل أن يغادر المستشفى أو ينتقل إلى حجرات المرضى. وحول غرفة الملاحظة الأصلية إلى غرفة استقبال طويل. فعل ذلك حرصاً على راحتى كما قال.

تفرغتُ لقتل الوقت باستطلاع ما يجري. في اليوم التالي لحادثة الدكتور «سردار» أئت الشرطة لتحقق في شكوى رجل من البادية يدعى أنه أحضر ابنته الصغيرة المريضة إلى قسم الأطفال

فحفظتها الممرضة المصرية. رأيت الممرضة تقف في الصالة بين ثلاثة من رجال الشرطة بينهم ضابط وعلى وجهها دعر شديد. كانت عابدة وعدد من الممرضات يبتسمن ويضحكن. قالت الممرضة المتهمة إن ابنة الرجل موجودة وإنما هذه التي تمسك بيدها، وقال الرجل إنها ليست ابنته. طفلة في الثالثة سمراء شعرها غزير وعيناها واسعتان عسليتان ترتدي فستاناً بمبي مدندش الذيل بدائر أخضر من الدانتيل وفي جانبي رأسها «فيونكتان» من شرائط الحرير الأحمر. كانت بحق دمية جميلة. يزيد من ذلك أنها صامئة لا ترد على كلام أحد. قالت الممرضة إن كل ما فعلته هو أنها رأت البنت جميلة في ثياب قذرة فأخذتها إلى «السكن» وألبستها هذا اللبس الجميل بعد أن أدخلتها الحمام وقصت أظافرهما ورجعت شعرهما وعطرتهما: ولكن الرجل كان لا يزال يقسم أن هذه البنت ليست ابنته وأنه لن يتنازل عن ابنته ولن يتنازل عن سجن الممرضة المصرية التي فجأة زاعت عيناها إلى بعيد وبدأ أنها لم تعد تدرك ما حولها ثم صرخت بأصباح طويل، ففرغ الضابط والشرطيان، وتراجعت الممرضة وهي تكرر الصراخ، وأسرع عابدة وزميلاتها يتلفينها قبل أن تسقط فوق الأرض، واستطعن إدخالها إلى غرفة الممرضات القريبة، وأغلقت الباب خلفهن. سمعنا ضجة وصراخاً مستمراً وفجأة غناء في صوت شديد المראה والسخرية محببتك وباحبك وحاحبك على طول، وبان الارتباك على وجه الضابط الذي امر الرجل البدوي أن يأخذ البنت ويمضي. من يقول أنها ابنتى؟ انا أقول. صرخ فيه الضابط، سذهب للمك. اذهب للشيطان.

وحمل الرجل البنت على ذراعه، وانصرف في عجلة وغيط

وانصرف الضابط والشرطيان أسرع منه.

استلقيت على سريري غير قادر على أن أكتب ضحكاتي. ضحكك وحدي بالفرفة وصار صوتي مسموعاً. أملت عابدة بوجهها تضحك. ثم قالت:

- طبعاً أنت تستغرب؟!

وظللت أضحك ثم وجدت أنه لم يعد لائقاً ذلك فسكت وتاملت وجهها المبهج. لا بد أنها أدركت أن احساساً بالراحة صار يشمل جسمي وروحي فأنا أشعر بتألق عيني وانيساط وجهي. أرخت رموشها الطويلة وتكلمت:

اسمها «وردة» المريضة التي صرخت. لم يعرض علي عملها هنا ستة أشهر. بدأت عملها في مستوصف «ضياء» وفي ضياء لا يوجد سكن للممرضات غير المتزوجات. عادة لا تذهب هناك غير المتزوجة. لكن هكذا جاء تعيين وردة. كان الأطباء والممرضات يتركون المستوصف في الساعة الثانية ظهراً إلى بيوتهم. الأطباء جميعاً متزوجون والممرضات كذلك، إلا وردة التي كان عليها أن تبقى بالمستوصف نفسه. في إحدى الغرف فوق السطح تمام. المستوصف كبير به أكثر من عشر حجرات بالدور الأسفل.

كان على وردة أن تضي الوقت بعد الثانية ظهراً وحتى الصباح وحدها. لك أن تتخيل حجم الأفكار التي يمكن أن تسرق العقل في بلد بعيد مقفر وفي مكان خالٍ أصاب وردة انهيار عصبي شديد ونقلت إلى هنا. وضحكك عابدة وقالت إن وردة تعيش الآن في سكن

الممرضات. تضحك كثيراً بلا ضابط وتذكر كيف كانت تقطع الوقت بالغناء فوق السطح. كانت تغني للسماء والفضاء وتجري وتقفز ثم فجأة تلطم خديها وبالليل تنكش في أبعد ركن من غرفتها وتنتحب. الآن، بعد أن ينتصف النهار، كثيراً ما تشرود وردة بذهنها ثم تعود وتشرع في الغناء الذي سمعته. تلبسها «عقدة ضياء» كما صرنا نسميها.

- كنت أحسبها خائفة من الضابط.

قلت ولم أستطع أن امنع نفسي عن الضحك. وضحكك هي أيضاً وارتفع صوتها، صرنا تضحك كلما تقابلت عيوننا. لكن لم يكن ممكناً الضحك في كل وقت.

صحوْتُ على صراخ جنوني، وتركْتُ سريري فزعاً أنا الذي أصبح كل يوم على صوت العصافير التي لا أراها ووجه عابدة البهيج. خرجت ووقفتُ أنطلع إلى مصدر الصوت القادم من الطريقة المتعامدة مع غرفتي، والمتجهة إلى غير النساء.

شرطيان يسكنان بامرأة صغيرة تحاول الإفلات منهما وهما يجزأها بغلظة وغيط. شقراء، شعرها طويل يغطي وجهها وصدرها ركتفها، ويصل إلى نصف ظهرها. اقتربا بها أكثر، ورأيت عينيها خضراوين لكن وجهها شديد الاحمرار من آثار لطومات سابقة.

كانت تقف على الأرض، ويرفعانها بقوة وتتشبث بسيقانها، والنساء المريضات يكيبن أمام الأبواب، والممرضات من كل قسم وقفن ينتحبين. واقتربت وردة مسرعة تحمل طفلاً صغيراً أسود،

دخلت به الى غرفة عايده التي كانت تقف جوارى ولا أدرك. كان هناك طبيب مصري شاب يقف خلف المرأة والشرطيين يرفع نظارته البيضاء ويمسح عينيه ويمشي خطوة كلما تقدم الجنديان بالمرأة خطوة. استطاع الشرطيان أن يسحبا المرأة الصغيرة بقوة، ولم تعد تسقط على الأرض. تركت نفسها تسرع بينهما، وكل منهما أمسك بأحد ذراعيها فانفتح الروب البني عن جلباب أخضر به وزيد بيضاء وبرتقالية، واتسع صدرها فيان طوقها وجيدها مبهرين، ونزلا بها السلم والطبيب خلفهما.

دخلت عايده الى غرفتها ووجدت نفسي أدخل راعما. رايت ورده جالسة والطفل على صدرها تربت على ظهره وتبكي، وعايده خلف المكتب وضعت رأسها بين كفيها وتبكي أيضاً. قبل أن أتكلم دخلت المرأة التي كان يجرها الشرطيان الى الحجرة في هلع، وهجعت على ورده تأخذ الطفل منها، فتركته ورده دون مقاومة، وجلست المرأة على الأرض. وبسرعة شددت طوق جلبابها وأخرجت ثديها والقمته إلى الطفل شديد السواد، وراحت تنظر الينا بعينين لامعتين مرعوبتين، وظهر الشرطيان كأنهما جنيان، ولكن الطبيب المصري الشاب لحق بهما وصرخ:

- اتركاهما وشأنهما.

كادا يهجمان على المرأة لكنهما توقفا ونظرا إليه شزراً فقال:

- انزلا وسالحيكما معنا. أنا المسؤول.

ظلا ينظران إليه بحدّة ثم انطلقا يمشيان ويدبان على الأرض، ونظر هو الي ثم انهار جالساً على مقعد قريب. لحظة ورفق رأسه إلى المرأة التي كانت تشد على الطفل في صدرها كأنها تريد أن تخفيه

فيه، وتغطيه بأطراف الروب فلا تراه، ورفعت المرأة وجهها إلينا. دموعها غزيرة لكنها فجأة أخذت تنسكب انسكاباً وهي تنظر الى الطبيب الشاب.

- أعطيتها شيئاً تشربه يا ورده.

قال الطبيب. وفتحت ورده ثلاثة صغيرة أخرجت منها دورقاً به عصير برتقال. قدمت كوباً للمرأة التي أخذته وشربته دفعة واحدة. بدا لي أنها ليست هي التي تشرب فقد تركت الكوب جوارها على الأرض بسرعة وانكفأت على الطفل ترضعه. شبع الطفل فأدخلت ثديها الصغير الى صدرها، وتراجعت بظهرها تستند الى الحائط كأنما تستريح الى الأبد.

- يا أخت لا فائدة من ذلك كله. لقد تركتك تعويدن لتري ابنك خمس مرات الآن.

مالت المرأة الصغيرة الجميلة برأسها إلى الخلف رافعة عينيها إلينا وتكلمت باكية:

- صدري يخذلني يا دكتور. انظر الى الجلباب.

ونظرت أنا أيضاً، فوجدته فوق صدرها وازداد نحيب ورده التي وقفت في ركن ووجهها الى الحائط بينما راحت عايده تمسح عينيها بمنديل صغير، وتكلمت المرأة الصغيرة الجميلة بصوت مليء بالعذاب:

- صدري يا دكتور كلما ابتعدت يحنّ وينزل منه اللبن.

وسكتت وتركّت دموعها تتكلم، ورفع الطبيب الشاب نظارته،

وراح يمسح دموعه بمنديل من الورق، ثم نظر الى ساعته وبدأ انه يتماسك وقال لها:

- لقد اخذت عنوانك وهو مع سسטרوردة وسسستر عابدة أيضاً، ووعدتك انني سأرسل اليك باسم الاسرة التي ستأخذه، ثقي انه سيأتي يوم تستطيعين فيه العودة الى الملكة وتتعرفين إلى ابنك. انذا لن نترك أي أسرة تأخذه دون أن نعرف عنوانها.

وقام بهدوه، ومد لها يده، فقامت والطفل على صدرها ثم قدمته ذاهلة الى وردة التي مدت ذراعيها وحملته. وطل نظر المرأة الى وردة.. الى وردة وليس الى الطفل. هل كانت تريد أن تستوثق بأن التي اخذته منها بشراً حقيقي؟

لَمْ أَشَأْ اعرف القصة. حين أنزلوا جثة عبد الله بن الزبير ووضعوها على حجر أمه أسماء العجوز الهرمة التي شارفت على المائة انحنت عليه تقبله وقيل إنها حاضت ونزل من ثدييها اللبن.

لم أترك غرفتي ولا أكلت إلا آخر النهار حين دخلت عابدة وخلفها الخادمة المصرية «أم زينب» تحمل الطعام.

- نسيت أن أحضره لك في الغداء. لا يمكن أن تمضي اليوم بلا أكل.

- لم أأأ بهذا الهلع من قبل.

- لم تر أمّاً تُفصل عن ابنها إلى آخر الزمن.

- ألن تعود مرة أخرى؟

- مستحيل. مثلها يوضع على القائمة السوداء.

- لكن الطفل ليس صغيراً. ليس مولوداً حديثاً.

- أمضت عاماً في السجن ترضعه. في مثل هذه الحالة لا تترك الأم طفلها إلا بعد عام. مسكين الدكتور أحمد. وصل هنا منذ اسبوع فقط وكلفوه بمرافقة الأم حتى المطار. رحمةً يرافقه الأم طبيب حتى لا تقدم على شيء خطر. حتى لا تموت أو تنتحر. الموت أريح. تصور لقد رفضت طول العام أن تدل الشرطة على أبيه. أبو الولد.

اتضححت الصورة. فتاة غربية أحد رجال البليدة. لماذا لم تعترف باسمه؟ أتراها كانت تأمل أن تأخذ ابنها؟ تركوها عاماً في السجن ترضعه. لا بد أن تتسلمه الدولة أكثر عافية. وهي، الأم، لم تستطع أن توقف مرور العام. كم من مضي خرافية تعلقت المسكينة بحبالها الوهمية. ربما فكرت أن الله قد ينهي الدنيا فجأة فتقفز إلى الآخرة وابنها في صدرها.

قالت عابدة إن المرأة اللبنانية وأهلها يعيشون هنا لكنهم شربوا منها لا يريدون العودة الى لبنان. إلى أين يذهبون والحرب قائمة في كل مكان؟ لقد تركت لنا عنوانها ولكن.

وسكنتنا طويلاً والطعام بيتنا لم أكل منه شيئاً. كنت «إنه ضغل جميل».

- عبد الله؟

قلست:

- لا أعرف اسمه.

قالت انهم اعطوه هذا الاسم، وإن اللقطاء يرضعون هنا في قسم
الامفال حتى تنبأهم إحدى الاسر أو الأمراء أو ينقلونهم إلى ملجأ
بالرياض، لكنها وزميلاتها يحبين أن يأخذنهم إلى السكن، إن
أسوأ يوم هو اليوم الذي يقبض فيه الطفل أحد. لا يحدث ذلك إلا
بعد أن يعتدن على الطفل ويعتاد عليهن، يصبح له أكثر من أم تبكي
لفراقه، ويبكي هو من أجل كل هاته الامهات.

وكأنني دخلت من باب أفضى إلى جحيم لا خروج منه. لا
استطيع البقاء أكثر من ذلك وإن ضبطت نفسي متلبساً بانتظار
دخول عابدة المبهج لغرفتي في الصباح. لقد تسيت الدنيا بالخارج.
لم يكرر أحد زيارتي ولا أنا عدت أذكر أنني أعرف هنا أحداً.

لا أعرف الآن إلا خطوات مسرعة تحمل اكياس الدم لانقاذ
جريح، وإلا بكاء الممرضات على الموتى الذين كان يمكن انقاذهم
لولا ولولا ولولا، وزعيق الأطباء في المرضى أن لا يتركوا أسرهم أو أن
يتركوها ويمشوا حتى لا تتجلط الدماء في سيقانهم.. لا أعرف الا
صوت زغاريد تنطلق من قسم النساء. هذه فتاة بكر وضعت
مولودها بعد ثلاثة أيام من الطلق والألم والانتظار من أهلها وما هي
الفرحة تغل من عيني الزوج الشاب الغريب الوحيد الذي تحضر
الممرضات لإبنته كساء على نفقتهن وهدايا لأمه الصغيرة وطعاماً
ساخناً. لا أعرف الآن الا صرخاً كأنه قادم من عصور سحيقة من
رجل محبوس في غرفة سفلية سينتقل الى مستشفى الأمراض
العقلية بالطائف بعد أيام، واسمع دائماً صوت عربة نقل المرضى
تسرع في الطريقة ونعمان الخادم يشخط في أم زينب المتعبة. الخادم

من أصل البلدة له خادم من بلاد بعيدة. وقريب من غرفتي غرفة للتدأريق والليل أشباح من صراخهم هم المفيدون في أسرهم الملقون بالقطن والشاش الملقين الى نقطة ماء. لا اعرف الآن إلا سيارات تنرصدها الحوادث. تنهار عليها جُرْفُ فجأة من فوق الجبال، أو تسقط هي فجأة من فوق الجبل، أو يدفعها القدر إلى «قلبية» فتقلب. بلدة قديعة ذات اسم قديم ولا أدري كيف كانت تنقلب الجمال. من أي الميلاد أنا ومن أي مكان قريب أثبت. نمل ثقيل راح يغطي الذاكرة ولم أمض هنا إلا بضعة أيام. لا يكفيني وجه عايذة الرائق المبهج وسط هذا الجحيم من الصرخات والضحكات والموت تغلغلًا في الحياة. كيف حقاً لا يموت الأملاء وفتنح المرضعات؟ أي قوة شيطانية وضعها الله في بني الانسان فيبدون في النهاية أقوى من الأحجار

زارني خالد، فبدأ وكأنني عرفته من قبل في بئر مظلمة ولا أكاد اتعرف على ملامح وجهه ولا أذكر حتى اسمه. «واضحة تهديك السلام» قال وفكرت اسأل من هي واضحة، وكان دمثاً. قال إنه علم من سعيد بمرضي، وأنه أخير واضحة في الرياض، فأنزعجت كثيراً وتهديني السلام. ما السلام؟ كنت أقول. قال «واضحة ستعود بعد يومين». ولم أقل أتي سأخرج بعد يومين. هكذا حدد لي وجيه موعد الخروج مع أنني رجوته الخروج اليوم.

وحط على لقائنا صمت طويل، وتنبهت فجأة إلى دقة وجهه. ولولا شاربه والعقال الاسود والغرة لصار «واضحة» بلا اختلاف. اذن ما زلت أذكر وجهاً ممن عرفت. ومضى وهو يدعو لي بسرعة الشفاء. ولم أتكلم. انني انتظر اللبنة الأخيرة رغم امساكي بنفسى متلبساً

بانتظار دخول عايذة المبهج، وعايذة اليوم بدأت تعمل بالمساء.

عندما انتصف الليل كنت في حاجة شديدة الى الكلام. سكنت الحركة، ولم أعد اسمع غير انفاس واهنة، وخفتت الاضواء وأنا في الغرفة وحدي، يعاديني النوم مع أنني سأغادر المستشفى في الصباح.

تركتُ الغرفة، ووقفت في الطريقة ذات الضوء الخافت امام باب غرفة عايذة، وترددت أن أطرقه. في حاجة شديدة انا للحديث معها وما خرجت إلا لذلك وإن كنت لا أدري فيما سأتكلم. وسمعت صوت نجاة الصغيرة. خافتاً وسمعت شيئاً كالنحيب.

في اللحظة التي فكرت فيها أن أعود فُتِحَ الباب ووقفتُ تنظر إلي في ذهول.

- آسف. آسف جداً.

- لا داعي للأسف. لقد احسست بقدميك. اخففتني. تفضل.

دخلتُ مرتبكاً وجلستُ هي خلف المكتب.

- أنا لم اقصد شيئاً.

- اعرف. يمكن أن تجلس.

جلستُ وكنت أقول: لقد سمعتك تبكين في صوت خافت وما أنذا أرى أثر الدمع في عينيك، لكنها رقت وقالت:

- ساعدك كروباً من الشاي، الجو بارد وأريد أن أشرب شيئاً ايضاً.

وأتجهت إلى دولا ب صغير أخرجت منه موقداً كهربائياً، ووضعت فوقه براد الشاي، وبدأت لي وهي تتحرك صغيرة للغاية وقلت ما لم أريد قوله:

- هل أسألك لماذا كنت تيكبي؟

- لقد سألتني بالفعل.

أجابني مبتسمة وسكتنا، وأنشغلنا بأعداد الشاي ثم قُدمت لي كوباً وأخذت آخر، وعادت تجلس خلف المكتب.

- أحياناً يشعر الانسان بحاجة للبكاء.

فكرت ربما كان صوت نجاة الذي بيته راديو صغير فوق المكتب هو سبب بكائها، ذلك أمر سهل مع أي مغترب.

- أرجو أن لا أكون تطفلت على مشاعرك.

- بالعكس.

- اليس سعيدة هنا؟

- سعيدة جداً وألا ما كنت بقيت. تعودت على العمل. وفي سكن المرضعات، نقضي وقتنا في مرح. نعيش أسرة متوافقة إلى حد كبير طبعاً لدينا مشاكل مثل كل الناس. فبينا من ضحك عليها خطيبها وأخذ فلوسها، وبينا من يرغب أهلها أي عريس يتقدم لها حتى تنزل بقره حلواً لهم، وبينا التي تزوجت وترك زوجها، وحين عادت من أجازتها وجدته تزوج بخرى في الشقة نفسها التي جهزتها، وبينا العازقات عن الزواج تماماً إلى الأبد.

- يا الهي! إلى هذا الحد؟

فبينا أيضاً الناصحات الثلاثي اشتريين عمارات وأراضي، وبينا

طبعاً سعيدات الحظ في الزواج. في كل الأحوال نصنع مع بعضنا حياة سهلة حلوة في السكن.

وسكتنا قليلاً. وكانت نجاة قد انتهت من أغنياتها ويضرب صوت عبد الوهاب رخيماً يعطي لليل مذاقاً عذياً.

- هل تحب عبد الوهاب؟

سألتني مبتسمة ابتسامة صغيرة. قلت:

- لا يوجد من لا يحب عبد الوهاب.

وسكتنا.

«لم نعتنق والهوى يفري جوانحنا

وكم تعانق قلوبنا وروحانا».

- انها قصيدة جميلة للشاعر عزيز أباظة كتبها لزوجته.

ابتسمت وقالت:

- أخاف أن أقول لك اني احب عبد الحليم فتسخر مني.

- لماذا، انا احب عبد الحليم أيضاً.

وعدنا إلى الصمت حتى وجدت نفسي أسألهما:

- أين انت يا عابدة من كل من حدثتني عنهن؟

كانت هذه أول مرة أخاطبها باسمها مباشرة. وكان سؤالاً مفاجئاً لنفسي. دائماً يسبقني لا شعوري في كشف ما أريد ستره.

- أنا؟

ولم تكمل. وظللت ناظراً إلى عينيها حتى رفقت أهدابها ثم قالت:

- دعنا نترك هذا الحديث.

ولم يحدث..

الطب مهنة فظيعة تحولك الى آلة باردة. اذا لم تتحول تنكسر ولا تصلح. هنا رأيت الناس يتحولون الى حيوانات مسكينة، يصرخون كأنهم وحوش، من الألم الذي يفوقهم توحشاً، وهنا رأيت الناس جثثاً بلهاء لا قيمة لها. لقد تحملت ذلك كله من أجل اخوتي الذين هم سعداء الآن. كل اخوتي السعداء عارضوا دخول مدرسة التمرريض إلا واحداً. هاشم الذي كان أكبر مني مباشرة. كان طالباً في كلية الحقوق وكان مصدر بهجة دائمة في البيت. متفائل لا يكف عن الابتسام، يؤمن بأن كل شيء يتغير مع الوقت حتى الأفكار العتيقة. لكنه كان مصدر قلق دائم للأسرة. كان يشارك في المظاهرات بالجامعة ويأتي رجال المباحث كثيراً بالليل ليقبضوا عليه. ويخرج دائماً من السجن أكثر بهجة وتفائلاً. وكان ضئيل الجسم للغاية لا يعرف احد أي قوة فيه ليتحمل السجن. لقد تخرج هاشم من الجامعة عام (٧٣) وفي عام (٧٤) اثناء زيارة نيكسون لمصر، حين أخرجوا الناس بالفلوس لتقف على شريط السكة الحديد تحيي نيكسون والسادات في طريقهما للاسكندرية لم يستطع البقاء في دمنهور، بلدتنا. سافر الى الاسكندرية. كان له بها اصدقاء دراسة يحبهم. صدعته هناك سيارة ونقلوه الى المستشفى الأميري حيث كنت أعمل بعد ان تخرجت، ذلك اليوم كنت في قسم الاستقبال، وفي ذلك اليوم استقبلته.

وسقطت دمعة من عينها. ثم انشالت بعدها دموع، فأخرجت منديلاً وريقاً من عتبة مناديل في أحد الأدراج وزاحت تجففها.

- انا آسف جداً.

- تصور انه الوحيد الذي يراسلني.

- هوجي اذن.

- لكنه فاقد القدرة على الحركة. يعيش مع أمي وأبي المسنين وخادمة.

«لذلك أنت هنا؟ قلت لنفسي. اي عذاب فوق طاقة البشر. لو كانت عابدة رجلاً لاختلف الأمر. أنتى حاضرة الجمال. ووجدت نفسي أريت على ظهر يديها يدي. قالت: - هل ضايقتك؟ - أنت لم تضايقني. ولم تؤلمني.

كانت أغنية عبد الوهاب قد انتهت وسمعت المذيع يقول موجز انباء الواحدة من القاهرة. قال كلاماً عن بيغين وكارتر والسادات لم أفهمه ولم أهتم به. أدريت مؤشر الجهاز بعيداً فانساب صوت عبد الحليم حافظ وادعاً دافئاً شجياً.

«يا ثبر سائل بين شطين يا حلوا يا أسمره
«لولا سمارك جوا العين ما كنت تنوره
يا حلوا يا أسمر. يا حلوا يا أسمر
يا حلوا يا أسمره

وابتسمت ورايتها تبسم وتتألق عينها بانبهار فائق.

وافق خروجي اليوم الأخير من شهر ديسمبر. تركت وجهها في المستشفى، وفي البيت لم أجد سعيداً لست بحاجة الى شيء قدر حاجتي إلى النوم. تركت غرفة عابدة والفجر يوشك على الظهور. وصفت لها حالي وقلت إنني اكتشفت متأخراً جداً أنني رجت ضحية مؤامرة صنعها أبي ووافقت عليها بغياء اخلاقي منقطع النظير. غباء جعل بيني وبين النساء سداً والآن افكر جدياً في الزواج. وصمتنا كثيراً وأطرق كل منا ثم رايتها تنظر في ساعة يدها. اعادتني الى الحقيقة. هي انثى وأنا ذكر في بلاد يترصدها فيها الهواء الاحاسيس ينقلها للعسس. قمت ولدي شعور بأنها لم تقل كل شيء. للملائكة حاجات يخفونها أيضاً. كل منا أخفى شيئاً وعجز عن البوح به، مع أنني كنت كلما نظرت الى وجهها استأنسقه وتمنيت لو مضيت الى صدرها لأنام. لم اقل لها أنني أنا الذي أفشلت قصص الغرام. ورغم أنني نزلت الى البلاد التي غفل عنها السندباد والتي ينزلها الآن ألف سندباد وألف كل صباح، البلاد التي تعود منها فتفتتح لك كل النوافذ وكل الطرق والأبواب، فإني ما زلت لا أحس بالنار تشتعل في جليد قلبي. كُذِّبَ كل ما فعلته مع واضحة وكل ما أحس به كلما زرتها، وكذب أنني أريد الزواج الآن.

منتديات مكتبة العرب

<http://library4arab.com/vb>

لم يلتئم جرحي القديم بعد . لا زالت أود لو أخرج من نفسي أعاقبها .
 اقتلها . سألتني لماذا تقرأ هذه الرواية كثيراً . قلت أنا أحب أحمد
 عاكف . قالت ضاحكة . أنا لا أعرف أحداً بهذا الاسم . قلت خذنيها .
 وجاءت تضحك ويقول من هو أحمد عاكف في الرواية ؟ وضحكنا
 وسكتنا . قلت أود الذهاب إلى حديقة أنطونيوس . الدنيا ربيع
 وهناك مهرجان الزهور الآن . قالت لم أعرف عنك أنك تحب الورد ،
 أنت تحب الحب وتريد أن تذهب . لأنه هناك بحنا بالحب في يومنا
 الأول . وتأتق وجهها الأبيض واحتوتني عيناها العسلتان ثم
 انطلقنا . كان الزرع حولنا في الكلية أخضر من كل يوم والفضاء
 أبيض من كل يوم والسماء أعلى من كل يوم وقرميد الكلية الأصفر
 المشرب بالحمرة أزهى من كل يوم . وقالت ونحن نعبّر الباب : كثيراً
 ما أفكر كيف تفهم «المنطق» أفضل منا جميعاً . قلت أنا إذاً أكثر
 منكم . قالت كذاب وكنت كذلك وواجهتنا مستشفى الشاطبي
 للولادة باتساعه العريض وباحتة الضخمة وبياض كل شيء فيه
 الذي يلتحم مع بياض الفضاء . ورأيتني أنطلع إليها بعمق فقالت
 وهي تلكنني في ذراعي هل تعرف أحداً يلد اليوم ؟ قلت إن هذا أعظم
 موقع لمستشفى الولادة لأن أمامه بحراً عريضاً . قالت أنت تقول
 كلاماً غريباً وهتفت «ناكسي» وركبنا وانزلنا صامتتين عند حديقة
 الحيوان فمشيناها في تراخٍ نقرب من بعضنا ونبتعد ولا أذكر فيما
 تكلمنا حتى وجدنا باب حديقة أنطونيوس وفوقه لافتة «غير
 مسموح بالدخول للجمهور» . لماذا ؟ وقال الشرطي كما ترى أخذها
 الجيش وتحولت إلى موقع عسكري . قبل ذلك أخذوا لسان السلسلة
 الجميل وصار تمثال عروس الاسكندرية وحيداً لا يمر عليه عشاق .
 ابتسم الجندي لا يدرك شيئاً وقالت هي : حديقة الحيوان أوسع

فسألتها لماذا لم تقرأ الرواية جيداً ؟ وسكتنا من جديد وقالت لماذا
 حقاً لا تعطيني ما تكتبه من قصص اقرأها ؟ قلت لا أظن أنني
 سأستمر . لماذا ؟ لماذا حقاً تتخلي عن كل شيء جميل في نفسك ؟ لماذا
 إغلاق النوافذ ؟ وتراجعت عن الشرح وظلّت بيننا الرسائل . أين هي
 المرأة التي تموت من أجل رجل ؟ وظلّت بيننا اللقاءات . وكان الوقت
 مساءً في آخر دقيقة من آخر يوم لنا في الامتحان . ولأننا كنا نعرف
 أننا سننجح فكان ذلك آخر وقت لنا أيضاً بالكلية ذات الحديقة
 الجميلة ومشينا فوق النجيل حتى حديقة كلية التجارة والشيطان
 الآخر يقول لي إن الصراحة أفضل من الخداع . فصارتها وقلت
 أنا لا أعرف الحب إلا للزواج وأنا لن أتزوج الآن ولن أتزوج أبداً .
 ومشينا صامتتين وفي محطة الرمل رأينا سعد زغلول يعطي ظهره
 للمدينة ويشير إلى البحر . إلى غريق . وفقرت وقبيلتي على خدي
 والناس كلها تراقنا في الميدان وأسرعّت تبتعد . ولم أذهب يوم الأحد
 ولا أي أحد بعد ذلك . لم أكن أحبها أبداً . كنت أحب الحب كما
 قالت . عرفتني التي لم تقرأ القصص ولم تعرف أنني أنا الغبي
 الكبير في هذا العالم اكمل رسالة رجل تجاوز الخامسة والستين ولم
 يتمها .

«الحياة مأساة» ، والدنيا مسرح ممل . ومن عجب أن الرواية
 مفاجئة . ولكن الممثلين مهرجون . ومن عجب أن المغزى محزن . لا
 لأنه محزن في ذاته . ولكن لأنه أريد به الجد كل الجد . فأحدث
 الهزل كل الهزل . ولما كنا لا نستطيع في الغالب أن نضحك من
 إخفاق آمالنا . فابتنا نبيكي . فتخدعنا الدموع عن الحقيقة . وتوهم
 أن الرواية مأساة . والحقيقة أنها مهزلة كبرى .»

قال هامت وقال نجيب محفوظ وقال أحمد عاكف الشكيني الذي

قرا أدب الكاتب والكامل والبيان والتبيين ولا صار كاتباً ولا فاز بحبيب. كيف انتهى الأمر للجنون ثم الموت؟ توالى عليّ الرسائل مكتوبة بحبر أحمر وأخضر وأزرق وأسود. لماذا لم تنقب؟ كان اليوم هو الخامس من يونيو. يوم لا ينساه في مصر أحد. «قد ينساه الناس بالانتصار وأظن أنا الوحيد في شعب كامل أذكره». لم أعرف بموتها إلا قبل أسبوعي إلى هنا بأنام حين ذهبت إلى الكلية لاستخراج نسخة من شهادتي وقابلت «سامية» التي كانت صديقة لنا وتعرف كل شيء. جاءت مثلي لتستخرج شهادة وتسافر إلى الإمارات. أخبرتني سامية فأسرعت أنا بالسفر. لم يبد عليها قط أنها يمكن أن تجزّ فماً بالك أن تموت. من يُطْلَقُني من موتي الآن؟ من يحرق أسراري؟ واضحة أم عابدة أم تراني قاتلاً للجميع؟ كم أود حقاً أن أنام.

- كنت أعرف أنك هنا.

هاتف سعيد وهو يدخل حاملاً كرتونة على صدره، أسرع بها إلى غرفة المعيشة، ووضعها فوق المنضدة، ووقف يلهث. قال:
- سنحتفل بك وبرأس السنة.

كانت الساعة الثالثة ظهراً وكنت نمت نوماً عميقاً. فتح الكرتونة وراح يخرج ما فيها ويضعه فوق المنضدة ويتكلم:

- جبن حلوم. زيتون سيوي من مصر. ها ها ها. يا أخي رؤساء الجمهوريات طبعهم غريب. واحد سماه زيتون الحرية والثاني زيتون العبور. قول لها. بيضر بلغاري. انظر إلى حجم البهضة. في

حجم القريضة المصرية. في بلغاريا يقولون للجبان جبان مثل البهضة!! ها ها ها ها.

واستمر يخرج ما في الكرتونة، ولا يكف عن الكلام والضحك. وبدأ شكله غريباً لي جداً، واكتشفت لأول مرة أنه أقصر مما أتصور. كان يتحرك مثل كرة من المطاط.

- وخذ أيضاً جبن رومي من إيطاليا. رومي أصلي. وجبن شيدر من استراليا. انظر إلى العنبة. مدكوكة. مثل البوشمان. لا بد أن البوشمان انتهبوا مثل الهنود الحمر. كُلْ منته. لن يبقى إلا وجه ربك. وخذ أهم شيء عشرون زجاجة بيعة بدون كحول ماركة «موسى» صنع أوروبا. الأوروبيون النصابون يضحكون على العرب. سيكون احتفالنا بخروجك وبرأس السنة رائعاً وفرق ما تتصور

نظرت طويلاً إلى عينيه. قلت:

- ماذا جرى لعقلك اليوم؟

- تريد الحقيقة؟

- أجل.

- قابلت ودار.

- هل هذه أول مرة؟

- لا طبعاً. لكنني اليوم قابلتها وقبّلتها أيضاً. قبّلتها هنا في المملكة التي تقع في الغرب من قارة آسيا وتطل على البحر الأحمر والمحيط الهندي والخليج العربي وفيها قبيلة مسلمين من كل أنحاء الدنيا ومنها هربت الجن والعفاريت بسبب الحر والقفر.

وصار يضحك ويصفق ويقفز في فضاء الغرفة، فلم استطع منع

نفسي عن الضحك. وفجأة توقف وقال بجد شديد
- يا اخي لم أكن أعرف أن الحرمان شيء فظيع إلى هذا الحد.

بعد الغداء انفردت بنفسي في غرفتي أدهشني أنني اسمع
صوت سعيد يغط في نومه لأول مرة. ابتسمت وأنا أتخيل سلوكه قبل
الغداء. سعيد هذا لا بد يتكلم بي. ليس أسهل من تقبيل امرأة هنا
وداد خطيئته وتعيش مع أمها وهو يزورها ولا بد أن أمها تعطيهما
هذه الفرصة وأكثر. أجل. وأكثر. إن قبلة لا تحدث كل هذا الجنون.
وفكرت أن انهب إلى واضحة. لا بد أنها عادت من الرياض.

في السادسة كان سعيد لا يزال نائماً. لقد نعت أنا أيضاً مرة
أخرى واستيقظت ولا بد أن وجيه عاد ونحن نيام غافك ونام. كل
هذا النوم حدث اليوم في بيتنا بالذهاب.

ركبت سيارتي التي لم تخذلني رغم توقفها لأسبوع كامل. قدتها
عبر الازقة دائراً حول الشارع العام مراعيًا الحفر والمطبات التي
قد تؤثر على الجرح الذي نزعته خيوطه فقط في الصباح. وجدت
الشرطي يقف وسط الطريق يمنع تقدمي. يا الله. لقد نسيت وما
أنذا أجد نفسي أمام البيت الموقوف به سيد الغريب. الشرطي
يأمرني أن أدور من جهة أخرى. منعوا المرور من الشارع إذن.
ورأيت الغريب يجلس في الشرفة يرتدي عباءة سوداء وفوق رأسه
مصباح شحيع الضوء لكنني رأيت وجهه جيداً. لا أعرف إذا كان
رأى وجهي أيضاً أم لا غانا أقف في الظلام.

درت بعيداً عن البيت وأخذت ضريقي متمنياً فجأة أن لا أجد

واضحة. أن لا أكمل معها الدرس اليوم أيضاً. لكنها هي التي
استقبلتني. اتسعت عيناها بفرح طاع ولم تتكلم. أخذت يدي بين
يديها، وجذبتني لأدخل غافلة عن جرحي وقلة قدرتي على الحركة
المفاجئة.. لكنني مشيت واحسست بالقوة تدب في روحي، ولما دخلت
إلى الغرفة لم أجدها معي.

انتظرتُ طويلاً. في كل لحظة كنت أتخيل دخول شخص آخر إلى
الحجرة. خالد أو جدها العاجز أو أمها التي لم أرها أو أيوها الذي
لم أره أو أي من أخوتها الذين لم أراهم، ولم يتوقف قلبي عن
الخفقان حتى رأيتهما. غيرت ثيابها وعادت ترتدي فستاناً طويلاً،
كحلي اللون، به ورود بيضاء، وعلى كتفها شال أبيض، وتركت
شعرها محلولاً على كتفها وظهرها، وفي ريسغها أسوارتان من ذهب
مرصعتان بالياقوت الأحمر، وعلى صدرها كانت وردة ذهبية معلقة
بسلسلة، وعلى أوراق الوردة فصوص من الياقوت الأحمر أيضاً،
ويسبق كل ذلك عطرها في الطريق.. وجدت نفسي أقف وأمد يدي،
فمدت لي يديها، وأخذتهما، واقتربت مني ثم مالت إلى مقعدها،
فتركت اليدين وجلست وجلست قبالتها أتأمل وجهها وعينيها.
أصابها شحوب قليل في الرياض.

- كنت خائفة أن لا تأتي.

- استئصال الزائدة ليس أمراً صعباً.

- لا أريدك أن تشرب من المياه الحكومية.

- قيل لي ذلك لكنني لا أحب المياه المعدنية.

- سأرسل لك منها كميات كبيرة.

- لا احبها حقاً.. ثم ان الانسان لا يملك اكثر من زائدة دودية واحدة.

ابتسمت وقالت:

- لم استطع الحضور لزيارتك.

- هل نبدأ الدرس؟

تَسَاءَلْتُ بِغِيَاءٍ وَمِنْ غَيْرِ قَصْدٍ كَعَادَتِي السَّخِيفَةِ، وَسَكَنْتِ وَأُطْرَقْتُ ثُمَّ رَفَعَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ بِهِدْوٍ وَالْم:

- لماذا تستصغر شأنني؟

وانفجرت في بكاء غير متوقع.

- واضحة.

هتفت هامساً.

- أنا ارسلت اليك خطاباً من الرياض. ألم تقرأه؟

- انا لم اذهب الى العمل بعد.

وظلت الدموع تسيل على وجنتيها، فَاخَذْتُ مَقْعَدِي وَاقْتَرَبْتُ مِنْهَا، وَيَذْرَاعِي الْيَسْرَى أَحْطَتُ كَتْفَيْهَا، وَيَمِينِي رَفَعْتُ وَجْهَهَا إِلَى فِئَازِهَا تَمِيلُ بِرَأْسِهَا عَلَى صَدْرِي وَتَتَنَحَب.

أَسْمَعُ الْآنَ أَنْفَاسَهَا وَقَلْبَهَا وَأَشْمُ عَضْرَهَا الْغَامِضُ وَأُغْرِقُ بِوَجْهِي فِي شَعْرَهَا النَّاعِمِ الْعَنِي.

- واضحة.

فَمَسَّتْ فَرْعَتُ وَجْهَهَا إِلَيَّ، اتَّسَعَتْ عَيْنَاهَا بِأَلْقَى رَأْيَتِهِ فِيهِمَا مَرَّةً وَارْتَعَشَتْ شَفَتَاهَا بِرَغْبَةٍ رَأَيْتَهَا عَلَيْهَا مَرَّةً وَالتَقْتُ لَا شَعُورِيًّا إِلَى الْبَابِ فَهَمَسَتْ لَا تَخَفْ، أَجَلٌ هِيَ الَّتِي قَالَتْ ذَلِكَ وَلَا أَحَدٌ غَيْرُهَا.

هي واضحة التي في صدري الآن. ومددت يدي اليمنى إلى ابطنها الأيسر فأحسست بنهدها صغيراً تحت كفي وبأنها خفيفة كحمامة وأنا أقيمها لتقف وأقف. كيف طالت واستطالت؟ أم لعنني انا الذي انحنيت. صارت في حضني غني على فمها واشد عليها بكل قوتي وأكل بشفتي شفتيها وتصطدم أسناني بأسنانها وفي اللحظة التي ابتعد فيها وجهانا لا تنقطع أنفاسي رأيت الفرح يكاد يقفز من عينيها، ومن جديد ضمممتها إلى صدري ورحلت اعتصر رضابها وأحسست بشفتيها تتحركان مع شفتي وبينهما وحولهما. إنها لا تترك نفسها لي بل تقبلني أيضاً. نسيْتُ أن هناك باباً مفتوحاً وإن الموت معلق فوق رأسي وفي اللحظة التي بدا فيها أنها ذابت وتلاشت رأيت على وجهها طيف وجه آخر. وجه عابدة. ابتعدت برجعي وتأملتها. مغمضة العينين الآن. عدت أقبليها ونزلت بها إلى الأرض وأحسست بألم في الجرح وفكرت في جرأتي وعواقب ما أفعل هنا في بلد ينقل فيه الهواء الكلام ووجدت نفسي أقف بصعوبة. ألني الجرح حقاً رغم اني اساعدها على الوقوف معي. فتحت عينيها وبنت كأنها استيقظت من حلم بعيد.

- لا تخرج الآن. لا تجعلني أشعر بذنب.

- اجلسي يا واضحة.

- اجلس انت أولاً.

جلسنا معاً كل إلى مقعده. اطرقْتُ واطرقْتُ هي. لا أعرف فيما كانت تفكر لكنني أعرف فيما فكرت أنا.

قطعت عابدة علي الطريق وقالت أثناء الحديث إنها لن تفكر في الزواج قبل أن يشفى هشام ويمشي على الأرض ولو كلفها ذلك

عشرين سنة هنا. وها هي تعود الآن وتطل بوجهها عليّ.

— هل تأخذني معك الى مصر؟

— آخذك يا واضحة ولن آخذ غيرك.

قامت وأخذت رأسي في صدرها وقبلته وقالت كأميرة مزهومة:

— يمكن لك ان تنصرف. لا حاجة بي إلى درس اليوم.

جسدي حي وليس شيء أعيش فيه. حي. حي. حي. وفتحت نافذة السيارة رغم شدة البرد وهفت نفسي إلى حدائق من الورد. لقد استيقظت كل حواسي تريد الاشباع. ليس من العدل في هذه الدنيا اغلاق الحواس. لكني لا استطيع دخول البيت عارياً أرقص. لا بد أن أخفي عن سعيد ووجيه كل شيء. ادخل كما خرجت. روح متعبة غليل جسدها تنتظر الشفاء. كذب سعيد علي ولم يقبل وداد ولا فاز منها بشيء أكثر أو أقل.

أم. ما اجمل أن تجاهد أن لا تفشي سرّ الحب. تلوك نذرة وتجنر سروراً وتعلو وتعلو وتعلو والناس حولك سذج بلهاء.

عدت إلى البيت فوجدت سعيداً ووجيهاً يقفان في غرفة المعيشة ومعهما صالح ابن صاحب البيت. هلا يا استاذ. لماذا انقطعت عنا؟ خاطبني ولكن من ذا الذي يأخذني إلى الأرض بسهولة. أرض الغريقة التي حملوا منها المنضدة ووضعوها في الردهة فصارت راسعة احاطوها بالحشايا. لقد وضعوا جوار التلفزيون فيديو فوقعه افلام أيضاً.

— استعرنا الفيديو من صالح الليلة فقط.

— عيب يا دكتور يبقى عندكم لحين ما تزفون. اترككم في امان الله.

— اجلس.

خاطبني سعيد. «ابدل ثيابي» قلت. والى غرفتي مضيت. وعدت بعد أن بدلت ثيابي وضرت أخف وزناً مما كنت فوجدتهما فرشاً الأرض يزجججان البيرة «موسى».. وجلس ووجيه في يده زجاجة صغيرة بيضاء وفي يده الاخرى «قطارة».

— كحول من المستشفى. ساضع نقطة في كل زجاجة والشاطر يصمد.

قال ووجيه. وسعيد خرج الى المطبخ وعاد يحمل صينية كبيرة فوقها ثلاث دجاجات محمرة وقطع كبيرة من الكباب. «متى طهوت كل ذلك؟» «اشتراه ووجيه. اتفقنا ان نشتري كل شيء الليلة. الليلة نبخع».. وضحك وأنا الذي لم اجتفل من قبل برأس السنة. وكنت اکتفي بالبقاء في البيت والفرجة على التلفزيون. رايت سعيداً ووجيهاً كأنهما ريفيان ينزلان المدينة لأول مرة.

— إختزلنا فيلماً نبدا به.

أمسكت الافلام الاربعة. دكتور جيفاكو. فرانكشتين. قبضة بروس لي. البعض يفصلونها ساخنة. أي خليط؟ ليس من بيننا فيلم جنسي عني أي حال. نبدأ بمارلين مونرو وجلسنا نشرب ونأكل والفيديو يعمل ولا ننظر اليه. وأفقدتنا قضية الكحول كثيراً من توازننا. «كل كثيراً حتى لا تسكر». يقول ووجيه. «عليك اللعنة». يرد سعيد وينشد:

«لا تبك ليلتي ولا تطرب إلى هند
واشرب على النور من حمراء كالورد»
ونضحك ويقول وجيه لكن هذه صفراء ويزداد ضحكاً، وينشد
سعيد:

«يا خليلي من بني مخزوم
غلاني بماء بنت الكروم»

ونضحك ويقول وجيه ولكن هذه بنت الشعير. يقول سعيد
«بنت كلب» ويزداد صراخاً. وقلت لهما أن يسمعا، فاستعت
عيرتهما ينتظران ما سأقول:

«والله ما ادري بأية علة
يدعونها في الراح باسم الراح»
«الرايحها ولروحها تحت الحشا
لم لا تريح نديسها امرتاح»

ولا بد أن البيت زلزلت أركانه من صراخنا. سألتني سعيد كيف
أعرف هذا الشعر. قلت أعرف الكثير يا سعيد. قال لماذا تخفيه عنا؟
هيا نشرع في المباراة، لكنني اطلت النظر إليه. بكى فجأة وأشار إلى
الطعام وقال إن نبعد الحمار «أي حمار؟ لا أرى أمامي إلا أنت».
قال وجيه، وانطلقت أصرخ ضاحكاً، لكن سعيد استمر يبكي. بل
فرع وقام مبتعداً ناحية الحائط وقال إن الحمار يضع رأسه في
الاكل ولا بد أن نأخذه بعيداً. وراح يكرر ذلك وسمعنا طرقات
سريعة عن الباب الخارجي تكاد تحطمه فقمنا، وفي الزدفة
ضحكت، وفتحت فمي أشرب الهواء البارد. ما كنت أفتح الباب

حتى دفعوني جانباً واندفعوا إلى الغرفة، ثلاثة جنود كأنهم شياطين
تلمع أزرارهم النحاسية، وتبدو أحذيتهم ضخمة كأنها كتل من
البازلت تسقط متتابعة فوق الأرض، ويدخل برء شديد معهم إلى
الزدفة وإلى روجي، ويدخل خلفهم ضابط شاب قال: «احملوا كل
شيء كما هو». ورايت المسدسات في أجنابهم بارزة، وسحب أحدهم
ملءة السرير، ووضع فيها كل شيء. وحين اصطدمت قدمه بزعجاجة
الكحول فانسكبت، لمحت وجيهاً يتنفس بارتياح.

بملايسنا المنزلية أخذونا في العربة الجيب التي مضت
والصمت فيها والظلام حولها والبرد. وإلى غرفة خالية من الاثاث
ادخلونا بقسم الشرطة. حولنا الجدران الباردة وتحتنا الأرض
المثجة. وليس معنا غير بكاء سعيد لوقت طويل من رأس الحمار
التي ظلت تخيله.

في الصباح أخذونا إلى غرفة الضابط المسؤول. ضابط كبير ذو
رتبة كبيرة ابتسم لوجيه وقال:

- يا هلا يا دكتور كيف صارت الليلة؟
ابتسم وجيه وقال:
- أسأل تلعيذك الذي حبسنا يا أبا حكيم.
- هذه عندي يا دكتور.

وأشار للضابط الشاب الذي قبض علينا أن ينصرف، وطلب لنا
قهوة. وراح يقلب أوراقاً أمامه. جاء شيخ مسن يحمل الإبريق
والفنجان، وطاف علينا، وشرب وجيه وسعيد مرتين، ولم أشرب. لا
قيل لي بالقهوة العربية المرة، وفجأة هتف أبو حكيم:
- إيش هذا؟ صالح بن سنيور الثقفي. هذا مخبل.

ونظرونا الى بعضنا، وفهمنا أن صالح ابليغ الشرطة اننا نسكن
ونثير ضجة ونُفزع السكان، واستمر أبو حكيم:

- هذا مخبَل بن مخبَل. الا تسكنون في بيتهم يا دكتور؟
- نسكن.

- لماذا العداوة إذن؟

- لا أدري يا أبا حكيم.

وضحك أبو حكيم وامسك بالقطارة الصغيرة.

- لماذا هذه يا دكتور. تضعون الكحول في البيرة؟

- هذه لعيني يا أبا حكيم.

- تضع في عينك خمرة.

وضحك ولم نضحك، بدأ يتحول بالحديث.

- أنت تعرفني، وتعرف كيف اختار أصحابي يا أبا حكيم.

- اعرفك والله زينة المصريين. انا سأترككم، لكن المشكلة أن

الولد الم لازم يُبلغ مدير مدرسة هذا - وأشار إلى سعيد - ومدير

المدرسة هاتفنا طالباً نرحيله.

وسكّت قليلاً ثم قال لسعيد:

- لك حق كبير عندي يا استاذ لكن هذا ما صار.

١٨

تأقت نفسي إلى العمل، وها انذا أقود سيارتي بسرعة وافتح
نافذتي السيارة لهواء الصباح البارد ولقطع الضباب.

قطعتُ إجازتي وذهبت. لم يعد ممكن البقاء في البيت وقتاً طويلاً.
لقد عدنا من قسم الشرطة أمس إلى البيت في صمت. تركنا وجيه
ونذهب إلى المستشفى يسبق انتشار الخير. قال ان الامر يختلف
بذهابه أولاً. ودخل سعيد البيت مستسلماً. بدّن ثيابه وسأفته إلى
أين؟ قال إلى المدرسة، هل تظنهم يُرحلونني وأنا هنا؟

أخذت حُماماً ساخناً بعد النيلة الباردة، ورايت الجرح أحمر.
ومكان الخيط كأنما عقرب مشى فوق جلدي، وترك بصمات أقدامه.
وضعت فوقه ضمادة جديدة، ونمت وأيقظني سعيد في الثالثة عصراً
فرايت كأنني أراه لأول مرة. سُرُحِل سعيد إذن وسأُساه إلى الأبد.
قال وطلعنا الغداء بيننا نأكله على مهل:

- كنت اعرف أن مصيبة في انتظاري.

- لكك كنت فرحان طوال الامس.

- كنت اكذب، لم أَقِيل وداد، قابلتها فقط هناك مشكلة قائمة

بيننا منذ شهور.

ولم أريد.

- لها ابن عم يعمل محاسباً في مصر ويريدها منذ زمن. سافر إلى الكويت ونجح في أن يحصل لها على عقد عمل أفضل وتريد السفر.

- لكنها كانت ستعود معك هذا العام وتزوجان، لقد قلت لي ذلك.

- قلت له. بل وكنا متفقين، لكن ماذا تنتظر أن يحدث لشخص التهم أهله نصف ثروته والتهم النصابون نصفها الثاني؟

وقام وحمل أطباق الطعام دون أن يدري أنني لم أنته فقامت وحملتها معه. ما كدت ادخل غرفتي حتى بدلت ثيابي وخرجت مسرعة بالعربة لا أبالي بجرحي ولا بالمطبات في الأزقة. أي دافع خبيث كان وراء شكوى صالح؟ كيف اقنع الشرطة أن تدهمنا؟ ووصلت إلى بيته ووقفت أدق الباب دقائق متتابعة.

- من؟

جامعي صوت امرأة عجوز واهن من خلف الباب.

- أنا اسماعيل. أين صالح؟

- صالح من؟

- التقيفي.

- لا احد هنا بهذا الاسم.

- صالح التميز بالمتوسطة الذي لأهله تجارة بالشارع العام.

- لا احد بهذا الاسم هنا. إنصرفت.

وسمعت صوت وقع الاقدام الواهنة تعود. تلفتُ حولي. يعني ويساري ووزائي. هذا هو البيت وليست هذه مدينة سحرية يختفي

فيها كل ما تراه. ركبت سيارتي مرة أخرى واندفعت الى الشارع العام.

- إيش تبغي يا أستاذ؟

قال بهدوء بعد أن دخلت مكاتبه. كان يقف يبيع البطاطين والاقمشة وأنا انظر اليه بغيظ شديد. لم ينتظر ردي.

- تبغي بطانية، جلد نمر لدينا جلد نمر يحبه المصريون جداً. مصري انت يا أستاذ؟ أليس كذلك؟ تبدو جديداً في تيوك.

وكان يتلفت اثناء الكلام إلى ولدين رايتهما عنده من قبل، ويتسمان في استمتاع.

- ما تبغي شيئاً؟ إذن أفسح مكاناً لغيرك الله يرضى عليك. تشرب بارد يا أستاذ؟

وأدركتُ حماقة ما أفعل. هذا الولد الذي لم يبلغ العشرين يسخر مني مرتين ولا سبيل للانتقام. عدت على مهل الى البيت. دخلت الغرفة ونظرت الى نتيجة الحادث. الاول من يناير عام ١٩٧٩. آه لو انتهى هذا اليوم وليلته وذهبت الى عملي في الصباح. ورأيت سعيداً وهو يُخرج حقائبه استعداداً للسفر. قال إن المدرسة أرسلت تطلب رأي الوزارة والرأي سيأتي بالترحيل خلال أيام. هو يعرف ذلك. وقال فجأة ما كان عليك أن ترفض التدريس لصالح. قلت أنا لم أرفض، فقط رفضت أن أتقاضى أجراً نظير الفرجة على افلام جنسية. قال أنت لا تعرف هذه البلاد. صالح يستخدم الرشوة مع كل المدرسين من كل الجنسيات. لا يرفض أحد رشوته

ولا هديته. رفضت أنت أن تكون له انيد العليا. هذا شيء لم يخطر
ببالي قط يا سعيد، صالح أصغر من أن يفكر كما تقول. صالح تاجر
يا اسماعيل. معظم التلاميذ هنا تجار. صفار السن لكن لهم نفوساً
كباراً. أريكني سعيد وقلت هذه نفوس مريضة. قال ربما هي بريئة
برائة الاطفال تتألم لأقل اذى ولا تعرف كيف تدافع عن نفسها. هنا
لو اعطاك أحد شيئاً خذه بلا تردد. ولو طلب أحد منك شيئاً افعله
أو أعطه أملاً حتى ينسى فأنت لا تعرف كيف تسمير الريح. طال
سكوني ثم قلت اني ذهبت إلى صالح منذ قليل. ابتسم ساخراً وقال
اسعدته بالمجان.

في غرفة مكتبي رحت انظر الى الدولار الزجاجي والمقاعد
والساعة المعلقة في الحائط والأرض الموكيت والمكيف ذي الصوت
العالي والخازنة والمكتب المجاور لها. هذه غرفة أحبها ولا ادري.
الوقت بها يمر وإلا ما معنى هذه الشهور الأربعة التي مضت. لقد
استقبلني الجميع اليوم بفرح. الأسويرون ونبيل ومنذر وعابد
أيضاً ابتسم وعم عبد الله الذي أعجبه أن أقطع اجازتي وأحضر.
وفي التاسعة دق التليفون فسمعت صوت روز ماري. يا الهي! كنت
نسيت. قالت إنها تفعل ذلك كل يوم. وإنها تنتظر أن أقبل دعوتها
للغداء. قلت أقبّلها إذا كانت اليوم، فضحكت وكانني رأيتها ثمترء
بالفرح. لا تدري اني لا أريد العودة الى البيت. قالت ستأتي في
الثالثة بسيارتها وستابعها انا بسيارتي. وما كدت افرغ من المكاة
حتى جاء عابد من غرفته يسألني، هل قَبِلْتُ دعوة روز؟ كان
يستمع الى حديثنا فالتليفونان على خط واحد. لماذا إذن جاء

يسألني. أجبت «كما سمعت». ولم يخلق وجهه ولم يتغير لونه.
قال.

- هذا خطاب لك.

تناولت الخطاب وتاملته. ما هذا النسيان الجارف؟ هذا خط
واضح لا خطته، وهذا خطابها الذي حدثتني عنه. واضحة التي
تفجّر سرها أول أمس فقط ونسيت كأنه تم منذ زمن سحيق.

- هل تعرف أحداً بالرياض؟

لم تكتب اسمها على المظروف لكنه قرأ الاختتام.

- لي قريب هناك.

أجبت دون أن انظر اليه.

وفي الثانية عشرة، بعد أن رأيت اليمنى جالسا على الأرض
والسواك في فمه. وبعد أن ابتسم لي ابتسامة أكبر من كل مرة
سابقة، وضحكت لأنني كنت نسيت، دخل نبيل يحمل قهوة لم
أطلبها. وجلس ثم قال

- وصلني اليوم خطابان. واحد من أمي وآخر من خطيبي. ما
رايك؟

- غسيم؟

سالت مبتسماً. ها هو نبيل يعيد الي شيئاً من البهجة بطريقته
التي كنت نسيتها في الكلام.

- في الخطابين.

- انا لا اعرف ما فيهما

أَخْرَجَهُمَا مِنَ الْجَيْبِ الْأَعْلَى لِلْجَلْبَابِ وَوَضَعَهُمَا فَوْقَ الْمَكْتَبِ
وَقَالَ:

- أُمِّي تَقُولُ إِنَّ خَطِيبَتِي هَدَدَتْهَا إِنْ لَمْ أُرْسِلْ لَهَا مَبْلَغًا كَبِيرًا
تَحْجِزُ بِهِ شَقَّةَ سَتْرِكُنِي، وَخَطِيبَتِي تَقُولُ أَنَّهَا تَنْتَظِرُنِي كَمَا يَنْتَظِرُ
الْعَصْفُورُ ظُلُوعَ الصَّبْحِ لِيَخْنِي.

انْطَلَقْتُ اضْحَكُ وَأَحْسَسْتُ بِالدَّمِ يَجْرِي فِي عُرْوَقِي.
- لَا تَسْخَرْ مِنِّي. هَذَا خُطَابُ خَطِيبَتِي وَهَذَا كَلَامُهَا إِقْرَاهُ
بِنَفْسِكَ.

- كُنْتُ مُشْتَاقًا إِلَيْكَ يَا نَبِيلَ.

تَأْعَلَنِي بِاسْمًا وَقَالَ:

- أَنَا أُرِيدُ رَأْيَكَ.

- قُلْتُ لَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَسَافَرَ.

- وَأَنَا قُلْتُ لَا أَسْتَطِيعُ. أَنَّنِي أَفْكَرُ فِي حُلِّ آخِرٍ. أُرْسِلْ تَوَكُّيًّا
لِأَخِي الْأَكْبَرِ يَعْطِدُ قِرَانِي عَنِ خَطِيبَتِي، وَأُرْسِلْ إِلَيْهَا فِيزَةَ دُخُولٍ،
وَيَأْتِي بِثَوْبِ الْفَرَجِ نَعِيشَ هُنَا مَعِي.
- حُلِّ سَلِيمَ.

سَكَتَ لِحِظَاتٍ وَقَالَ:

- الْمَشْكَالَةُ أَنَّ أَخِي الْأَكْبَرَ مَخْذَلُ الْعَقْلِ قَلِيلًا وَالثَّانِي فِي السَّجْنِ
كَمَا قُلْتُ لَكَ. أَنَا لَا أَعْرِفُ كَيْفَ أَخْلَصُ مِنْ هَذِهِ الْوَرُطَةِ.

وَقَامَ وَتَرَكْنِي وَالدَّعْشَةُ مَعِي فِي الْغُرْفَةِ، لَكِنِّي أَحْسَسْتُ وَكَأَنِّي
صَرِيتُ أَكْثَرَ صَحَّةً وَعَافِيَةً.

فِي الثَّلَاثَةِ وَالرَّبِيعِ جَاءَتْ يَوْمٌ، كَانَ مِنْذَرُ الْذِينَ أَنْصَرَفُوا مِنْ
الْعَمَالِ. اقْتَرَبَ مِنِّي وَهَمَسَ فِي أُذُنِي. «عِنْدِي حِكَايَاتٌ يَا اسْتَاذَ، ثُمَّ
تَحَدَّثَ بِصَوْتٍ عَالٍ «تَكْسِرُ سَيَّارَتَكَ أَوْ أَكْسِرُ سَيَّارَتِي لِنَعُودِ كُلِّ يَوْمٍ
مَعًا». وَأَنْصَرَفَ كَالْعَادَةِ مَتَهَجِّلًا.

رَأَيْتُهَا تَقِفُ بِالسَّيَّارَةِ خَارِجَ الْيَاحَةِ وَوَجْهَهَا وَشَعْرُهَا يَلْمَعَانِ فِي
ضَوْءِ النَّهَارِ الَّذِي امْتَلَكَتْهُ الشَّمْسُ بَعْدَ صَبَاحٍ حُلِيِّ بِالضُّبَابِ. لَقَدْ
نَزَلَتْ تَصَافَحْنِي، وَكُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّ عَابِدًا يَقِفُ بَبَابَ مَكْتَبِهِ يَنْظُرُ إِلَيْنَا
فَقَدْ لَوَّحَتْ لَهُ بِالتَّحِيَّةِ.. زَكَيْتُ سَيَّارَتَهَا وَتَبِعْتُهَا بِسَيَّارَتِي. قَطَعْنَا
مَسَافَةً لَيْسَتْ بِالْقَصِيرَةِ عَلَى الطَّرِيقِ الْأَسْفَلَتِيِّ، وَدَخَلْنَا إِلَى طَرِيقٍ
جَانِبِي مَمْهَدٍ بِالْحَجَرِ الْأَبْيَضِ الصَّغِيرِ الْمَدْكُوكِ، وَخَالَيْنِي شَيْءٌ
بَعِيدٌ فِي الرَّمَالِ. كَلْبٌ أَبْيَضٌ ضَخْمٌ يَمْشِي عَلَى مَهْلٍ.

طَالَ الطَّرِيقُ وَتَرَامَتْ الصَّحْرَاءُ، وَظَهَرَتْ فَجَاءٌ سَحَبٌ رِمَادِيَّةٌ،
وَتَوَارَتْ أَشْعَةُ الشَّمْسِ، وَفَجَاءَ بَانَتْ بَيْوتٌ مُنْخَفِضَةٌ مِنَ الْخَشَبِ
الْمَدْهُونِ بِاللَّوْنِ الْأَخْضَرِ وَذَاتُ أَسْطُحٍ مَائِلَةٍ. هَذَا هُوَ الْكَامِبُ الَّذِي
يَعِيشُ فِيهِ الْأَمْرِيكَانُ. عَبَرْنَا بَوَابَهُ بَعْدَ أَنْ أَشَارَتْ لِلضَّرْطِيِّ أَنَّنِي
مَعَهَا، وَرَأَيْتُ ثَلَاثَةَ صَفُوفٍ مِنَ الْبَيْوتِ تُشَكِّلُ ثَلَاثَةَ أَضْلَاعٍ لِمَرْبَعٍ،
وَكُلُّ بَيْتٍ يَنْفَصِلُ عَنِ الْآخَرِ بِحَدِيقَةٍ صَغِيرَةٍ دَائِرِيَّةٍ يَحُوطُهَا سِيَاجٌ
مِنْ شَجَرٍ قَصِيرٍ. بَيْنَ جِدْرَانِ الْبَيْتِ وَسِيَاجِ الشَّجَرِ زَهْرُورٌ شَتْوِيَّةٌ
مُخْتَلِفَةُ الْأَلْوَانِ.

- هَذَا مِنْزِلُنَا.

قَالَتْ بَعْدَ أَنْ تَوَقَّعَتْ وَتَرَكَّتْ سَيَّارَتَهَا، فَتَرَكَّتْ سَيَّارَتِي وَصَعِدَتْ
ثَلَاثَ دَرَجَاتٍ بِيَضَاءٍ. أَدَارَتْ الْمِفْتَاحَ بِالْبَابِ وَقَالَتْ لِي أَنْ ادْخُلْ.

لماذا لم تدق الجرس؟ ماذا سيحدث معي اليوم؟ أليكون اليوم أيضاً لخطأ جديد؟ تقدمتُ أمامي وخطوتُ خطوة مرتبكاً، لكنني سمعتُ صوتاً أجش يتحدث الانكليزية ويسألها هل أتيتُ معها. هذا مستر لاري بالتأكيد. تنفستُ بارتياح ووجدته أمامي يستقبلني في الطرفة القصيرة فابتسمتُ. لا أدري لماذا فكرتُ أنني رأيتُ تربة الحديقة سوداء. طويل مستر لاري وقوي البنيان، يرتدي أوغريول أخضر كاكياً يتروّد إلينا في المكتب كثيراً وهو يرتديه. يوحي إليّ أنه رجل عمل ولا ينبغي للزيارة أن تطول. لم يكن. لكن من أين حقاً جاءوا بالتربة السوداء؟

- هالو مستر اسماعيل، هاؤدي يودو؟

- هالو مستر لاري.

وشدني من يدي إلى الداخل ورأيتُ روز تبسم لنا ثم تسبقنا وتختفي.

جلسنا في صالة واسعة في ركن منها مكتبة بها كتب واسطوانات وشرائط كاسيت وتليفزيون وفيديو وبيك آب وستريو. في ركن آخر دولاّب زجاجي أنيق عريض وقصير به رفوفه تحف صغيرة، وفي الركن الثالث منضدة سوداء لامعة بسيطة حولها أربعة مقاعد يقابلها في الركن الأخير الأنتريه الذي نجلس فوق مقاعده. أنتريه بسيط من الخشب السويدي فوقه حشايّا منفصلة. لاحظتُ أن المنضدة شبه مجّهّزة، عليها مفروش أبيض به ورود خضراء، ورفوفه ثلاثة أطباق كبيرة وثلاثة أطباق صغيرة فارغة كلها موزّعة أمام ثلاثة مقاعد، وجوار كل طبقين سكين وشوكة وملعقة، وإلى الجانب دوري مياه وثلاث علب من السفن آب وثلاثة أكواب.

- بيرة مستر اسماعيل أم عصير؟ لدينا بيرة محلية - وغمر بعينه - وبيرة..

- عصير.

قلت بسرعة حتى لا يعود إلى ذكر البيرة مرة أخرى. لا أريد أن يذكرني أحد بالليلة قبل الماضية.

قام واتجه إلى ثلاثة صغيرة لم أظن إلى وجودها، وأخرج منها زجاجة من عصير الليمون، وملاكياً قدمه لي. راح يتحدث بصوت عالٍ بالانكليزية غريبة معجونة بلكنة اميركية تأكل نهايات الحروف، وسمعتُ روز ترد عليه من مكان لا أعرفه ولا أراها منه، ولم أفهم مما يقولان شيئاً.

لحظات وأقبلتُ روز باسعة في ثوب أخضر زاهٍ قصير يكشف عن ساقيها حتى الركبتين، ومفتوح طوقه يكشف عن جيد عالٍ مؤسّس على كتفين ممثلّتين وبصدر ناهد. أحاطتُ روز عنقها بعقد من اللؤلؤ الأبيض اللامع وتعطرت عطراً غامضاً يجذب مني أنفاسي. ليست هذه روز الجميلة التي رأيته ترتدي الجينز. هذه امرأة تحمل دعوة على صدرها وفي عينيها. ولعلها أدركت معنى نظراتي فابتسمت.

- مالك مستر اسماعيل؟ أراك شردت بذهنك.

سألتني بعد أن جلستُ أمامي جوار زوجها. ماذا تريد مني روز بهذا السؤال؟ أجبت:

- لا شيء.

- هل تخاف طعماًنا؟

ضحك لاري بصوت كاد يهز جدران البيت، فنظرتُ إليه في

دهشة ممزوجة بالاستياء، فبدأ خجلان وهو يقول:

- لا تخف مستر اسماعيل، نحن جميعاً غرباء، طعام الغرباء لا يختلف.

وسألتني روز:

- ألسنت سعيداً في العمل مع مستر عبد الله؟

- مستر عبد الله شخص ممتاز، لا بد أنكما تعرفانه أكثر مني،

مستر لاري يعمل في المؤسسة وأنت في حضارته.

وظللنا الصمت، بدأ أني تجاوزت حدود اللياقة، قالت روز بعد

قليل:

- فعلاً، مستر عبد الله شخص ممتاز.

وعدنا إلى الصمت، هل ييوخ النقاء؟ هل ينتهي الكلام بهذه

السرعة؟

لكن مستر لاري سألتني:

- هل أنت من القاهرة مستر اسماعيل؟

- أنا من الاسكندرية.

- أوه، مدينة جميلة.

- هل زرتها مستر لاري؟

- لا، قرأت عنها رباعية داريل، لا بد أنك قرأتها، روز تقول أنك

مثقف جداً.

أدهشني إطلاؤه الكاذب وقلت:

- اختلفت الاسكندرية الآن، لم يعد بها اجانب ولا يهود بالذات.

- لكن اليهود يهودون الآن مستر اسماعيل.

- لا أظن مستر لاري.

قلت ذلك ونظرت إلى ظهر روز التي استأذنت وقامت لتحضر

الطعام. ظهر يديع التقسيم، كدت انهض واحتضنه، وربلتا ساقيهما

تلمعان بألق غريب. لكنني تنبّهت لنظرات مستر لاري، فأنطقت:

قام هو ووضع في الستريو شريطاً انسابت منه موسيقى خفيفة

منعشة، وعاد يجلس صامتاً وأنا لا أستطيع أن أمنع نفسي من

أن اختلس النظر إلى روز وهي تأتي لتضع شيئاً فوق السفرة، أو

تعود إلى المطبخ، وعاد يسألني:

- هل تظن حقاً أن اليهود لا يذهبون إلى مصر الآن؟

- يذهبون ولكن لا يهتم بهم أحد.

- لكن السادات يتحدث عن السلام كل يوم.

- السادات ليس الشعب المصري مستر لاري، بيننا وبين

اسرائيل دم كثير.

وسكّت وسكّت وعدت أشعر بأنني أقصد كل شيء، قلت ليكن، لكن

روز وقفت فاردة ذراعيها تقول بصوت مبهج:

- كل شيء جاهز الآن.

قمنا للمائدة ولم يكن الغداء مختلفاً، كان بالضبط كما قال

لاري، طعام الغرباء، شرائح من اللحم البارد، وشرائح من اللحم

الساخن، وارز قليل، وخبز أقل، وخضار سوتيه، وطبق كبير من

السلطة، وزجاجة نبيذ أحمر بريتالي عليها علامة الفريسان الثلاثة.

قال لاري:

- يجب أن نعتذر لأننا نقدم إليك نبيذاً انتقل بالطائرة.

لم أفهم ماذا يقصد، فقال:

- النبيذ يفقد الكثير من مذاقه حين ينتقل. أفضل نبيذ تشربه في مكانه.

- هذه مسائل دقيقة مستر لاري وأنا لا أشرب الخمر.

غيرت روز الموسيقى، وأدارت اسطوانة تحمل غالسات لشتراوس، وسألني لاري ما إذا كنت أحب الموسيقى، فتحدثت عن سترافنسكي وطقوس الربيع ونشايكوفسكي ومارش السلاف. وبدأ لاري معجباً بثقافتني الموسيقية التي أعرف أنا مقدار بساطتها، وحين قال انه يحب كثيراً موسيقى هايدن، قلت هذا الرجعي الكنسي لا يصمد دقيقة أمام فاجنر مثلاً. وبدأ أن الجرتكهرب بحق هذه المرة. لكن روز ابتسمت وقالت بتفوق تحسد عليه، لماذا حقاً لا تأكلون في صمت، وتستمعون إلى فراشات شتراوس وهي تحلق حولنا.

بعد الغداء قالت روز إن بالكامب سينما ستعرض اليوم «التانجو الأخير في باريس»... وقال لاري:
- أظن أن مثل هذه الأفلام تمنع في مصر.

كنت أعرف أنه يريد أن يثال مني بأي طريقة. وأنا الحقيقة لا أدري حتى الآن لماذا بادرت به بالعداء. قلت:
- نعم، هي مصنوعة في مصر.

ابتسم كمن ظفر بفريعه، ولم يضايقني أنه وجد قرصة للثيل مني. لكنه سقط في الفخ، وقال لي أن أدخل لأنام في غرفة نومهما إذا كنت مرهقاً. أدركت أنه يعرف أنني كشرقي سأرفض وأنصرف.

رفضت لكنني لم أنصرف. قلت سابقاً جالساً حتى أرى الفيلم.

كان لاري ضعيفاً هشاً بحق. تكلم فجأة عن اميركا وقال إنها ليست كما نراها في الأفلام. في اميركا فقر وجوع، وأنه شخصياً بذل جهداً كبيراً حتى يأتي الى المملكة السعودية. بدا لي وكأنه يتحدث مع مسؤول سعودي يملك قدره، لكن روز التي جلست جوارني بعد الغداء طول الوقت، كانت تبدو دائماً أكثر ثقة في نفسها.

حين خرجنا إلى السينما كان الجو أكثر برودة. ربما لأننا هنا وسط صحراء واسعة. شاهدت أكثر من رجل وأمرأة يخرجون من البيوت، ويمشون على مهل يضحكون ويتحدثون بصوت عال، ويتجهون جميعاً إلى السينما التي وجدتها صغيرة أنيقة ذات مقاعد جلدية وثيرة ومكيفه الهواء.

جلسنا، ودار الفيلم الممنوع في مصر، وخرجت مسحوراً بأداء مارلون براندو، ولكنني رأيت عم عبد الله ينظر الي في دهشة. كان بالسينما أيضاً، وكان في صحبت اميركي قصير وضخم. بدا أنه امتعض لرؤيتي، لكنه تجاهلني ومشى في طريقه مع الاميركي. ارتبكت قليلاً ثم وجدت نفسي افكر في الرقصة الاخيرة الجميلة في الفيلم، ومارلون براندو يخلع سرواله فتفر أمامه النساء العجائز، ثم اندهشت للغاية وأنا اذكر مارلون براندو وهو يطلب من الفتاة الصغيرة أن تضع إصبعها في مؤخرته، وكيف راح يتلذذ بألم وهي تفعل ذلك.

صرنا نتنفس الصمت ونأكله. سعيد بفعل كل شيء بهدوء. يقوم ويجلس كأنه خيال. يأكل كأن أسنانه تعمل وحدها وعلى مهل. لا يتكلم ولا يفتح التليفزيون يصلي كثيراً ويقرأ في القرآن بلا صوت. وأنا عرفت أن عايده رحلت عن شوك فلجِئْتُ بِصَمْتِهِ.

في طريق عودتي بعد دعوة روز ماري أحسست بألم في الجرح. كان الوقت ليلاً والبرد شديداً والظلام حولي يُضَيِّقُ الخلاء الواسع، وضغط البول شديد في مثانتي، فأوقفت السيارة ونزلت، وجوارها وقفت ورأيت الدم ينفذ من الضمادة فوق الجرح. سبَّبت الحركة شقاً في مكان الخياطة إذن. كان من الممكن أن آخذ طريقي إلى البيت ويتدبر رجليه الأمر، لكنني توجهت إلى المستشفى، وقابلت «وردة» أنا الذي رغبت أن أرى عايده. أخذتني ورده إلى طبيب باكستاني، رفيع العنق، صغير الرأس بشكل مثير فقال لها إن تعالج هي الجرح، وتركنا ممرعاً حين سمع سيارة الإسعاف.

— أين عايده؟ أظن أنها لا تزال تعمل بالليل.

سألت ورده وقوبحت بسؤالي، فتورد وجهها، وتزدت في الكلام ثم قالت:

منتديات مكتبة العرب

<http://library4arab.com/vb>

- في ضيها.

- ضياء:

- أجل.

- لماذا؟

- احتاجوا واحدة منا فأصابنا الرعب وتقدمت عابدة بنفسها
تطلب العمل هناك.

- لكنني كنت هنا منذ يومين.. لم تقل لي شيئاً.

- حدث ذلك كله أمس واليوم سافرت.

- إلى هذا الحد؟

قلت بصوت هامس ووردة تنظر إلي. انتهت من وضع الضمادة
وجرت تلحق بالحادثة. كيف لم يخبرني بوجه؟ وما الذي يجعلها
تأخذ مثل هذا القرار؟ أصابني الصمت فأصاب وجهه أيضاً الذي
لم يجد أحداً يتحدث إليه، فصرنا ننتفسر الصمت وننكله!

كان عليّ في اليوم التالي أن أذهب إلى واضحة، وكنت أعرف أنني
لن أقابنها أيضاً. تلقاني خالد هاشم كعادته وأخذني إلى الحجرة
الواسعة فلم أر المكتب. وطدت نفسي إلا أنزعج.

- تفضل بالجلوس يا استاذ.

وأشار إلى الأرض. لم أجلس ولم أرد.

- والله يا استاذ واضحة مريضة جداً. منعها الطبيب من
استقبال أحد مدة أسبوعين قد تمتد إلى شهر ويعلم الله ما يحدث
بعد ذلك.

مددت يدي أصافحه فصافحني. طير صالح سنيور الثقيفي

خير السُكر في كل ثوبك. عند الباب الخارجي قال خالد:

- أعرف بيتك يا استاذ. وحين تشفى واضحة سأحضر اليك.

ولم أرد. ثقيف طاربت الرسول بالحجارة حين ذهب إليها. من
ثقيف خرج ابن جلا وطلاع الثنايا ودخل الكوفة فخلع العمامة
وأصدر أول مرسوم يهدد بقطع الرؤوس لكنني لا أظن أن صالح
ينسب لثقيف. ليس إلا طائشاً موقوراً. من يترك الجنوب الطري إلى
الشمال المترب الجاف الآن؟ وصار الصمت أعمق. وجاهدت في
عودتي أن لا أخطيء فأمر بيت سيد الغريب. ذلك الموقوف المنسي
بالخوف والخذلان لا يجب أن يصيبني الصمت إلى الأبد.

سافر سعيد ولم أذهب اليوم إلى العمل. ذهبت إلى المطار ورأيت
وجوه المصريين حولنا مبتهجة. متاعهم كثير وحركتهم دائبة
والشمس ساطعة أكثر من كل يوم وضحكاتهم عالية. إنهم عن
أبواب الفضاء الواسع. لكن سعيد صامت وأنا يزداد صمتي.

عدت إلى البيت وقرأت الصحف التي اشتراها بوجه ولم يقرأها.
يبلغ يعلن عن استئناف المفاوضات مع مصر خلال أسبوع أو
أسبوعين في أميركا. والأتباء تتضارب حول سفر الشاه. وشهيو
باختيار رئيس وزراء إيران الجديد يعلن أن إيران قد توقف تصدير
البترول إلى اسرائيل. وعشرات من الاطباء الطائفة تظهر فوق
استراليا. اجسام زرقاء لامعة تطير على غير هدى فوق الساحل
الشرقي للبحارة. ثم يتحول لونها إلى الأحمر وترسل اشارات
غامضة. والعلماء يقولون إن هذه المشاهدات هي كوكب الزهرة
الذي يبدو الآن في أقصى درجات لمعانه بحيث يمكن رؤيته انفتي

عشرة ساعة كل يوم بطريقة تخدع كل من يراه فيتصور أنه جسم متحرك.

عاد وجهه في الثالثة ودهش لأنني لم أتناول الغداء حتى عودته وقال إنه من اليوم سنتقدي دائماً معاً. قبل أن أدرك معنى كلامه فكرت في ارتفاع صوته المفاجيء، قال:

- سأعمل بالليل شهراً أو شهرين.

إذن سأضي الليل وحدي. قلت في نفسي وعاد هو يقول:

- اظن انه لا حاجة بنا لأحد يسكن معنا. أم لا تتحمل ميزانيتك نصف الإيجار؟

قلت في حسم:

- لست في حاجة إلى شريك ثالث ولا إلى هذا البيت نفسه.

- كيف؟

- هل تستطيع العيش الآن في بيت يملكه صالح سنور الثقيفي؟

كدت أنام بعد الغداء أنا الذي أعلنت الحرب على النوم الذي أعلن الحرب علي. في يومين متتاليين ضاعت عابدة وواضحة ولم يبق إلا روز ماري التي أعرف أنها لن تزيد على جملة عارضة.. والآن أيضاً ضاع سعيد فايزادت للنوم الأسلحة.

لخمسة أيام وأنا أستخدم كل سلاح حتى لا أنام. استحم أكثر من مرة في اليوم الواحد. أتناول غداً خفيفاً رغم هزائي بعد العملية. لا اجلس فوق السرير. لعب الرياضة في الغرفة وأفكر بصوت عال. لكن النوم مثل وسواس خناس ينجح دائماً في اختلاس لحظة

توتخي فيها أهداً بي فيضع فوق عيني دثاراً ثقيلاً من الظلام ويشدني من قدمي إلى أسفل ساقليين وبظلمة واقفاً فوق رأسي يرسل كوابيسه ورؤاه. يصيبني النوم بالرعب الآن وأراه جالساً أمامي في كل مكان في الغرفة بيتسم مائلاً مطمئناً إلى أنه سيد الكون. أنا يا سيدي مستعد للاستسلام بشرط أن تغير رؤاك. لماذا تداهمني بالرعب ولم أخطيء حتى الآن في حق أحد. أغلق كتاب واضعاً إلى الابد وخاب حدسي، واختفت ببساطة إغلاق يد وانفتاحها. ولا اظن أن للقصة قيمة غير ما جرى فكل ما أحسست به لم يكن غير ظلم. لم تراك تظن أنني أشتكي روز ماري التي دعطني ولا أفهم لأن سر دعوتها؟ ها أنت رأيت يا سيد العيون والأجساد، ويا باعث الحياة وسائب الأرواح، أنني ضيقت صدري أمام زوجتها، ووضعت الجنادل في طريق المياه العذبة السلسبيل. لعلك تلومني من أجل عابدة. أي خطأ في أنني لا أفهم المرأة إلا للزواج؟ أي خطأ في أنني كدت أبوح برغبتني؟ هي التي سدت الطرق وفطحت باب جرح ما له من شفاء. ستبقى هنا عشرين سنة حتى يشفي هشام الذي دهمته سيارة يوم زيارة نيكسون للبلاد. تحاصرني السياسة أنا المحاصر يا سيدي لا تنس وأتركني أنام مرة كالاطفال فلم أخطيء يوم صرحت «لأماله أنني لا أفهم الحب إلا للزواج. من كان يدريني ببساطة العقل وشفافية الروح، أنا ضحية الواجب والمبادئ العائلية البالية. لا خطأ لي ولا خطيئة رغم موت «أماله» وضياح الجميع. في زماننا لا يموت أحد بالحب إنما هي قصص قديمة كلها فما خطيئتي إن كان ذلك قد حصل؟ ألا تزال تنظر إلي رغم أنني جالس فوق المقعد أقاوم دبيبك التلمي واغراءك بأن اغفروا لحظة فوق السرير؟ سأستحم الآن ولن أعطيك اليوم فرصة. اليوم على

الأقل. حتى لو عميت عيناى وتحطمت أعصابى.

وتركت المقعد متعباً، وتمددت فوق السرير أقام رغبة في البكاء..
أملت حقاً في النساء الثلاث. لم تبق إلا واحدة لا أمل فيها. أية
خيبات تلو خيبات! خيبات أصنعها بنفسى. وخيبات تلقى في
طريقى. وشددت الفطاء فوقى وبخلت الوجوه الثلاثة معى تحته.
ورأيتهم، أولئك الحراس الأشداء سود الوجوه صغر الأسنان ذوي
الابتسامة الدائمة والنظرات الممتدة إلى الأفق البعيد العالي
يسرون الأرض ويرشونها بالماء ويقومون جداراً عالياً ويلوحون
بأيديهم للسماء فيتساقط منها أولاد صغار وأولاد كبار وشيوخ
وشبان ونساء وبنات وترتفع في الأرض أحجار ويمسك بي
الخصيان ويلقون بي إلى أعلى فأجلس فوق جبل تحيط قمته المياه
فلا استطيع النزول وأرى واضحة مكومة على الأرض جوار الجدار
رأسها بين ركبتيها وذراعيها وتستيقظ وترى الذين يدورون حولها
بالابتسامات البلهاء والذين نزلوا من السماء أمسكوا الأحجار
التي ارتفعت فوق الأرض وتفرع وتجري إلى اليمين فتراهم وإلى
اليسار فتراهم وأمامها سدوا الطريق ولا سبيل لها بتسلى الجدار
وأنا عاجز عن النزول وهي تسمع صراخى وترفع لي ذراعيها طلعاً
وحجر بعد حجر والدم ينفجر من رأسها وروز تقف على قمة جبل
قبالي انشقت عنه الأرض فجأة تضحك وتخلع ثيابها تطيرها في
الهواء وتعود الأرض وتتبسط ويصعد الجميع إلى السماء وينزاح
من حول الجبل الماء وأنزل بخطوات بطيئة أتقدم إلى واضحة التي
تكويت الآن تنهت كطفل انتهى من الصراخ بعد أن ضربوه ضرباً
مبرحاً وجلس وحيداً في ركن ذليلاً يدرك ميكراً جداً معنى الإهانة
ويذوب الجدار قطعاً من الثلج فيصير بحيرة باردة وتمسكنى يد من

ذراعى تقيمنى أنا الجالس ورأسى بين ركبتي وذراعى حول رأسى
أنهت بالبكاء وأرفع وجهى وأراها، عابدة، يتفرق الدمع في عينيها،
وامشي معها فتسقط منى في حفرة في الطريق، وأظل أمشي وحدى
باكياً أمسح دموعى بيدي ويطول الطريق وأبذل فيه ثيابى وأدخل
الشارع العام فأصرخ يا الهى ما كل هذا الجحيم؟ جسيمان في
لحظلات وأنا ما جئت السوق إلا التماسا للتعب حتى إذا نمت أنا
بعد سعاء الغوم بالغف سماء فينساني، لكن سيارات الشارع العام
كلها تعود في اتجاه واحد، وتصرخ ويعلو نغورها، وتكاد تقفز فوق
بعضها، وأتقدم مسرعاً في الشارع أرى الأفق الجنوبي أسود من
الدخان الكثيف الذي يعلو السفة اللهب التي ملأت صفحة الفضاء
بالاحمرار الجنوبي. انفجارات متوالية وأخشاب تطير عالياً وأشياء
ضخمة لا أميزها وأشياء صغيرة والرجال والنساء يقبلون مسرعين
في زعر يجعلون الأطفال أويجرونهم جراً بلا رحمة والحمم الحمراء
تسقط فوق المنازل القريبة والصراخ يختلط بكل اللغات وأتقدم غير
مبالٍ بالاختناق الذي صرت أحسه وأجري مع الغرباء أسحب
الساقطين فوق الأرض من الرجال والنساء والأطفال أعود مسرعاً
بهم إلى شعال الشارع بعيداً عن النار والدخان وصوت عربات
الاسعاف يأتى من الخلف لكنها لا تتقدم من زحام السيارات التي
تركها راكبها الآن وجروا وعلينا نحن الذين لا يعرف واحد منا
الأخر أن نحمل الموتى والمختنقين إلى سيارات الاسعاف حيث تقف
وصوت عربات الاطفاء يملأ الفضاء وتدور حول الشارع لتدخل من
الشوارع الجانبية إلى موقع الحريق الذي يلتهم نصف الشارع
العام الجنوبي كله وبرزت الخراطيم الضخمة من الأتفة لكنها
فجأة تقلت من أيدي الجنود وتتلوى على أرض الشارع كالنعاين

صار عليّ أن أجاهد لأنسي. لا شيء هنا ينسبك شيئاً. تبوك لا تنسبك «أمك ولا أبوك».. والمسألة أن الغرباء هم الذين جاءوا يبحثون عن النسيان.

ساعد انتقالنا إلى بيت جديد في انشغال ذهني بعض الوقت حيث ترك لي وجيه الأمر كله. بصعوبة استأجرت بيتاً صغيراً من غرفتين وعلى نفس الطراز العربي في نفس الحي الذي نسكنه، الفيصلية غرب البلدة، لكن عند نهايته حين يلتقي بالصحراء. بيت جديد لا تزال فيه رائحة الملاط والدهان، وتخلصت أيضاً من الاثاث الزائد ببيعه لأحد تجار «الجراج».

أحسست وأنا ادخل البيت الجديد لأول مرة أنني قادم لفوري من مصر ولم يسبق لي أن عرفت أحداً هنا. قلت لعل النوم يعيد إلي ما خلقه الله له، ونمت بعمق حقاً ولم يزعجني الفأر الذي كنا كما كان على موعد معي. دخل وغشش في المطبخ، ولم أفكر في قتله أو مطاردته. جلست وكتبت خطاباً لعائدة. أغلق كتاب واضحة إلى الأبد وهو كتاب فتحة حماقتي، وكتاب روز ماري خداع كله. فناة نُذرت للموت واضحة وما كان لي أن أخطو على دربها خطوة فأحرك

الضخمة المذعورة وتسقط فوقها حمم النار فتزداد تهوراً في التواءاتها ويهرب الجنود والمياه تفرق أرض الشارع ولا تتجه إلى القضاء ولا النار وتعر غيمة كبيرة في السماء فتظلم الأرض ويرتفع التكبير بكل اللهجات وترتفع الأندرع ضارعة أن يهطل المطر ولا مطر فتمر الغيمة غير أبهة لنا ويرتفع في الجو هدير الطائرات المروحية الضخمة الصفراء وأقرأ على جوانبها (القوات الجوية للولايات المتحدة). أجل. حروف بارزة والطائرات قريبة تلقي فوق الشارع سحباً من الدخان الأبيض وانهاراً من المياه.

مضى وقت طويل حقاً حتى وجدت نفسي وحيداً بين الخراب الشامل. كنت مبتلاً بالمياه من رأسي إلى قدمي لكنني لم أكن متعباً. أي قوة جنونية تلبسنتني أنا الذي لم يعض على خروجي من المستشفى ثمانية أيام. ولم أشعر بأي ألم في جرحي. فقط صرت أشم رائحة شواء. فحم محروق أم خشب أم حجارة أم بشر؟ لا أدري إلا أنني أرى عيسوناً ذاهلة للرجال والنساء تبحث بين المحروقين الذين يملأ صراخهم الفضاء، والساكين بعد أن صاروا جثثاً متفحمة كُشِفَتْ وجوه النساء جميعاً وسقطت أغطية الرؤوس من فوق الرجال وارتفع الأذان من المسجد الكبير وكل المساجد، وأقتربت من منطقة أم درمان التي لم تُصَبْ بسوء. الجامع يحميها لم أن أهلها ليسوا من هذا الزمان؟

ووقفت أجهت لتذكرك من الذي كنت أبحث عنه بين الموتى والمصابين. كان سعيد هو الذي ينزل معي دائماً إلى السوق. سافر سعيد حقاً وودعه بنفسه في المطار..

في نفسي أسي كنت دفنته وأهلت فوقه التراب، وعليّ أن اتوسل لله بالحمد والعرفان، فما جئت هنا لأقتل أو أموت، ولتظل الاوقات التي أمضيتها معها مغامرة حلوة أدركت منها حيوية الجسد، وانفساح الدنيا وكذبة الاخلاق. رزون ماري طمع الريفي الذي يمضي في المدينة يوماً واحداً ويعود لأهله وأصحابه يحدثهم عن فتوحات استغناها من تحذيراتهم السابقة له، ولا مهرب لي من عابدة. عابدة فقط تؤاسي جراحي الوهمية، وبها يمتلئ فضائي الذي اكتشفت خواءه الآن..

لم اكتب إلا «لماذا فعلت ذلك؟» إجابتها إن جاءت تتم القصة. وكتبت على المظروف «عابدة عبد السلام، مستوصف ضياء وكأني نفقت نفقة الازتيح تكعد النوم صديقاً طيباً. وكنت أكثر من مرة أقوم أبحث عن الفأر لأبتسم في وجهه المذعور وأشجعه على البقاء وانزاح عني كل خوف من أحد أو عني أحد. وأدركت أنه قد مضى شهر لم أر فيه روز ولم أسمع لرؤيتها ولا هي سعت كنت مهياً للنسيان إذن وخطابي لعابدة هو قطرة البلسم الأخيرة لروحي التي اعتلت بلا سبب. هو بداية الجهد لاتعاشر ذاكرة الانثى الجميلة بأنه لا انثى في هذا العالم مهياة لما هيأت نفسها له من واجب. ما الذي يمنع حقاً أن أكون فارساً نبيلاً في هذه البلاد؟ كل فارس نبيل أنقذ امرأة في تاريخ هذه الدنيا أحبها وأحبته. واليوم، وقد مضت ثلاثة أيام على خطابي لها. أقود سيارتي إلى العمل بروح اثيرية رغم السحب السود الخادعة غير المظطرة التي تحجب عني السماء. وتعزل الشمس عن أبنائها، وتضم البرد القارس تحتها، فأشعل السيجارة تلو السيجارة في كابينة السيارة مغلقة النوافذ.

رأيت الباكستانيين يقفون أمام الكاتب وحقاتهم الكثيرة على الأرض ولا يكفون عن الحركة، وأنا أميل بسيارتي عن الطريق الرئيسي لأدخل باحة مكاتب الشركة. وأوا سيارتي أيضاً ولوحوا إليّ بأنزعهم من بعيد. عشرة سياغرون اليوم إلى باكستان في إجازتهم السنوية. تسعة منهم أضوا في العمل خمس سنوات متواصلة، فيهم خمسة أنهار تعاقدهم ولن يعودوا. العاشر أرشد الذي ينتظم في القيام بإجازته كل عام، وسيعود بعد الإجازة يبدأ عامه الخامس.

ويعوني أمس وأنا أعطيهم التذاكر وجوازات السفر، وسألوني ما إذا كنت أحب شيئاً من باكستان، كلهم والذين لن يعودوا أبداً كرمهم، لكن أرشد كان يبدو مرتبكاً. لم أشأ أسأله. قلت لعلها المشاعر التي تسبق السفر الطويل. بدوا لي اليوم في سراويلهم البيضاء الفصفاضة، والجاككات الزرقاء والخضراء فوقها. وحركتهم الدائبة أمام الكاتب، كأطفال يوم عيد. ودخلت الباحة تمرخ في صدري النشوة والابتهاج.

جلست وحدي بعد أن أقبل العمال ووقعوا في دفتر الحضور. وما كنت أشرع في ترجمة بعض التقارير، حتى فكرت لم حقاً لا يأتي وجيه بإحدى زوجتيه لتعيش هنا معه؟ تجاوز وجيه الخامسة والأربعين، ودخل في منطقة الغراش الهائىء والبيت المريح، والنظرة الطيبة للزوجة الطيبة، والسعادة بما يثري الأولاد من ذكرى وهم يعادون ولو قليلاً. سيرة الأب في العزم والحب والأمل. نمط غريب من البشر وجيه حقاً يشقى ليسعد زوجتين بعيدتين تزوجهما ليبقى عنهما بعيداً!!

— شفت الباكستانيين؟ —

قال نبيل وهو يدخل الغرفة باسمًا يحمل فنجان القهوة.

- قرويد - والله قرويد. طول الليل تعال يا نبيل ساعدنا في العثور على جبل، تعال يا نبيل ساعدنا في العثور على كرتونة فارغة، إيش تبغي يا نبيل عن باكستان. يا عم لا أبقي شيئاً اتركوني انام. اسهر معنا يا نبيل فلن نراك مرة أخرى.. لقد ظلوا يغنون طول الليل.

- وأرشد -

- غريب ارشد. لم يتكلم كلمة. لماذا؟ هل تعرف؟

ولم اجد رداً. لا اعرف رداً حقاً.. وسكتنا قليلاً ثم قال نبيل:

- ما هي حكاية الأطباق الطائرة هذه الأيام؟

- أي أطباق طائرة؟

- ألا تقرأ الجرائد؟ ألا تسمع النشرات؟ أطباق طائرة في استراليا وقتلنا بعيد، في نيوزيلاندا وقتلنا بعيد، في اليابان وقتلنا أيضاً بعيد، في امريكا أيضاً بعيد، لكن في الهند وشمال العراق وتركيا يعني أن المسافة قريبة جداً.

- وماذا يعنيها من قربها يا نبيل؟

- أنت تضحك! الا تعرف؟ أطباق طائرة تعني أن الناس الذين يعيشون بعيداً عنا في المريخ أو زحل يمهدون لغزو الارض.

انطلقت اضحك بشراسة وهو ينظر الي في خجل ودهشة وأبتسامه ذاهلة لم تنته إلا بدخول سيارة وسمعنا صوت عم عبد الله وهو يدخل يتحدث لأحد بالانكليزية.
- يا نهار اسود!

قام نبيل وفُرع إثر البوفيه، وبعد لحظات وقف عابد على باب غرفتي بدعوني لمقابلة عم عبد الله.

- هل لديك مشكلات في مصر؟

سألني عم عبد الله بعد أن صافحني مستر لاري الذي وجدته معه في غرفته.

- مشكلات من أي نوع؟

- مع العمل.. مع الجيش، انا اعرف ان الكثيرين منكم يهربون.

من الجيش ويؤثرون أوراقهم.

- انا لا مشكلة لي مع أحد.

قلت وأنا اطليل النظر إلى عينيه.

- إذن تسافر بعد يومين إلى القاهرة.. «لاري» يشرح لك.

وانشغل عنا بالتليفون يدق أرقامه فقام مستر لاري وهو يقول:

- يمكن أن نتحدث في مكتبك.

سبقته وتبعني، وجلسنا على مقعدين متقابلين، ولا بد أنه لاحظ شرودي قبل أن يتكلم.

مصر. والآن. نطقها عم عبد الله فاستمع صدري بالفرح. مصر.. والآن. لعل فيها الشفاء من كل شيء. مصر. من أي بالاتصال بعائدة بسرعة البرق لا أعرف عنوان أهلها هناك فأقابل هاشم المتفائل الذي لم تحب من اخوتها غيره والذي ضرب حولها سوراً من الانتظار صلباً دون أن يدري. أي صلة تربطني بها حتى أرسل إليها برقية

يمكن أن يقرأها أي أحد؟ لا تليفون بين تبوك وضبا، لا تليفون؟
اللجنة على البترول والريال والدينار والدولار الذي لم يزل يوسع في
المسافات!

- كيف حالك مستر اسماعيل؟

- بخير مستر لاري.

- الرحلة الى مصر جميلة على أي حال.. لقد رشحتك أنت بالذات
لهذه المهمة منذ رأتك روز. قالت أنك تجيد الانكليزية ونحن نحتاج
لها.

- حدثني عن المطلوب مستر لاري..

- في هذا المظروف بوليصة شحن بضائع قيمتها ثلاثمائة ألف
دولار، عشرة صناديق من المعدات الهامة شحنتها أنا منذ أربعة
أشهر من سان فرانسيسكو بولاية كاليفورنيا ولم تصل حتى الآن.
على بوليصة الشحن كما ترى رقم الرحلة وتاريخها والشركة التي
شجنت عليها. شركة طيران لوفتهانزا الألمانية. وهنا أيضاً خط سير
الرحلة سان فرانسيسكو، نيويورك، ميونيخ، القاهرة، جدة، تبوك.

- ولماذا أذهب للقاهرة مستر لاري؟

- لأن الاحتمال الوحيد الآن هو فقدان هذه البضائع في أحد
المطارات. ومطار القاهرة هو المرشح لذلك. أنت تعرف مصر أكثر
مني مستر اسماعيل.

قال ذلك وأبتسم لكنني لم أبتسم. عاد إلي شعوري بالتحدي
أزاءه. ذلك الشعور الذي قفز مينا فجأة بلا سبب والذي أشعر به
وقد ازداد اليوم.

- لكن ألا يمكن مخاطبة هذه المطارات بالتلصص من هنا؟

- فعلنا ولا اجابة حتى الآن. مسألة غريبة مستر اسماعيل، لكن
لا تشغل بالك كثيراً. سنجد البضائع في النهاية.

وأخرج من جيب سترته الداخلي رزمة صغيرة من الريالات
ورق وقلم.

- هذه خمسة آلاف ريال لك مصروف جيب بالقاهرة. انا اعرف
أن كل شيء في القاهرة تحركه النقود. وهذا إيصال أرجو أن توفيه
عليه.

ولم اجد طريقة لأرد إليه الامانة. إنه على حق بالتأكيد. ارتبكت
لأنني لا اعرف كيف انتصر عليه. وثقت على الإيصال بسرعة فقام
يقف مبتسماً ويقول:

- عليك الآن بالاتصال بالخطوط السعودية لتحجز لك تذكرة في
رحلة بعد غد، ولا تنس أن تطلب فيزة خروج وعودة لمدة شهر أو
شهر ونصف حتى يكون لديك متسع من الوقت.

خرج «لاري» ودخل «أرشد» في نفس اللحظة شاحب الوجه لكن
في عينيه غيظ شديد، وألقى بنفسه على اقرب مقعد.
- أرشد، غير معقول:

ونظرت إلى ساعة الحائط. العاشرة. الطائرة تطلع في التاسعة.
- هل تأخرت الرحلة أرشد؟
رفع عينيه إلي وهز رأسه بالنفي. لا يزال فيهما غيظ وغضب.
- لماذا عدت الآن؟

- بوتو مستر اسماعيل.. بوتو وضياء الحق..
- هل قتلوه؟

- أيدت المحكمة العليا قرار الاعدام السابق ضده. رفضت
الالتماس الذي قدمه. بوتو لم يطلب العفو. المحكمة تعمل كما يريد
ضياء الحق.

- أرشد.. أنت صديقي. أظن ذلك. هذه المسائل الكبرى لا
يجب أن نعملها. بوتو يقتل ضياء الحق. ضياء الحق يقتل بوتو. ال
الجحيم بالجميع.

- أنا أوافقك مستر اسماعيل.. لكن - وأجهش في البكاء - لقد
هيأنا أنفسنا للسفر اليوم. أرسلنا برقيات لأهلنا وهياؤا أنفسهم
لاستقبالنا. كلنا نبكي الآن مستر اسماعيل. كلنا تحب أولادنا
وزوجاتنا وآباءنا وأمهاتنا وإخواتنا. وفأج بيكي. غلام بيكي. سرؤد
بيكي. خورشيد وجناح ومحمد. نحن نساء جداً.

ولم أكن فهمت شيئاً بعد. أصابتني الحيرة ودخل نبيل الذي
عرف بنياً سغري للقاهرة يقول بصوت عال:
- هنيئاً لك السفر.

وتوقف عن الكلام إذ رأى أرشد بيكي.
- مالك أرشد؟ مالك صديق؟ لماذا تبكي. هل هناك مشكلة حول
الكمون؟

احتجت الى قوة كبيرة أن لا أضحك، ولم يرفع أرشد وجهه اليه.
قلت لنبيل:

- نقد حكموا على بوتو بالاعدام مرة ثانية.

- بوتو. بوتو من؟ آه بوتو رئيس الوزراء.. هل هو قريبك أرشد؟
ومرة أخرى كتبت رغبتني في الضحك، وغمرت لتبيل بعيني أن
يكف عن الاسترسال في الكلام. سألت أرشد:
- أنا لا أفهم سبب عودتك من المطار حتى الآن.

- المظاهرات مستر اسماعيل اندلعت في كل باكستان. الحكومة
أغلقت المطارات. قالوا لنا ذلك هنا، وقالوا انه من الأفضل إرجاء
الرحلة بدلاً من الانتظار في جدة أو في بومباي بالهند.
وسكتنا نحن الثلاثة. كان نبيل لا يزال واقفاً. قلت لأرشد:

- لا أظن أن دولة تغلق مطاراتها أكثر من يوم أو يومين، وغداً أو
بعد ليس بعيداً أرشد..

ولم يرد. وغدنا نسكت من جديد حتى سألني:
- ماذا ستفعل الآن مستر اسماعيل.. نعود الى العمل؟

- لا. ابقوا في الكامب. سأحسب لكم ما تمضونه من انتظار أيام
عمل. لا تعلق أرشد.

وقف وقال:

- أشكرك جداً مستر اسماعيل. لا تلمني على بكائي.
وصافجني وظل ممسكاً بيدي لحظات. قلت:
- أنا احبك أرشد. وأحب كل الباكستانيين.
فشد على يدي بيده في تواضع كبير وانصرف.

لم يعطني احد فرصة الجلوس وحدي. جلس عابد معي كثيراً

يشرح لي عنوانه بالمطرية بالقاهرة وأعطاني ألف دولار لاسلمها لابييه. خرج وكان نبيل لم يتحدث معي بعد فيما يريد ولم يغادر الحجرة قدشنتي عن أميابه التي يحن إليها، إلى جلوسه في المقهى ولعب الدومينو بين السلخانية والجزارين والبشكارية الذين مهما لبسوا ملابس نظيفة تبقى بها آثار دم، ولم يطلب مني شيئاً، غير أنه سكت مرة سكوناً طويلاً وقال إنه يحلم هذه الأيام بأنه يقف على شاطئ النيل في الكيت كات ويقذف بالأحجار لتصل إلى الشاطئ. الآخر في الزمالك، حلم يتكرر كثيراً ولا يفهمه. كان يفعل ذلك وهو صبي وكان زملاؤه يحسدونه ويندهشون من هذه القوة الهائلة في ذراعه وعجزه في نفس الوقت عن السياحة مثلهم في النيل بل وخوفه الشديد من الغزول إليه. وسكت مرة أخرى طويلاً وقال لي إنه يخاف كثيراً مسألة الاطباق الطائرة التي تتحدث عنها الصحف والأذاعات، ماذا يحدث لو سقط طبق طائر على بيتهم في أميابه؟ الليبوت قديمة متساندة بالعافية ويمكن أن تحترق كلها، ولم يصدق أبداً أنها خرافات حتى الآن إذ لم يأت شخص واحد بطبق طائر أو مخلوق جاء مع الطبق وعرض صورته أو عرضه إلى الناس على شاشة التلفزيون.. لماذا إذن يتحدثون عنها إذا كانت خرافة؟ قلت له أنا لا أعرف مثلك أيضاً لماذا يتحدثون عنها، ولكنني أذكر أنهم في مصر قالوا بعد هزيمة ١٩٦٧، إن مريم العذراء تظهر كل ليلة في كنيسة بالقاهرة.. قال «المطرية وهذا حصل».. لقد ذهب مع أمه ونساء الشارع ورأها. قلت له لقد وضع بعد ذلك أن هذا كان من ترتيب المخابرات المصرية لينسى الناس الهزيمة، فضرب جيبته بيده وصرخ «يا دين النبي»، وقال إنه لا يصدقني، فلم أشأ الاسترسال، فقال إن الصحف تتحدث عن أطباق طائرة في بلاد كثيرة وهذه

علامات الساعة، وخَرَجَ ورأيت الساعة الثانية عشرة فالتفت إلى الباحة انظر إلى اليمني فوجدته واقفاً بباب الغرفة فوقفت في دهول. سيكلمني. وتقدم وصافحتني مبتسماً ابتسامته الواسعة:
- تسافر إلى مصر..؟

- أجل، هل ترغب في شيء أحضره لك معي؟

وانقبضت أسارير وجهه وتجهم وتركني وخرج يجلس مكانه يمزج السواك. ماذا كان يريد مني ولماذا سألني؟ لم أفهم، ودخل عابث إلى الغرفة وقال إنه فكر وقرر ألا يرسل شيئاً لأحد الآن لأنه أرسل مبلغاً أكبر منذ أسبوع، فأعطيته الألف دولار وأنا في دهشة مما يفعل. لكن منصور الذي انقطع كثيراً عن الظهور دخل الباحة بعربة فأنار زوينة من الغبار.

- بلغني أنك تسأل عني؟

قال وهو يدخل من الباب والقرود فوق كتفه ولم أكن سألت عنه. فكرت فيه مرة. أردت أن أخبره بانتهاء خطوبة وداد وسعيد، ليس حساً فيه، ولكن كرهاً في وداد التي لم أرها، والتي دفعت سعيد للاحتفال الذي أنهى وجوده هنا، أنا لا أعرف ماذا كان يبيت متصور لهما، لكنني لا أظن أنه يبيت إلا شراً، هل أفعلا الآن وأخبره.

قلت بعد أن جلس خلف المكتب المجاور للخازنة، ووجه نظره نحوي ينتظر اجابة:

- لم أسأل عنك وإن كنت أحببت أن أراك.

- لقد عرفت القصة كلها.

- أي قصة؟

- قصة رأس السنة. لقد وُزَّ صاحبك.

وسَكَتُ. كيف عرف بسفر سعيد هل يعرف صالح شيئاً عن منصور أيضاً؟ تجاهلت منصور وشرعت أترجم ما لم أبدأ فيه بعد من تقارير. لم يتحرك منصور من المكتب. رأيت القرد يقفز على المكتب ثم إلى الأرض ويقف ينظر إليّ كأنه يعرفني أو يحاول يتذكرني.

- تعال.

صرخ فيه منصور، وكنت أنا وقفت مذعوراً من نظرات القرد الصغير الذي احمرت عيناه، وبدأ متحفظاً لعمل ما لا أدركه. خرج منصور من خلف المكتب ووقف يمد ذراعه أمام القرد الذي لم يتجاوب.

- تعال يا كلب.

ولم يتحرك القرد. فقط نظر يميناً ويساراً. خلع منصور العقال الأسود المجدول بإحكام وطوح به في الفضاء فأحدث صوتاً كصوت سوط مروض للأسود، وأحنى القرد رأسه وتمر السوط من فوقه. فزع القرد وقفز إلى الخلف وتشقلب في الفضاء قصار وجهه إلى الباب فأسرع يجري قافراً إلى الضوء في الباحة الواسعة. «قف لا تتحرك يا كلب». صرخ منصور وهزول خلفه والعقال في يده فانزلت الغترة من رأسه إلى كتفه إلى الأرض وصار في الباحة يطوح بالعقال خلف القرد الذي صار يصرخ بصوت رفيع متقطع ووقفت أنا عند الباب

ورأيت نبيل يقف عند باب البوفيه واليمني جالساً في مكانه لا يتحرك أو يهتم، فقط توقف عن تحريك السواك واتسعت عيناه ولبعنا ووقف منصور يصرخ تعال. تعال. والقرد يقف بعيداً ينظر إليه في رعب فاندفع منصور ناحيته وطوح بالعقال في الهواء بقوة جعلتني أفكر أنه لو طال القرد لشطره شطرين لكن القرد قفز أعلى السيارة الكاديلاك البيضاء لعم عبد الله الذي غادر المكتب في المرسيدس الصفراء اليوم. دار منصور حول السيارة والقرد يتحرك فوقها عاجزاً عن الهروب أو هكذا بدا لي ولم ينقطع منصور عن فرد ذراعه اليسرى ليقفز القرد فوقها والتلويح بالعقال بهدوء في الهواء.. وكأن القرد كان يعرف نية منصور ففي اللحظة التي طوح فيها بالعقال بقوة قفز إلى أعلى وصرخ صرخة طويلة رفيعة متشنجة وعاد يقف فوق السيارة ينظر في شراسة إلى منصور. اتركه. سينزل وحده.. هتف نبيل الذي يقف بعيداً أمام البوفيه لكن منصور لم يكن في وضع يجعله يستمع إلى أحد فقد قفز يصعد السيارة من الأمام ويقفز القرد قفزة كبيرة من فوق رأس منصور وهو يصعد فانزلت قدم منصور وسقط بوجهه فوق زجاج السيارة الأمامي وشهقت خوفاً لكن الزجاج لم يتهشم ورأيت القرد يجري نحو باب الباحة لكنه لم يخرج. دار مع السور وفزع اليمني الذي لم يترك مكانه فقام لأول مرة لكنه تعثر وانكفاً على الأرض وتجاوزته القرد المصروع حتى وصل إلى البوفيه فدخله نبيل بسرعة وأغلق الباب ودار القرد مع الجدران فكاد يصطدم بي لكنني تراجعت خطوة فمر من أمامي وكان منصور قد استجمع نفسه ووقف بباب الباحة يسده بتلويحه بالعقال اللامع ووقف القرد قريباً منه لا يتحرك. كل منهما ينظر إلى الآخر في تحفز ورأيت شعر منصور أسود طويلاً ناعماً لكنه صار

منكوشاً. وجحظت عيناه واحمرت بالشر. وأرضى منصور ذراعه
تاركاً العقال فوق الأرض وتقدم ببطء فأرأى ذراعه للقرد. تعال لا
تخف. تعال يا أخي. لكن القرد جرى من جديد وبسرعة مذهلة
ناحية البوفيه الذي ظهر نبيل على بابيه مرة أخرى وفقر قفزة جبارة
إلى أعلى تجاوز بها البوفيه وسور الشركة معاً. خرج منصور مسرعاً
من باب الباحة لكنني كنت أعرف أنه لن يلحق به. عاد وحده ولم يفه
بكلمة وركب سيارته ومضى. ووقفت أنا أفكر أين ذهب القرد الآن.
لا بد قد لجأ بالكلب الأبيض الشارد في الرمال التي لا نهاية لها.

هذه هي القاهرة.

نحن فوقها الآن. لكنني لا أرى شيئاً. عاصفة ترابية تعطل هبوط
الطائرة. يعلن الطيار أننا قد نضطر للهبوط في مطار الأقصر، وأنا
الذي أحببت أرى النيل والاهرامات لا أرى إلا فضاء أصفر من
خلف زجاج النافذة الصغيرة التي خُصصت على الجلوس جوارها إذ
في ذهابي جلست كيفما اتفق وكنت مشغولاً بالخوف من ركوب
الطائرة لأول مرة.

في إيابي اليوم خيبت العاصفة بجائي، ولم أر من مصر كلها إلا
لساني البحر الأحمر منفرجين صامتين وبها هي الطائرة تُحوم دائرة
فوق القاهرة أكثر من مرة وأشعر بدورانها والعاصفة الترابية لا
تتيح لي أن أرى شيئاً. وأفكر فجأة أن لا أعود إلى المملكة فلن يسأل
عني أحد ولن أضر أحداً والخمسة آلاف ريال التي أخذتها تركتُ
في عملي أكثر منها راتباً لم اتقاضه ومكافأة واجازات لم أقم بها،
وعلى السادة الركاب البقاء في مقاعدهم وربط الاحزمة استعداداً
للهبوط وأنشغل بالجلوس في وضع مستقيم واسمع تمننات بآيات
قرآنية حولي وأرى الصمت الرهيب مطلقاً فوق الرؤوس إذ سيهبط

الطيار رغم العاصفة، ورجاء إطفاء سجايركم ويطول الصمت حتى لكان الطائرة حجر ترتطم عجلاتها بالأرض بقوة ولا صوت فزع ويعلو صوت محركاتها ويشند صراخها وهي تجري الآن فوق الأرض نهنتكم بسلامة الوصول والساعة الآن الثالثة بعد الظهر بتوقيت القاهرة ودرجة الحرارة في الخارج خمسة مئوية وأسمع صوت عريات الاسعاف والحريق لكن المضيفات المصريات يقفن بيتسمن لنا هي أنن مجرّد استعدادات ويطول الوقت قبل أن تفتح الابواب وتفتح فنجري الى الاوتوبيسات الصغيرة تصل بنا بسرعة إلى صالة الوصول فزارها خالية تقريباً وما تكاد تنتهي اجراءات دخولنا حتى تصل حقائبنا وكل شيء يتم بسرعة مستر لاري ولا تقل لي انها العاصفة القرابية ألقت رحلات كثيرة اليوم وأخرج من المطار فلا أرى الفضاء الواسع امامه بل أرى الناس تجري مخفية وجوهها في صدورهم وتطير ثيابها والغبار يدخل الحلق والأنوف ويشد فوق العيون جفونها فأدخل أول تاكسي يقابلني وأشير للسائق أن يضع حقائبي في حقيبة السيارة.

- حمداً لله على السلامة.

- الله يسلمك.

- الى أين؟

- الاسكندرية.

- في هذا الجو الاجرة ثلاثون جنيهاً.

- موافق.

- إذن خذ سيجارة مني.

ويثقت السائق يعطيني سيجارة ويبسم بوجهه الاسمر

الخبيل المحاط بكوفية تغطي الراس أيضاً وتلتف حول العنق، وينطلق بالسيارة، ويدير مسجلها، فينساب صوت ام كلثوم.

- لا تخش شيئاً، سنصل بالسلامة، شريطان فقط ونصل. الاول «جددت حبك ليه»، والثاني «مكزيات» يا استاذ. - وضحك - أم تجب تسمع «أروح لين»؟.

ويضحك أكثر وأبتسم أنا ويدير مكيف السيارة الليموزين فيسري الدفء في جسدي والاطمئنان معه ولا يطول الطريق إذ أصل وكأني ركبت منذ دقائق وتضرب حولي حلقة الاستقبال والابتهاج ودموع أمني ونضحك والتليفزيون يبث نشرة الأخبار سقوط طهران في يد انصار الخميني والغموض يحيط بمصير باختيار والملك الحسن يعلن أن الشاه يبقى بالمغرب كمواطن عادي والشاه يشكر السادات على الأيام التي قضاهما في مصر بعد خروجه وضياء الحق يرفض الاستجابة للنداءات الدولية بالفقوع بوتر ويقول انه لا حيلة له في حكم المحكمة وأرشد يقول لي صباح أمس لا مفر من اعدام بوتوما دام ضياء الحق اعلن كذباً أنه لا يتدخل في عدالة المحكمة ويتقسم وهو يعلن لي أن المطارات فُتحت في باكستان وأنه سيسافر اليوم في طائرة المساء. رحلة طويلة مستر اسماعيل لكنها جميلة. تنوك جدة. بومباي. لاهور. بيشاور. آمنة زوجتي وزينب ابنتي ثم اصدقائي مستر اسماعيل والوجيم لا يزال على وجه أمني إذ رأيتني شاحياً وعرفت أنه أجريت لي جراحة للزائدة وأقول لها لقد حدث ذلك منذ أكثر من شهرين الآن ولا أظن أنني شاحب كما تقولين وأضحك وتضحك أختي سناء ونقول إنني في أحسن صحة ويقول أختي بهاء إنني في أحسن حال وهذه ساعة رادو

وزجاجة بارغان شانيل وثلاث بلوزات مونتيجو فرنسية وقطعة من الحرير الطبيعي تصلح قستاناً وقطعة من الصوف الهلبد الانكليزي تصلح تاير لك يا سناء وقبلة من اخقي على خدي والفوحة تكاد تقفز من عينيها وهذه ساعة اورينت وقطعة صوف لبدلة وطقم اقلام شيفرز وابتسامة وشكراً بلا قبلة من بهاء وهذه طرحة من الحرير وقطعة قضيقة وبالطو اسود شيت وعباءة مغربية لك يا امي وكتر خيرك يا ابني ودموع وهذه الحقيقية بما فيها لروحية وولديها وغليلة وبنيتها ولا يقترب منها احد ونضحك والحقيقة الثالثة بها غسق ولون وتفاخ وشاي لبيتون وعصير يرتقال جاف وصابون لوكس وفلفل اسود وهيل واشياء كثيرة تستطيعين يا امي تقسيمها بالعدل ولا تضحكوا هكذا بفعل المصريون جميعاً وانا تعلمت منهم وانت هاذا احضرت لنفسك؟ الكثير يا امي تركته هناك.. هناك هناك. إذن ساعود. ليس لاني اشتريت شيئاً تركته ولكني احس بالحنين للعودة ويزداد الحنين كلما مر يوم بعد يوم وامشي في شوارع الاسكندرية فكأنني ارى عديدة لا اعرفها فالزحام خائق والمواصلات بطيئة والارض طينية والمباني باهنة الطلاء والتليفزيون بيت برامج غريبة ليس فيها الالفه التي ربطت بيني وبين «مجلة التليفزيون» ولا «من كل بحر قطرة» أو «أجد هوز» ولا «تلي ماتش» «والرجل الأخضر» ولا «الشيخ الطنطاوي» وصوت الاذان ليس جريحاً ولا ذبيحاً ولا فيه رنة حزن قادم من فوق جبل بعيد ولا يصحبه نداء شجي ينقل الروح الى بحار الوداعة وليس هنا هواء جبل أحد الجاف ولون الجبل الأحمر القاني الوديع. اريد أن اعود حقاً فأنا انتظر رسالة من عابدة التي تمضي الليل وحدها على سطح بناء مخيف في بلدة يسكنها الصمت والاشباح ولا يكفينا

ابدأ صوت عبد الحليم. مالك يا اسماعيل كل يوم تقول لي امي ذلك وتراني دائماً متلبساً بابتسامة لا تعرف اني اريد بها على التيمني غريب الاطوار أو متلبساً بضحكة ولا تدري اني استمتع لمبيل أو ترتسم الحيرة على وجهي ولا تدري أن أمامي يجلس منصور متجهماً والفرد على كتفه أو يعلو الضيق سحنتي ولا ترى عابداً يعطيني خطاباً من واضحة عرف انه من الرياض. خطاب واضحة؟ أين هذا الخطاب الذي لم افتحه.. اخذته الى البيت. أم تركت في العمل؟ كيف مضى كل هذا الوقت دون أن افتحه.. وأعصر ذهني لأتذكر أين خباته وينتابني القلق من عابدة الذي يمكن أن يجده في المكتب فيفتحه ويقراء.. وأمنّي النفس بأنني اخذت الخطاب معي الى البيت ولا بد أنه بين اوراقي هناك وأعود وأقول ولو وجده عابدة وقرأه ماذا يمكن أن يحدث أكثر مما جرى؟ راحت واضحة وانتهت قصتها الى الابد ولماذا انت صامت يا ولدي ولا تسأل أختك عن احوالها الدراسية ولا أخاك ويا لها من ام امي لا تريدني ان أنسى مؤامرة ابي عليّ وينتهي اسبوع وأقول هذا يكفي بينكم وعندي عمل بالقاهرة ويسكت الجميع وتأخذني امي الى غرفتي التي حرصوا على نظافتها في غيابي كما قالوا وتقول ان علاء ابن عباس الحلواني تقدم لخطة سناء وينتظر عودتي ولا تنتظر ان ابتلع دهشتي «علاء تخرج من كلية الحقوق العام الماضي كما تعرف» وأتذكره الولد الهادئ الوديع الذي أقام ابوه وليعة كبيرة للفقراء يوم نجاحه، علاء طموح يفكر في فتح مكتب للمحاماة. وتغلق امي كل الطرق ويمضي اسبوع آخر يحضر فيه علاء وابوه ويشكو لي الرجل من غلاء السكر والدقيق والسمن والزيت والشرابات والالوان الصناعية والالبان والسمسم والشيكولاته وكل شيء يدخل

في صناعة الحلوى وأنه لا يكسب إلا بائعو الفول والفلافل والمقاولون والصوص والتجار الكبار وترغرد أمي واختاي الكبيرتان ويمثل البيت بالضيوف ويقام فرح بسيط وتتم الخطبة وأزهو بجمال سناء جوار علاء وتفر من عيني دموع الآباء والأمهات وإلى محل مصطفى درويش أصحابهم للعشاء وتبهرنى الأضواء البيضاء والمنافذ البيضاء والفارش البيضاء وثياب العاطلين البيضاء ويتحدث علاء عن مشروعه في امتلاك الشقة والمكتب فيو جاهز لهما إلى حد ما. إلى حد ما؟ تقول سناء أن علاء يحبك جداً وكيف قال أنه لن يتحدث في الخطوبة مع أحد إلا أنت حتى لو أتيت بعد عشرة أعوام. لم يكن ممكناً البقاء عشرة أعوام يا سناء. ولا أتكم وأرى البحر مظالم واسع الظلام ونوبة البرد شديدة حقاً غير كل عام فوق الاسكندرية المشهورة بالدفع وفي البيت تقول أمي لا يجب أن تنتظر سناء أكثر من عام فسترة البنت الزواج.. ما رأيك؟ رأيي؟ لقد رتبتم كل شيء. ولا أتكم وأقوم لأنام فتأتي خلفي. ألم تفكر بعد في بنت الحلال؟ أتسهم ولا أريد وأسمى للنوم الذي لا يسعى إلي وأدخل تحت الغطاء فعني أن أعود وأكمل عامي الأول وأعطيه لعلاء وسناء. في أي ركن من الظلام كان يقبع علاء هذا وينتظرنى. ليكن. لكل مؤامرة نهاية ولا أضن أن عابدة ستصنع للفارس النبيل قبل أقل من عام.

أنا وأصحو مبكراً جداً أسأل أمي عن فاروق الذي أذكره فجأة فتسكت قليلاً وتقول أنها لم تعد تعرف عنه شيئاً إذ تقدم إليها يخطب سناء فرفضت. كيف تزوجها له هو الذي له من زوجته السابقة ولد. انهش وتستمع تقول إنها عرفت منه أنه يعمل في شركة لتقسيم الأراضي بالساحل الشمالي ويكسب أكثر مما كان

يكسبه في السعودية ولكن سناء قرأت في الصحف أن شركته قد استولت على أراضي الدولة وقسمتها وباعتها للناس بملايين الجنيهات وعجز الناس عن استقلال ما اشتروه من أرض وهناك قضايا كثيرة مرفوعة على الشركة الآن وأقول لأمي أنتي عقدت العزم على السفر إلى القاهرة وتبكي لكن لا بد أن أسافر وتقر دموعه من عين سناء. ويشد بهاء على يدي وأخرج دموعاً. لا يوجد حقاً وداع طيب في هذه الدنيا فما يأتي أريد الرحيل في أسرع وقت.

أصل إلى القاهرة في الحادية عشرة صباحاً. ينزلني الأوتوبيس أمام فندق هيلتون وأرى ميدان التحرير أمامي مخيفاً وأصعد الكوبري العالي أدور فوقه وأنزل عند أول شارع سليمان كما وصف لي عابد قبل سفري وأحس فجأة بالارتياح فالشارع رطب وارتفاع العمارات على الجانبين واتساعها يعطيني الاحساس بأنني أمشي في قبولو أردت فمن الممكن أن أنام فيه.

لا أمشي كثيراً حتى أجد مكتب لوفتهانزا على يعني فادفع الباب الزجاجي الثقيل وأخاطب واحدة من الفتيات الثلاث الجميلات فتصحبني إلى الدور الأعلى لأقف أمام رجل باسم أنيق متوسط العمر. تفضل بالجلوس. اجلس وأتكلم. أين بوليصة الشحن؟ ها هي. يتأملها ويتسهم. بوليصة مزورة. نعم؟ مزورة انظر إلى هذه. ويعطيني واحدة أمامه. هل تجد فرقاً؟ لا أجد. نحن نعرف كيف نعين بينهما. للأسف الشديد هناك عصابات دولية كثيرة تعمل في هذا المجال وفي أميركا بالذات. مالك ترتجف؟ أنا لا أقهر شيئاً يا سيدي.. هل أنت صاحب الشركة؟ أنا أعمل فيها. إذن عد وأخبرهم بما قلته واستطيع أن أعطيك خطاباً بذلك. ما لك ترتجف؟ ولم أقل

إن أحداً لن يصدقني. أنا ولاري فلاري يكسب. اطلب مني أي شيء افعله. اشكرك يا سيدي. أريد إرسال تلكس لكل هذه المطارات وأخذ ردود تلكس معي. هذا سهل وحتى تطفئ أكثر اذهب إلى صالة شحن لوفتهانزا بالمطار هناك ستقابل المهندس «مجيدي». سيبحث معك عن البضائع وسيرسل ما تشاء من تلكس. ولا استطيع القيام ويشرح لي هو ما كنت في غنى عن شرحه.

- تخيل انك ذهبت تشتري بضائع بمليون جنيه لشركة وقابلك أحد رجال العصابات وأغراك بأن يعطيك بوليصة شحن مزورة نظير عشرة بالمائة من ثمن البضاعة التي لم تشتريها ووافقت واخذت البوليصة. ستفوز بتسعمائة ألف ويفوز هو بمائة ألف وكل منكما لم يتعب في شيء. كثير من المندوبين الذين ترسلهم دول الخليج لشراء بضائع من امريكا يفعلون ذلك. لا يهم ما يحدث. سيهرب بالمبلغ وتدخل الدولة أو الشركة التي أرسلته في قضايا خاسرة مع شركات الشحن وشركات التأمين. لا أحد حتى الآن يستطيع القضاء على هذه العصابات الاميركية. تفضل هذا تصريح لدخول المطار وصالة شحن لوفتهانزا.

وقمت أمشي غير مصدق. خمسة آلاف ريال مسرر لاري انهي بها العمل في القاهرة وانت ثلاثمائة ألف دولار. كل دولة لها ما تستحقه حقاً. لقد نجحت لاري في اختياري واحكمت وروز خطتكما. مصري فقير ذكي يعرف أن عم عبد الله لن يستمع اليه.. ليكون. إلى الجحيم بكل الناس وكل البلاد وكل أموال النفط فيها هو شارع سليمان ينتهي ولا استطيع عبور الشارع المقابل فاقف. في الجوالحة من برودة والاوتوبيسات الحمراء الضخمة ترمح في

الشارع الواسع تنفذ دخاناً أسود وتزجر وحولها ترمح الميكروباصات الصغيرة وسيارات الأجرة والملاكي والناس تتكاثف مزدحمة عن الرصيف وتعبّر الشارع بسرعة من كل نقطة وعند تقاطع الشارعين يقف عدد من ضباط المرور والجنود لا حيلة لهم في هذه الفوضى المزعجة. هل اعود مرة أخرى الى شارع سليمان الذي تمشي فيه السيارات بطيئة من زحامها لكن لا تجري فيه الاوتوبيسات ويمشي الناس متراحمين فيه لكن على الرصيف؟ لقد نحت أكثر من سينما فيه فهل اعود وأدخل احداها حتى ينتهي هذا الزحام؟ لا اظن انه ينتهي الا بالليل. إذن أقفز السور الحديدي الذي يحده الرصيف واجري عبر الشارع فما انذا أقرأ لافتة «جراند اونيل». هذا المبني الضخم المقابل ليس سوى فندق. - اريد غرفة بسرعة.

اقول لموظف الاستقبال وأنا الهت بعد عبوري الشارع. واقف أمامه أحاول تنظيم انفاصي. وهو صار يتأملني بإمعان فأقول: - آسف. هل لديكم غرفة لشخص؟ والتفت حولي دون قصد ولا ازال مرتبكاً فأعود أقول:

- آسف جداً. أنا خائف من مدينتكم. أنا من الاسكندرية ولم تعود هذه الفوضى وهذا الزحام. أنا أيضاً جائع جداً. هل يوجد طعام في هذا الفندق؟ - لدينا كل شيء.

واری الابتسامة التي يتكلفها موظفو الفنادق تاخذ مكانها أخيراً. وأعطيه جواز السفر وخمسين جنيهاً تحت الحساب. وفي الغرفة التي يصحبني اليها الرجل النوبي العجوز. استلقي فوق

السريـر ناسياً جوعى وهلعى، يا الهى! كم مرة أتيت القاهرة، ثلاث مرات. الأخيرة كانت يوم سفري، فلم أدخل المدينة. والثانية كانت لاعتماد أوراقي، فلم ابتعد عن ميدان التحرير إلا إلى القنصلية السعودية بقارن سبتي. والأولى كانت من زمان.

عام ١٩٦٨ جئنا في رحلة مدرسية معتادة لطلبة الثانوية العامة يزورون فيها أسوان والقاهرة. في القاهرة أمضينا يومين نزلنا خلالها لوكاندة كثيفة جداً بضارح كلوت بك. زار زملائي والمدرسون الأزهر والحسين والقلعة والمتحف الاسلامي والمتحف الحربي والاهرامات. هربت منهم في الأزهر والحسين مشيت كثيراً في شوارع الجمالية وجلست بعقبى رخيص في شارع بين القصرين. مقهى يكاد يكون تحت الأرض.. لم أر وجهاً واحداً يذكرني بأحمد عبد الجواد ولا قهسي ولا كمال الصغير ولا ياسين الطائش ولا عائشة التي تَرَصَّد لها القدر ولا أمينة ولا خديجة ولا الأحفاد. رأيت نساء ذوات عجائز ضخمة ونساء شدييدات التبرج وسمعت الفاظاً قليلة الحياء من الرجال والنساء وتساءلت كيف ومن أين كتب نجيب محفوظ ذلك كله. وكانت هذه أول مرة أدرك أن الكتابة ليست كما يحدث لي: شعور جميل وزهو بما اكتب إنها مشقة كبرى تسامت بعدها: هل يعطيني الزمان القدرة على ذلك الشقاء الجميل؟ ولما رأيت زقاق المدق القصير جداً الضيق الاسود الرطب تعجبت كيف عاش فيه كل أولئك الذين عشت معهم وضحكت وبكيت ولم يدهشني إلا شكل البواكي على جانبي شارع كلوت بك ومحلات الأحذية والشنط الكثيرة والمقامي الصغيرة الضيقة والنساء العجائز يجلسن فيها غير قادرات على الحركة ويدخن النارجيلة وتعلو وجوههن مساحيق مضحكة. بدت لي

القاهرة في ذلك الوقت مدينة أقدم من الاسكندرية.. أقدم من الزمان. وكانت السواثر الحجرية قد أقيمت امام مداخل البيوت والنور ينطفئ في الشوارع مع انشاء ودخان الهزيمة لا يزال في الفضاء. القاهرة الآن مدينة ساقرة بالجهامة لا تجري بشيء ولا تحب أن يزورها أحد. مركباتها تطحن أقوى العظام فلن ابقى فيها طويلاً.. وها أنذا يمر بي يوم بعد يوم كئيب طويل محل. اخبرني الخادم النوبي اني استطيع أن اتناول طعاماً أحسن من طعام الفندق في المطاعم المجاورة بالتوفيقية وأشرب الشاي في مقاهيها. وأول ما قابلني كان مطعم الشامي فدخلته ووجدته واسعاً انيقاً لكني كل يوم اتناول الطعام فيه وحدي ورأيت على الجهة الاخرى كافيتريا مكانا بلانكا، الصغيرة فصرت أشرب فيها الشاي مع واحد او اثنين جالسين في صمت ومن بائع الجرائد الذي يقف امام الفندق اشتري كل الصحف والمجلات وأدخل الفندق اقرا وأتعرغ فوق السريـر. ولم اذهب للمطار غير مرتين. في كل مرة أخذ تاكسيّاً من امام باب الفندق وفي الأولى اخبرت المهندس مجدي بقصتي. وفي الثانية بعد خمسة أيام سلمني ربود التلكس. لا بضائع خرجت من سان فرانسيسكو ولا بضائع وصلت الى نيويورك أو ميونيخ أو القاهرة. هل كان يجب ان تأتي الى القاهرة لنفعل ذلك؟ وأبتسم. يا مستر لاري لقد رفض أن يأخذ رشوة مليماً واحداً، وأنا الآن امضي النهار في الفندق انتظر مرور الايام الخمسة اقرا الصحف والمجلات التي تتحدث عن اقتراب سفر الوفد المصري وعلى رأسه مصطفى خليل إلى امريكا للتحضير للتوقيع النهائي على معاهدة كامب ديفيد، وعن جرائم الاغتصاب الكبرى والشقاق المفروشة للدعاية وصورة السادات في كل صفحة تضحك بالباب الشهور انا

لا أخرج إلا بالليل أعبر الشارع بثبات الآن وأدخل سينما مترو لأرى فيلم (الزلازل) لأنني أحب آفا غارنر وأدخل في اليوم الثاني سينما مياي لأشاهد (رجب فوق صفيح ساخن) ولا أضحك مع عادل امام إلا قليلاً. وفي الليلة الثالثة أدخل سينما كايروبالاس وأشاهد ممثلة جديدة اسمها ماري فرانس بيزيه لأن معها راف فالون ذا الوجه الحاضر ولا يدهشني تدخل الرقابة كل لحظة في الفيلم الجميل الذي اسمه (الريضة المدمرة) واسمه (الجانب الآخر من الليل) والوقت أيضاً لا يمر فأبدأ بعد التاسعة مسيرة على الأقدام إلى الحسين. لماذا أ فعل ذلك؟ أريد التعب. تعب الليل يعني نوم النهار وانقضاء الايام الخمسة رغم برودة الليل هنا في القاهرة. كل ليلة أرى اشجار حديقة الازبكية كأنها مودة سوداء والظلام يلغها وتبدو لمبات الكافيتريات التي أقيمت شيئاً مشوهاً بتعدد ألوانها الخضراء والحمراء واقطع الحديقة مع الصمت وانظر وكثيراً ما أجد نياماً يلتقون بالخيش وأدخل شارع الأزهر فأجده خالياً أغلقت محلاته ولا أحد يمشي معي غير سيارات قليلة تسبقني ولا أفكراً كيف كانت حديقة الازبكية حين أجرى الفرنسيون فيها تجاريهم على المنطاد بين عيون المصريين المدهوشة الخائفة ولا اجلس في حي الحسين بأي مقهى ولا أكل في أي مطعم إذ يحدد لي رجال البوليس الذين انتشروا طرق السير فأدبر خلفه أشم رائحة نتنة في الأزقة وأعود وأحاول أن أتذكر ما كنت قررت أن أفعله في القاهرة. الليلة، وهي الأخيرة، تذكرت. غداً في الصباح أزور سعيداً. لقد ترك لي عنوانه قبل رحيله. كم يكون رائعاً أن أواجهه باكراً بزيارة. أقول لنفسي وأنا عائد إلى الفندق والساعة قد تجاوزت الواحدة بالليل وأنا أمشي وحدي في شارع ٢٦ يوليو واقتررب كثيراً

من الفندق وإذا بيد تمسك بي من كتفي تشدني بعنف إلى رفاق جانبي مظلم وتدفعني إلى الحائط. اثنان هما. رجلاّن. ماروان في عيونهما شر مخيف. واحد يحمل سيفاً والثاني يمسك بسلسلة طويلة سميكة من الحديد.

- طلع الي في جييك يا بن القحبة.

اسمع صاحب السلسلة، وأرى عينيه فيهما نذير الموت، وصاحب السيف يبتعد للوراء ويرفع سيفه إلى أعلى. وأتلكأ. نذراً. أتلكأ موتاً. فيتراجع صاحب السلسلة ويصوب لي ضربة قاصمة على ذراعي، تشعل النار في رأسي، فيناولني الأخرى على جانب قدمي اليسرى، فاسقط فوق الأرض. ازحف رعباً فينها لأن على ظهري ركلاً ثم يحملني صاحب السلسلة الجبار ويسندني إلى الحائط وصاحب السيف يصرخ بصوت مكتوم: «أتركه لأذبحه».

- أرجوك.

أتوسل بصوت لا يخرج إلا بالكاد.

- ترجوني يابن..

- خذ ما تشاء..

فيتركني واسقط على الأرض ممدداً ويقبآن جيوبي يأخذان ما فيها.

- معه ريات وديارات. أنت مدين يا واد؟

- اسكندرية.

- حراسي في الميتا يعني.

ويرككني كل منهما في ضلوعي ويسرعان بالاختفاء.

لمس الأرض بارد وأنا عاجز عن النهوض يداهمني التعب

فأكاد أنام واتذكر أن بقية نقودي في الفندق، وفي الفندق جواز السفر، فأشعر ببعض القوة وأتحامل على ذراعي، وأزحف حتى الشارع. ومستنداً إلى الجدران أقف وأمشي مرهقاً أكاد أقع في كل خطوة. كان من الممكن أن يقتلاني حقاً. ولا أرى حولي إلا أعمدة النور تضيء خلاء من الظلام ولا توجد حتى النسمة الباردة.

٢٢

لا عابدة ولا واضحة ولا روزماري ولا أرشد ولا منذر ولا نبيل.
لا عابد ولا منصور ولا وجيه ولا صالح سنيور الثقيفي. لا شيء
يشدني للعودة ولا شيء يشدني للبقاء إنما هو شعور غامض
يدفعني للأمام وشعور غامض آخر يشدني للخلف. مسافر أنا من
مصر إلى تبوك الآن وجئت منذ عشرين يوماً من تبوك إلى مصر فمن
أي البلاد أنا وفي أي بلد ثالث ولدت ونشأت؟

اقلعت الطائرة في الخامسة بالتوقيت المحلي ووصلنا في الساعة
والنصف بالتوقيت المحلي!... الرحلة تستغرق ساعة ونصفاً لكنهم
يسبقوننا بساعة من الزمان.

وصلت إلى البيت في الثامنة والنصف، فوجدته مظلماً. سأضيئ
النيل وحدي، فوجيّه لا يزال يعمل بالليل.

دخلت وبدأت ثيابي وبحث عن طعام فلم أجد، فأعددت كوباً
من الشاي، وتمددت فوق السرير وتحت البطءاء، ورجت أكل
بسكويتاً تركته في الغرفة من قبل، واحتفظ به دائماً لفطوري، ورجت
أبتلعه بالشاي الساخن وأدهشني ضيق الغرفة. هذه غرفتي، وهذا

بيتنا فتحت بابه بمفتاحي. قفزت وأشعلت التليفزيون، فانسعت ولما سمعت حركة الفأر في المطبخ ابتسمت، لكنني قررت أن أبدأ من الغد في مكافحة الفئران.

- ألم تحضر لي خطايا من أمي؟

- سألني نبيل وهو يدخل إليّ بقهوة الصباح. لا يزال الصباح هنا مكربساً للبرد القارس رغم انتهاء شهر فبراير. استيقظت اليوم ولم يكن وجيه قد عاد من المستشفى، فكتبت له ورقة تركتها في المطبخ، أعلمته فيها بحضوري، وطلبت أن يعد لنا غداء.

كان عابد أول من قابلني ولم يسألني عن المهمة ولم أشأ أن أخبره بشيء، فقط أعطاني خطابين قال إن أحدهما من الرياض والثاني من ضبا، وسألني هل تعرف أحداً في ضبا أيضاً.

ولم أريد. رحلت أبحث في مكتبي عن خطاب واضحة السابق فلم أجده. لا أستطيع أن أسأله عنه، ولا أبحث جيداً في البيت اليوم.

- أنت لم تطلب مني ذلك يا نبيل ولم تعطني العنوان.

وتأملت لحيته التي أطلقها وبسعة الحزن التي لم أعدها على وجهه، وقبل أن أسأله عما ألم به في غيابي، قال:

- ربما فعلاً لم أطلب ذلك منك، لكن كان عليك أن تذهب.

وانصرف وترك الوجوم معي في الغرفة، ولولا أنني انتهيت للخطابين في يدي لنسيت أمرهما أيضاً. وضعتهما في جيب سترتي وبدأت استعد لاستقبال العمال الذين أقبلوا يقعون في دفتر

الحضور ويبتسمون لي، ووقف منذر وحده يكلمني بعد أن أخذني في صدره وربت على ظهري بقوة وقبل وجنتي بشكل حميم.

- لقد تركت البيت يا استاذ.

- أي بيت يا منذر؟

- البيت الذي اسكن فيه قلت لك عندي حكايات ولم تعطني الفرصة.

- ألا زلت تذكر يا منذر؟

- أنا والله أريد أن أنسى، لكنّها أخت القحبة لا تتركني. لقد استأجرت بيتاً عربياً. تصور من كان يعارضني، زوجتي، بلهاء يا استاذ.

- لو حكيت لها القصة ما عارضتك.

- أيه يا استاذ. يا مصري، احكي لزوجتي. مجنون أنا. النساء صغيرات العقول. إنها لن تصدقني أبداً وستقول لي علاقة بالمرأة وتتحول حياتي إلى جحيم، إن أخيب الرجال هم الذين يحدثون زوجاتهم يصدق. المرأة يا استاذ لا ترى إلا ما في رأسها..

وتركتني اضطك ورحلت أخرج التقارير المكونة التي لم يستطع عابد ترجعها في غيابي، لكن وصل عم عبد الله وسمعتة يسأل عابد عني فأدركت أنه سيطلبني.

- أيش سويت يا اسماعيل؟

سألني بعد أن دخلت مكتبه ورايت مسر لاري معه. صافحني

لاري بحرارة، صافحتني عم عبد الله بلا مبالاة. لم ارد على سؤاله
وقدمت له ردود التلكس.

- إيش هذا؟

تعمدت ألا انظر الى لاري، وقلت:

- هذه ردود التلكس. لا بضائع خرجت من سان فرانسيسكو،
ولا بضائع وصلت الى مطار من مطارات الرحلة.

امتعض عم عبد الله، ونظر إلى لاري الذي رأيته يبتسم جامد
الأعصاب.

- ماذا نفعل يا لاري؟

سأله عم عبد الله بالانكليزية، أجاب لاري.

- من الأفضل الآن أن يسافر أحد الى سان فرانسيسكو.

ازداد عم عبد الله امتعاضاً، وقال:

- إذن جهّز نفسك للسفر.

وقام ليغادر المكتب، لكنه ابتسم فجأة وقال:

- لا تنس أن تأخذ روز معك، لا تتركها وحدها في الكاب.

وضحك عم عبد الله، فضحك لاري وخرج يغامر المكان خلفه.

لم بعض نصف ساعة على انصراف عم عبد الله ولاري إلا ودق
التليفون. وجدت لاري على الناحية الأخرى يطلب إلي أن اقبل دعوة
جديدة الى الغداء اليوم.

- لا اعتقد أنني استطيع اليوم مستر لاري.

- هذه رغبة روز مستر اسماعيل وعليك تلبيةها.

- لكنني بالفعل مشغول اليوم مستر لاري.

- إذن ننتظرك على العشاء مستر اسماعيل.

وقيل أن اتكلم قال:

- لا تحاول الاعتذار مستر اسماعيل.

لم يترك لي أي فرصة، وأنا أيضاً لم أندفش من كذبه. متى
عرفت روز بحضوري حتى يقول إن هذه رغبته. أنا أعرف خاتمة
القصة وسأذهب فقط ليعرف أنني أعرف.

وتحسست سترتي أتأكد من وجود الخطابين اللذين لا استطيع
قراءتهما في الغرفة. ليس خوفاً من أحد، ولكن أخشى لو أخرجت
اياهما يضيع. من اليوم علي ترتيب مكان في البيت للرسائل التي لا
أظن أنها ستقطع.. مَنْ؟ منصور؟ هتفت وأنا أراه يقف بالباب على
كتفه قرد صغير.. نسخة من القرد السابق إلا أن الهالة التي حول
رقبته رمادية.

- كيفك اسماعيل؟ كيف حال مصر؟

قال وهو يدخل ليجلس خلف المكتب الثاني كهادته.

- بخير منصور.

- لعلك رأيت الأسرة ووجدتها بخير.

- كل شي طيب في مصر يا منصور.

- أعرف أخي اسماعيل. لقد كنت هناك أيضاً.

- في مصر؟

- طبعاً. سافرت إليها أولاً وأمضيت أسبوعاً ثم سافرت إلى

السودان. أما رأيت سعيداً في مصر؟

- كنت أود أن أؤوره لكن الوقت لم يساعدني.

لم أشأ أن أحكي ما حدث لي في الليلة الأخيرة، وكيف عجزت في الصباح عن الاستيقاظ إلا عند الظهر، فكنت أتاخر على موعد الطائرة.

- أنا زرتك أخي اسماعيل.. مسكين سعيد.. صارت له لحية ومسبحة ولا يتحدث لأحد.

ولم يتركني منصور أفكر، قال:

- حصلت عنوانه من وداد.. تعرفها؟

لم أزد.. ولا كنت قادراً على الرد.

- وداد الآن تستعد لإنهاء عملها هنا وستسافر قريباً للكويت.

- سوف تتزوج قريباً لها.

- لا.. لن تتزوج أحداً.. ما رأيك في هذا القرد؟

ابتسمت. بدا لي منصور مبهجاً شديد الحماسة.

- سافرت من مصر إلى السودان، واشتريت عشرة قروود شحنتها

إلى تبرك، هل تبغي قرداً؟

- لا أبغي شيئاً يا منصور، فقط لذي عمل أريد أن أنهيه.

- ارتاح أخي اسماعيل، أتركك في أمان الله.

خرج وتركني أكاد أختنق، لم تعد بي رغبة في العمل، ولا في

الحديث إلى أحد، ولا أظن أن هذا اليوم سيمر بسلام.

أمضيت الوقت أفكر في الأحاجي التي القاهها أمامي، ولم أصل

إلى شيء مفهوم، وفي الساعة الثانية عشرة نظرت إلى الباحة فلم أجد

اليمني العجوز.

ماذا يحدث لو ذهبت إلى «روز» و«لاري» في موعد الغداء؟ ستتركك كل خطتهما وسأفضي لهما بما أعرف وينتهي الأمر، وأعود إلى بيتي وقد تخلصت من روث إلى الأبد، وأقرأ خطابي واضحة وعائدة على مهل، خطاب واضحة لن يزيد على كلمة وداع طيبة، كيف بالله تكتمل القصة إلا بذلك، وليأخذ بعد ذلك خطاب عائدة الليل كله، ترى ماذا فكرت في وقد تأخر ردي عليها كل هذا الوقت الذي أمضيته بمصر.. يا لمصر التي تضيع منا كل شيء.. على يقين أنا أن عائدة لن تغلق الباب إلى الأبد.. يا يؤس هذا العمل الذي يقذف إلى اليوم كل لحظة بمجنون، آه، كم أود أن أقرأ خطاب عائدة الآن ولا أستطيع، ها هو نبيل يدخل صامتاً يحمل القهوة.

- لم اطلب قهوة.

- لم تكن تطلبها من قبل، هل أعود بها؟

تأملت وجهه الحزين ولحيته الطويلة.

- اجلس.

جلس مطرقاً إلى الأرض.

- ماذا حدث لك في غيابي، هل ضايقت هذا أحد؟

- اطلاقاً.

- لماذا تبدو شاحباً وتطلق لصيتك؟

ولم يرد. تأملني بعينين كسيتين.

- الا تقرأ الصحف؟ الا تسمع الانواعات؟

ولم أزد. ماذا في الصحف يجمع نبيل كل هذا الازعاج؟ دانت

إيران للخميني واختفى شهبور باختيار وكارتر يستعد لاستدعاء

بيغن والسادات للتوقيع على معاهدة السلام وأمس افتتحوا كوبري

السادس من أكتوبر في مصر ومملكة بريطانيا تزور المملكة ويقعون لها سباق الهجن ولا أظن أن شيئاً في هذا كله يخص نبيل.
- لا تريد أن تصدقني حين أقول لك إن الاطباق الطائرة ليست خرافة.

- ألا زلت تذكر يا نبيل؟ لم تعد الصحف تتحدث في ذلك.

- لكنها ستعود وستعود الصحف تتحدث عنها وأنا خائف.
ابتسمت مشجعاً وقلت:

- مم تخاف يا نبيل؟

- لو سقط واحد منها هنا لاحترقنا جميعاً. هل تظن غير ذلك؟

لم أرد. لا أصدق ابداً أن ما يقوله هو سبب حزنه وإطلاق لحيته. لن يصحح لي بشيء ولا حاجة لاستمرار الحديث. هناك تقارير كثيرة متأخرة لم أبدا فيها بعد فلا بد أن أظن أحداً سيبلغني في الوقت القليل الباقي.

- مستر اسماعيل. غير معقول!!

هفتت روز التي فتحت الباب غير مصدقة. ابتسمت ابتسامة واسعة باهرة ودعيتني للدخول.

- لا زري ليس هنا الآن لكن لا بأس. سيصل حالاً. لا بد أنه تأخر لأمر ما مع مستر عبد الله. لقد أخبرتي بحضورك على العشاء. تفضل واختر أي مكان للجلوس أعطني دقائق أصلح من شأني.
كانت تتكلم بسرعة غريبة وإرتباك واضح. وتركتني فتقدمتُ

وجلسْتُ تقريباً في المقعد نفسه الذي جلست فيه المرة السابقة، واختفتُ ونسجتُها تتحدث هامة مع شخص لم أتين صوته، فابتسمتُ. لا أحد يمكن أن يكون هنا غير لاري وهي امرأة ذكية أحسنت التصرف، لكنني أدركت فجأة حماسة ما فعلت. إذا كنت أعرف سرهما فلماذا جئت؟ لا يكفي ابداً أن آتي لأقول لهما ذلك. ما جدواه الآن؟ لا صلة بيني وبين هؤلاء الناس إلا عداوة تأصلت في نفسي منذ صباي وأول شبابي، وأنا لم أصدق ابداً ما يردده السادات عن الصديق الأمريكي. ولم أكره رؤية أحد مثل رؤيتهم يوم نزلوا الاسكندرية بعد زيارة نيكسون ومشوا في شوارعها في زي البحرية طوال عراض يتأملون الناس والمحلات ويلوحون بالتحية لكل من يقابلهم ويؤسهم مخلوقة على الطريقة الانكليزية انشعبية. تذكرت يومها أفلام البحرية الامريكية، وجين كيلى وتوني كيريس، حين كان الواحد منهما يترك سفينته وينزل المدينة فيثير معركة في أحد باراتها. كانوا كثيرين جداً في الاسكندرية بعد زيارة نيكسون يمشون على الكورنيش يمرحون ويركبون الحنطور ويغنون وصاروا قليلين الآن لا تكاد تراهم.

وأدركت أن زيارتي لا معنى لها، وفكرت في القيام، لكنني رأيت روز تقبل نحوى متألقة يسبقها عطر يتغلغل إلى الجواس يكاد يهدمها هدماً، وترتدي فستاناً أزرق له فتحة صدر كبيرة يكشف عن أول النهر بين ثدييها ويكشف عن ذراعيها البيضتين. واستدارت روز إلى الثلاثية فرأيت جزءاً كبيراً من ظهرها وشعرها الأصفر الغزير ملموماً في رباط أزرق رفيع، وتقدمت بكأسين من النبيذ وجلست أمامي بعد أن وضعتهما على المنضدة المنخفضة بيننا وقالت:

- لم اكن استطيع السفر دون ان اراك.

- اشكرك.

- لا بد انك جائع مستر اسماعيل. نأكل معاً او ننتظر لاري.

- لست جائعاً تماماً.. وأنا كما تعرفين لا أشرب الخمر.

- إذن دعني أراك شيئاً جميلاً.

وأخذت بيدي، فنهضت ممثلاً، ووجدت نفسي أقف في غرفة النوم.

- لا تخن بي شيئاً مستر اسماعيل، ليست هذه الطريقة التي أغريك بها.

وايشممتُ. هذه روز التي بهرتني اول مرة، وهي نفسها التي شاركتني النوم في الأحلام، وهزأت مني في الكوابيس. راقبت لي مرة. اشتقت اليها مرة، اعترف. لكني الآن أراها مثل قطعة لحم فاسد.

- ما هو الشيء الجميل الذي ستريني إياه؟

- اجلس.

وأشارت الى السرير، فجنست على حافته، وجلست هي على حافته أيضاً جوارى.

- أنت ذكية للغاية يا روز.

- أنا لم اوافق لاري فيما فعل. أنا في النهاية زوجته ولا بد ان اجمعه.

- كنت احب فقط ان تختاراً غيري. ما الذي اوحى إليكما بي؟
اقتربت مني وهمسست.

- لن تصدقني اسماعيل. أنا كنت سأفعل ذلك مع غيرك، لكنني أعجبت بك واحببت أن اجد سبباً للوصول اليك.

- ليس لي في الأمر حيلة يا روز. أنا مصري فلن يصدقني الناس هنا ويكذبونكم، ما كان الأمر يحتاج الى كل هذا الترتيب. هل تعرفين ما يضايقني حقاً؟ اتذكرين لقاءنا الأول هنا في بيتكم؟ لقد كنت غطاً إلى حد كبير لكن لاري أبشاً كان أكثر فظاظة. كان يريد ان يبدو متفوقاً عليّ. ما كان عليه ان يفعل ذلك. هل يحق له ان يفعل ذلك وهو..؟

- ولم اكمل وصمتنا كثيراً.

- ارجوك دعني اقبلك.

وتركتها تأخذ وجهي بين يديها وتلمس شفتي وخدي وأنفي وتعود الى شفتي وتضغطهما ولم تحاول الاقتراب مني بجسمها أكثر ولا أنا حاولت. كنت مشغولاً بالنظر إلى عينيها اللتين أغلقتهما وحين فتحتهما كانت النشوة تملأهما فقمّت واقفاً.

- وداعاً يا روز.

- وداعاً اسماعيل.

ورأيت في عينيها لما فاسرعت بالخروج. لم تات خلفي. وعند الباب الخارجي سمعتها تصرخ.

- أنت أغبر رجل في العالم يا لاري ولين اتركك تفوز بكل شيء.

«اسماعيل:

لماذا تركتهم يفعلون بي ذلك؟ أنا أحبك. لا تنسني»

«واضحة»

منتديات مكتبة العرب

<http://library4arab.com/vb>

ليقتي لم أبدأ برسالتك: لقد عدت من عند روز أمابق سيارتي حتى أخلو إلى نفسي وأفض الرسائل. هل تعرفين أنني بدأت برسالتك إيمالاً وإدراكاً بأن القصة تمت قصولها وما حدث لا يعدو نزوة أو جنوناً، واضحة بنت سليمان بن سبيل صغيرة كعصفور أنت فماذا تريدان أن تصنعي بي أنا القادم من بلاد النيل تمتد وراشي آلاف السنين. أم لهذا السبب تتعقبن بي؟ لماذا تختارينني أنا؟ تدور بك الشرطة يوم وصولي ويختلج جسدك أمام عيني ويختارني صدوقي لأخيك لأفكك وجهاً نوجه ولا نستطيع الفرار. لقد تقدمت غير هياب. هل تنسين؟ شانتني منكم وعازلي منكم. صالح سنيور الثقفي أقوى منّا جميعاً. مسبح هو بالجماعة، بالبراءة الخائبة. يا واضحة. أنا لم أتركك. هل تتركينني قليلاً اقرأ الرسالة الأخرى؟ ليست رسالتك

الأولى. لا اعرف كيف وأين ضاعت مني. لم يكن ذلك بالغال الحسن.

وأدركت فجأة أنني حين عدت الى المنزل لم أجد وجيهاً إنه لا يخرج الى المستشفى قبل الساعة السادسة. لم أجد غذاء كما كنت له في الصباح. لم أقبله حتى الآن، ولا تناولت غذائي.

فتحت الثلاجة، فوجدتها فارغة إلا من علب انعصير. دخلت غرفته، فوجدت على مائدة صغيرة عبة تونة أخذتها وأكلتها بسرعة، وتعددت فوق السرير اقرأ.

لم يكن أمامي يا عزيزي اسماعيل إلا القبول. القدر يساعدني دائماً. أنا لم أسع الى ضيا. طليوا واحدة منا فأصاب الجميع الرعب، وتطوبعت أنا في لحظة أدركت فيما بعد أن واحدة غيري هي التي أبدت استعدادها وليس أنا. واحدة غيري هي التي تكلمت ووافقت لكنني غير نادمة. ضيا ليست الجحيم، على العكس، إنها بلدة صغيرة جميلة قريبة من البحر، البحر الأحمر، والناس هنا طيبون. الصيادون يمزون على المستوصف كل يوم يقدمون لي أفضل ما عندهم من سمك بالبحر. الذي هنا سمك يكفي تبوك الآن. هل تراني استطيع أن أكل هذا السمك كله؟ لا أحد يقبله مني. لا أحد إلا وعنده أكثر مما عندي من سمك. شيء غريب أن أحبك عن هذه الأشياء لا تمنني. فقط أحببت أن أطمئنك إي، فانا أعرف أنك تحتاج إلى ذلك. رأيتك أول مرة يوم جئت تسهر مع الدكتور وجيه وأنا اعرف أنني سشارك مرة أخرى. لكن، كل الناس هنا يحبونني.

والنساء يعرفن بوجدتي قياتين بعد العمل ليجلسن معي فيمضي الوقت سهلاً. بعضهن يرسلن بناتهن ليلتن معي. شجاعة غربية على نساء المملكة. ربما ليست غربية فالكرم شيمة العرب. عرفنا ذلك في كتب المدرسة. كيف يكون كرم النساء للنساء الا على هذا النحو. لا تمنني على ركافة اسلوبي. كثيراً ما أذكر زميلاتي وأضحك. ماذا يصيبهن من هذا المكان الهائىء الجميل؟ حقيقة لو فكر الواحد في هذا الاتساع حوله، وفي بلدة ضيا القديمة التي هجرها أهلها الى ضيا الجديدة لربما يصاب بالجنون. ضيا القديمة ليست بعيدة. أرى بيوتها القديمة المهدمة بالليل من فوق السطح كالمقابر المليئة بالأشباح، لكنني لا أحاول النظر ناحيتها. وبالنهار أراها كأنها مناطق الاثنية تستحق الزيارة ولا أزورها. أنا باختصار أستطيع أن اتجو من الشعور بالوحدة بأعمال كثيرة. أعيد ترتيب الغرفة. أعيد ترتيب الأدوية بالصيدلية. أنا هذا أفعل كل شيء بعد مواعيد العمل. المستوصف كبير جداً لكنني أغلقه بقفل من الداخل. اترضى بعد مواعيد العمل يعمل يذهبون للأنباء في بيوتهم ويأتون إلي فاعطيم انداء من فتحة صغيرة بالباب. لا يضايقني إلا المرضي الذين يأتون في منتصف الليل. لكن النور هنا يملأ كل الغرف. أنا اتركه مضاء فيها كلها. بالنهار يكون ضوء النهار أكبر من كل ضوء. أنا لا أفزع من طارق الليل أبداً. لا يضايقني إلا البرد وأنا اترك الغرفة وأنزل لأبني طلب أحد. هل لا يزال البرد شديداً في تبوك؟ هاشم أخي كان يقول دائماً قل لمن يحملهما إنهما لا يدوم، مثلما يفنى السرور، هكذا تفنى الهموم.

كان يقول لي ذلك نجدة فيخرجني من شرودي. أحياناً كان يغنيها لي لماذا كنت أشرد بذهني كثيراً وأنا تلميذة صغيرة؟ كل

الناس كانت تتعجب من ذلك. اهي واخوتي وزميلاتي والمدرسون والمدرسات.

انت تعرف اني لا احب في الدنيا هذه مثل هاشم كنت دائماً اصدقك. ولا زلت».

وأعدت قراءة الرسالة وكدت أصرخ. ابي جنون خبيث يتسلل إلى ذهن عابدة ولا تدري. كل كلمة في الرسالة تقول ذلك. وأعدت قراءة الرسالة لأرد على كل كلمة فيها، لأعيد ترتيبها واكتشف لها أنها تمضي في طريق الهلاك، انها تركب فرس العناد. لكنها لن تستمع لي. لن تستمع لاحد. لا يجديها نيل الفرسان، وليس في حاجة اليه.

ووضعت الرسالتين أمامي فوق السرير، ورجت أنظر إليهما، وأصاب عقلي شلل، وأمحي خيالي، وسمعت المفتاح يدور بالباب الخارجي، فأسرعت باخفائهما تحت وسادتي.

دخل وجيه ومعه الطبيب الشاب الذي رأيته في المستشفى يوم ترحيل المرأة اللذائية الصغيرة. اذكره جيداً رغم ما يبدو على وجهه من شحوب وحرّن. ربما لذلك اذكره.

صافحتني وجيه، واحتضنني يقبلني، وارتفع صوته دهشة بحضوري المفاجيء، وبدأ الطبيب الشاب ذاهلاً عنا إذ راح يقضم اظافره بأسنانه، بدأ مرهقاً للغاية حتى إنه استند إلى جدار الحائط.

- تفضل يا دكتور أحمد.

قال وجيه، وأشار إلى مقعد في غرفتي، فجلس أحمد، وظل يقضم

اظافره ذاهلاً عنا. وسألني وجيه:

- متى أتيت؟

- أمس.

- أنا لم اعد اليوم من المستشفى في الصباح.

كان يبدو مرهقاً للغاية أيضاً. لم انتبه لذلك إلا الآن. وقفز يتمدد

على سريري وقال:

تستطيع أن تدخل غرفتي، ستجد تحت السرير كرتونة صغيرة بها بيض ومعلبات اشتريتها منذ يومين ولم أجد الوقت لأضعها في المطبخ. نحن في حاجة إلى عشاء ثقيل.

وراح ينظر إلى السقف بعد أن عقد ذراعيه تحت رأسه، وخرجت أنا إلى غرفته منهشاً كيف لا يجد الوقت لوضع الأطعمة في المطبخ، مع أن الذي يأتي من الخارج يمكن أن يتجه إلى المطبخ مباشرة.

أعددت عشاء من البيض انسلوق وشرائح الجبن واللانشون والزيتون، ودخلت إلى الغرفة أحمله على صينية كبيرة ففوجئت بأحمد يقف.

- لا بد أن تأكل شيئاً.

قال وجيه. لكن أحمد ظل يقضم اظافره.

- تريد أن تنام؟

هن أحمد رأسه، فقام وجيه، وأخذ إلى غرفته، وعاد يقول قبل أن يجلس:

- يوم لا يمكن أن ينسى. هيا نأكل.

وضعت الصينية فوق الأرض، وجلسنا حولها، والتقط وجيه بيضة وضعها في فمه كاملة، وتكلم:

- هل تذكر الدكتور رأفت؟

- طبيب المسالك البولية الذي عاد إلى مصر منذ شهرين؟

- أجل.

وانشغل ببيضة جديدة وضعها في فمه أيضاً ثم تكلم:

- ذهب إلى أميركا. واشترى معدات العيادة كاملة. ومات قبل أن يفتح العيادة.

وسكت ولم أزد. رحت أكل على مهل، وعاد هو يلتقط البيض بيضة فبيضة يضعها في فمه كاملة، وقال:

- شيء غريب. ليس كذلك؟

ولم أزد. سعيد الذي قرر العودة النهائية آخر العام يجبر على العودة قبل الموعد. رأفت الذي كان سعيداً بقدرته على حسم موعد غودته يعود ليموت. لماذا لم أقابل وجيهاً أمس؟ لو قابلته أمس لتحدثنا في شيء آخر. أنا أريد أن أقرأ رسالة عائدة مرة رابعة. أريد الكتابة إليها. لماذا يؤكد الجميع لي درس هذه البلاد؟ هذا أرض تأبى إلا أن تمسك بما يسقط فيها ولا تتركه. إذا تمرد تقتله. بضربة قدر أو حظ عاثر أو خطأ ساذج تقتله. تقتله في كل الأحوال. القتل هو الغاية. وعائدة تعرف وتذهب إلى حتفها بيدها. وصالح ستيور الثقفي ابن بار لهذه البلاد، يحب وهو الصغير الهش، أن تكون له اليد الطولى حتى في الإحسان. لقد امتلك البدوي الثروة، ولا يقطن أنها ليست من صنع يده، فالويل كل الويل لأبناء الحواضر والمدن.

كيف أكتب رسالة إلى عائدة الآن ووجبه ينام على سريري الضيق يشخر ولا يترك لي إلا مساحة ضئيلة لا أستطيع فيها حركة. قال إنه أخذ اليوم راحة لأنه كان من المستحيل أن يستمر في العمل ليلتين بلا نوم بالنهار. انشغل بالنهار مضطراً مع أحمد الذي لم يكن مناسباً له أن يترك مصر. وجبه قال ذلك. وقال إنه يعرف أسرة أحمد، وبينه وبينها صداقة قديمة. وفرح جداً بعجيبته إلى المملكة، لكن أحمد شخص رفيع مثل الدانتيل لا يمكن أن يتحمل. لم يمض أسبوع على مجيئه هنا وكلفه مدير المستشفى بمصاحبة المرأة اللبنانية الصغيرة إلى المطار. واليوم كلفه المدير بالذهاب إلى القاعدة العسكرية لحضور أعدام جندي سبق له أن أطلق النار على ضابطه لم يكن الأعدام بالسيف بل بالرصاص عن الطريقة العسكرية، وكان على أحمد أن يذهب ليضع علامة بالدهان الأبيض حول قلب الجندي ليقوم فريق الأعدام من الجنود بالتصويب إليها ثم يكشف على الجثة بعد ذلك ويثبت موتها. رفض أحمد كثيراً، لكن المدير صمم، فذهب المسكين، ووضع العلامة حول القلب، وانطلق الرصاص، فاصاب كل جزء في الجسم إلا القلب. لقد حملوا الجندي وأحمد في سيارة اسعاف واحدة إلى المستشفى. الجندي إلى الشلاجة وأحمد منهاراً إلى غرفة الأطباء. سيسافر أحمد إلى القاهرة بعد أيام. طلب إنهاء تعاقدته بمجرد أن تفاق من الانهيار الذي أصابه، وأمضى وجبه اليوم كله معه، وعجز عن إثنائه عن عزمه على الرحيل فاصطحبه معه أخيراً إلى البيت خوفاً عليه.

لا رسائل من أحد.

ولا تلوميني إذا تأخرت عليك. كنت سافرت إلى مصر. عشرون يوماً قضيتها هناك. مهمة عاجلة لم استمع الاعتذار عنها. هل كنت محتاجاً لذلك ولا أبري؟ هناك أحسست بحاجتي إلى العودة. والآن أريد أن أسافر، ليس إلى مصر. إذا كان هناك شيء له شأن في عودتي إلى هنا مرة ثانية فهو أنت.. لا أستطيع الاستمرار.

أريد أن أزورك وأخاف. ما معنى أن تستقبلني بحفاوة ثم أعود؟ أخاف أن أطيل فأفسد الأمر كله.

النهار هنا مثل النهار عندك. الليل هنا مثل الليل عندك. السماء فوق هذه البلاد واحدة، وريح العجاج تضربنا جميعاً لكن ليس لي قوتك. خلقت أنت لثبذل والعطاء. خلقت أنا للمعرفة المتأخرة. أريد أن أفوز مرة واحدة باليقين في مواعده. رأيك كثيراً في يفتلتي ومنامي تأخذين يدي بعيداً عن الموت.. أريد أن آخذ يدك بعيداً عن اختيارك المستحيل. هل تقبلينني يا عابدة زوجاً أم ترى تلوميني؟

ولا رسائل..

منتديات مكتبة العرب

<http://library4arab.com/vb>

كل يوم انظر في عيني عابد. هو الذي ينزل البلدة أكثر من مرة
ويمر بالبريد، وعابد لا يحمل إلا أوامر بالانتظار حتى يعود مرة
أخرى.

مضيئاً قُدماً في شهر مارس. وطرد وجه الربيع كثيراً من برودة
الصباح بما جاء به من ضوء، ولم يمنع هبوب ريح العجاج.

- أين أرشد؟

سألت الجاكستانيين الذين عادوا من اجازتهم ودخلوا مكتبي
مبتهجين في صباح هذا اليوم الجميل.
- «سُرور» يعرف. إنه يسكن بالقرب منه في بيشاور.

ودخل «سُرور» بعد لحظات. قصير يكاد يقفز في مشيته، وبارق
العينين، مبتسم دائماً.

- أين أرشد يا سُرور؟

- أرشد مسكين مستر اسماعيل.. في السجن الآن.

- سجن؟

- أجل مستر اسماعيل. قبضوا عليه لحظة وصولنا. لن يعود
هنا مستر اسماعيل.

.....

- أرشد يعمل مع المعارضة مستر اسماعيل. المعارضة ترسل
رجالها إلى بلاد كثيرة في الخليج لجمع الأموال. هكذا تقول
الصحافة مستر اسماعيل.

.....

- أنا أسف مستر اسماعيل.. أنا اعرف أنه كان خير صديق.

وخرج «سُرور»، إذن لن يعود أرشد أبداً. يا الهي! ماذا يفعلون
به الآن؟ «العسكريون أغبياء مستر اسماعيل»، قال لي ذلك قبل
سمعه العسكريون؟

ورأيت عابداً يقف عند الباب مبتسماً، ويسألني:

- شفت منذر؟

- لم يأت حتى الآن.

- لن يأتي.

.....

قبض عليه أمس بتهمة محاولة اغتصاب، ولا يزال في الشرطة.
- أنا لن اعمل اليوم.

وقمت مسرعاً إلى سيارتي، وانطلقت بها غير مبال بنداءات عابد
المتكررة لي بالعودة، ولا بالدهشة المروعة التي علت وجهه حين قلت
ذلك.

الضوء أمامي يوسع في الدنيا، والرمال حترامية في جلال باهر،
وفوقي ندف متفرقة من سحب واهنة، وفوقنا كلنا سماء شديدة
الزرق والصفاء. لماذا يا ربي منذ أتيت إلى هذه البلدة لم أر طيراً
واحداً في السماء؟ حتى العصافير التي كنت أسمع شقشقاتها في
المستشفى خارج النافذة لم أراها، ولم تدخل واحدة لتقف لحظة
على أفريز النافذة تنظر إلينا وتقر عائدة. بلد بلا طيور. كيف ذلك؟
أم أنني لم اعد ارفع بصري إلى أعلى؟

بالقرب من الموقع الذي رأيت فيه الكلب مرة جاهدت أن لا أنظر.
لماذا تحتاجني الرغبة اليوم في النظر؟ نظرت، ورأيت، لم يتغير الكلب
الأبيض الضخم مثل الصمار الشارد.

وظللت أقود سيارتي بجنون حتى انتهى الشارع، وهذأت من
سرعتي استعداداً للانحراف إلى الشارع العام. الآن فقط أدركت
أنني ذاهب إلى الشرطة لأقابل منذر. والآن فقط سألت نفسي: هل هذا
ممكن؟ ولم أنتظر الإجابة. ولم تنتظر السيارة الكابريس التي
انحرفت نحوي فاندفعت بسيارتي بعيداً، لكنني تركت نهر الطريق
وصعدت الرصيف الصغير الذي يتوسط الشارع، ودخلت في النهر
الأخر، وطلقا اصطدمت بسيارة أخرى، واصطدم صدري بمقود
سيارتي وأنا اندفع برأسي في الزجاج الأمامي، ولم أشعر إلا بالناس
تشدني من فوق مقدمة السيارة ومن بين زجاجها الأمامي الذي
تهشم تماماً والألم في رأسي وجهي يشويني وفي صدري يكاد
يختنقني.

- خيراً خيراً.

يقول الوجه المصري البشوش للشباب الصغير الذي لا أعرفه،
والزحام حولي شديد، وأنا ممدد جالساً فوق الرصيف أغالب
الشعور بالانغماء، وأشعر بالدم الساخن على وجهي، ورأيت ضابطاً
سعودياً شاباً يصرخ صائحاً بلا انقطاع:

- أنت؟!

أطل وجه وجهي من بين الزحام.

- هيا إلى المستشفى، ضعه في سيارتي.

- خيراً خيراً إن شاء الله.

يقول الشاب المصري البشوش، الصغير السن وهو يأخذني من
ذراعي، استند إليه، ويمشي بي إلى سيارة وجهي.
- لن يذهب إلى المستشفى. الشرطة أولاً.

صرخ الضابط بوجهي، فصرخ به وجهي أيضاً:

أنا الدكتور وجهي رئيس قسم الجراحة بالمستشفى. هذا الشاب
سينزف حتى الموت هنا أو في الشرطة. هل تتحمل ذلك؟
- إذن أنت مسؤول عن تسليمه.
- أنا مسؤول عن تسليمه.

وأخذني وجهي من ذراعي الثاني، وركبنا سيارته أنا والشباب
المصري البشوش، الصغير السن الذي لا يزال يردد:
- خيراً خيراً إن شاء الله. لا تقلق.

ولم يكف عن الابتسام لي وجهي، فابتسمت له. رأيت ابتسامته
شديدة العذوبة. قلت:

- ماذا حدث؟

- حادث بسيط.

قال الشاب، لكن وجهي قال:

- ليس بسيطاً. لقد صدمت بسيارتك سيارة شرطة يا استاذ.

أحمد ربك أنني عائد من المستشفى الآن ورايتك.

- هل تعرفه يا دكتور؟

- طبعاً. تسكن معاً.

- الحمد لله. إذن أنزلني أنا هنا. لا أظن أنكما ستحتاجاني في
شيء. هل تحتاجاني في شيء؟

- لا، نشكرك جداً.

قال وجيهة وابتسمت أنا ومددت يدي بصعوبة أصافحه، فريئت عليها بيديه ونزل.

لم يأخذني وجيهة الى المستشفى. أخذني إلى العيادة الرئيسية بالشارع العام. هناك تمددت فوق طاولة الكشف وراح هو وممرضة مصرية سمراء ينقيان جروح رأسي الصغيرة من شظايا الزجاج الذي لم يكن كثيراً، لكنه احتاج إلى أن يخلق لي شعور رأسي كله.

كان يضحك وهو ينظر إلى رأسي بعد الحلاقة، ولم يجد في وجهي الا شظيتين صغيرتين في جبھتي، وارتاح كثيراً حين وجد ضلوعي سليمة.

وقال:

- لا بد أن أكتب تقريراً كبيراً حتى أعزز موقفك أمام الشرطة.

- هل يحتاج الأمر لذلك؟

- طبعاً. لقد انحرفت عن الطريق إلى طريق آخر وصدمت سيارة شرطة في الحالات العادية يمكن أن تدفع للمتضرر ثمن الخسائر، لكن مع الشرطة لا اعرف ماذا يمكن أن يحدث. ألم تجد غير سيارة الشرطة تصدمها؟

- انما لم اصدم احداً. رايت كأن سيارة كابريس تهاجمني فأنحرفت ولم أدرك كيف صعدت على الفاصل بين نهري الطريق. وضحك.

- يمكن أن ترى شكك في المرأة وتضحك على كل حال. سألف رأسك بالشاش رغم عدم حاجتك اليه حتى تبو أمام الشرطة شخصاً يستحق الشفقة.

لف رأسي ونظر في ساعته وقال:

- لم يأت أحد. يمكن أن تذهب الى البيت الآن.

- لكنني اريد الذهاب إلى الشرطة.

- نعم!!؟

- أنا تركت العمل للذهاب الى الشرطة.

- لماذا؟

ولم أرد إذ دخل الضابط الذي كان يصرخ وقت الحادثة وطلب ان اصحبه، وقبل أن يقول وجيهة شيئاً قلت:

- استطيع الذهاب معك.

ورأيت وجيهة ينظر إلي بغير ودهشة، وقال:

- سأذهب أنا أيضاً معكما.

كانت خطة وجيهة أن يتصل تليفونياً بأبي حكيم قبل ذهابنا. لقد حاول موتين فلم يجده. كان يخشى أن يتحول الأمر الى المحكمة في غياب أبي حكيم، وفي هذه الحالة لا أقل من شهر حبس، لذلك أراد ان يماطل الضابط ولم يدري اني أود الذهاب بأسرع وقت حتى أرى منذر قبل ترحيله أو نقله إلى السجن. لماذا حقاً أريد أن أرى منذر؟

ووصلنا واستقبلنا ابر حكيم، ورأيت وجيهة يتنفس بارتياح.

- ازعجناكم يا اخوان يا مصريين. لا تؤاخذونا، سوف تعطيك

الذبة يا أستاذ اسماعيل لو تنازلت للكلب المخبل.

قال أبو حكيم فجأة بعد أن جلسنا، ومر علينا الشيخ المسن بابر يق الشاي. ونظر إلي وحيه في دهشة، وداس على قدمي، ففهمت أنه يطلب مني الصمت. وعاد أبو حكيم يقول:

- أمسكنا بسائق الكابريس. دلنا عليه الناس. ما لهذا الولد لكم يا دكتور؟ هذا الفاسق لن ينجو من يدي سأوقعه، نكن في مسألة تستحق. إيش بيغي منك يا أخ اسماعيل؟
- أنا لا أعرف عن تحدث.

- صالح، الثقيفي. أظن أنكم تركتم بيته.

رد وحيه بعد أن نظر إلي يحذرني من الكلام:

- تركناه بسلام وعلاقنا معه طيبة ولا أظن أن صالحاً يقصد شيئاً..

كنت أنا أفكر في كلام أبي حكيم. هل كان صالح الثقيفي هو سائق الكابريس حقاً؟ ماذا كان يريد مني؟ هل أراد قتلي أم توريطي في حادث كبير؟ لا أستطيع أن أصدق، من ضمن لقاء الشعرة بين توريطي وموتي؟ قلت في استسلام:

- أنا أيضاً لا أظن أنه كان يقصد شيئاً.

ضحك أبو حكيم وقال:

- أنت يا دكتور صرت نعرفنا لكن صاحبك ما يعرفنا بعد، أتراك

يا أخي يتحدث بحرية - وخاضعني - لا تخش شيئاً يا أخ اسماعيل
هنا قانون وشرطة يمكن أن تحميك.

- أشكرك. لكن هذه هي الحقيقة.

- والذبة هل تنازل عنها أيضاً؟

- أنازل عنها.

- أحوالكم أحوال يا مصريين!

ومر بنا الشيخ المسن يحمل إبريق القهوة مرة ثانية، فشربت فتجناً منها لأول مرة، وأحسست بالمرارة التي لا أطيقها في حلقي. فشربت فتجناً ثانياً وقلت:

- لي مشكلة صغيرة هنا يا أبو حكيم.

جاء منذر منكسر الوجه، شديد الشحوب. رأيته، ورأيت عينيه حمراوين بينما يتسم ساخراً، تركت العمارة يا أستاذ إلى بيت عربي. بيت قديم جميل به شجر نخيل وشجر ليمون. زوجتي حامل وقلت الحديقة للولد. جهاد. ساسميه جهاداً. ماذا جرى يا أستاذ؟ منذر لا ينسى، منذر لا يكل ولا يتعب، كل شيء بلا منذر يتوقف. جامعي الملعون زوجها، الشيخ المسن الذي بالكاد يمشي ويتكلم وبالكاد يفعل أي شيء، وطلب أن أذهب معه لاصلاح تكييف العمارة. من شقة لشقة تنقلت حتى وصلت شقته. دخلت ويدخل معي وخرج وأنا لا أشعر وجامت الشرطة وأنا أقف فوق السلم أعالج الكابلات. فيلم سينمائي يا أستاذ. سترى. لن يحاكموني ولن أدخل السجن سأرحل من البلاد. ترحيلك صعب يا منذر. الفلسطينيون يحاكمون ويسجنون ويعاقبون ولا يرحلون. الفلسطينيون يا أستاذ! الآن أنا أردني وأنا غير حزين. ترحيلي يعني أن لي وطناً أعود إليه. وجدوا لي وطناً يا أستاذ. ولا أحد يرفض الوطن.

يذهب الرئيس المصري إلى إسرائيل حتى لا تستمر هذه القطيعة بين البلدين، وتساءل هل تقبل الجامعة المصرية الشباب السعودي الآن؟ هل توافق الحكومة السعودية على التحاق شبابها بالجامعة المصرية؟»

والصديقة واضحة نقول اننا كنا نتمنى معك، لكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه. هذا مثل عربي قديم. وبالنسبة للالتحاق بالجامعة المصرية، ففي بلادنا الآن جامعات على اعلى مستوى، لذلك لا أظن أن هناك معنى لاستكمال شبابنا تعليمه في مصر.

تطلّ عليّ واضحة إذن في رسائل غير مباشرة. من قال لها انني اقرأ المجلات المحلية تعرف أن الوقت لا يمر رغم سرقة الأعمار. لا بد.

«هيا يا ولده. أشمار أبو حكيم للشرطي أن يأخذ متذراً، وأنا لم استطيع إلا أن احتضنه وأقبله. «سامحني يا استاذ. أنا احبك. احب المصريين جداً. لا اكتره الا السادات يا استاذ. أنا أحد جدودي مصري. مصري رفض أن يحفر في القنال وهرب إلى الشام». لكن الشرطي جذبه وترك منذر نفسه له.

- لا تحزن يا مصري. هذا حال الدنيا كما تقولون في مصر. لا تصدق رواية هذا الوند.

كيف سمعه أبو حكيم وهو يتحدث الي بصوت خفيض.

- حياك الله.

- في امان الله.

مدّ وجهه يده يصافح أبا حكيم. لم أمد يدي أصافحه ولم يفعل هو أيضاً. خرجت غير مصدق أنه كان لبيت منذر الجديد حديقة بها نخيل وشجر ليمون. لا أعرف هذا إلا بيتاً واحداً فيه ذلك، وفيه سيد الغريب ينتظر.

مرهقاً عدت الى البيت. دخل وجهي إلى غرفته لانيام. في غرفتي استلقيت فوق السرير. «كمين منصوب لي يا استاذ وأنا أعرف». ذهب للكمين بقدميه وبكامل الوصي. وتناولت إحدى المجلات الملقاة جوار السرير فوق الأرض اقرأ عنوانها. لماذا فتحتها عن الصفحات الأخيرة أتأمل رسائل القراء؟

« جاءنا من الصديقة واضحة بنت سليمان بن سبيل بالرياض رسالة تقول فيها إنها تحب مصر جداً وإنها كانت تتمنى لو لم

منتديات مكتبة العرب

<http://library4arab.com/vb>

جميلة هي الدنيا والحياة جديرة حقاً بأن تعاش فنحن لانحياها
 الا مرة واحدة. يا لله هنا والآن. تنشق رأسي شيئاً فشيئاً
 وتنسكب فيها حيوية الصبا واندفاعته وأتذكر كل كتاب قرأته. من
 قال ذلك يا اسماعيل؟ أوستروفسكي وهو يشق صفوف الجيش
 الأبيض بسيفه ورصاصه والتفازل بالمستقبل يسبقه. لكني خبير
 قديم بأكاذيب الكتاب ولا يجب أن أنخدع الآن فيبدو الأمر
 مضحكاً، وأنا بحق لست في حاجة إلى آلام جديدة. ها أنذا أرى
 الفضاء حولي أنتي تطلع كل يوم عن جسمها رداء فتزداد سحراً،
 وننتقدم في شهر مارس فأتخفف كل يوم في ثيابي، وحارس الريح
 حبس العجاج في كهفه، وقتل ديكه الأغبر إذ اكتشف أنه بعد أن
 مرّق جناحيه راح ينفث التراب من منقاره. لكن لم يمتني رد من
 عابدة حتى الآن. وكل يوم أقرر السفر إليها، وكل يوم أنتظر.

رتبت للفئران مقلة، وصنعت لرجاً خشبياً تحت حوض المطبخ
 يصنع مع الجدار زاوية حادة، ورحت أظاردها حتى تدخل بين
 اللوح والحاظ، وأدوس اللوح بقدمي فادهسها بينه وبين الجدار،
 قتلت ثلاثة حتى الآن، واليوم فكرت أن تبدأ في إحصاء قتلاي. لقد

استيقظت نشطاً، وافطرت ميتجاً ببيضتين، وجريت في الزدهة
وقفزت انظر الى السماء الصافية. وفتحت غمي للهواء النقي،
ووقفت فجأة وقررت إحصاء قتلاي.

في حجرتي وقفت وكراسته الخطابات في يدي لأسجل فيها عدد
القتلى الذين لا اعرف اسماءهم. اليوم هو السادس والعشرين من
مارس عام ١٩٧٩. واتسعت الغرفة بي كأنما انسكب في صدري
ماء منعش بارد. ناذا لا أبدأ من اليوم كتابة المذكرات؟ كتابة
المذكرات تجعلني شخصاً ثالثاً أرى بعين لا تثقل القلب بالأوجاع.
من ذلك الخبيث الذي قرأت له ذلك مرة؟ لا أذكر ولا يهمني ذلك
الآن، ولأذهب مسرعاً الى العمل.

ولم اكتب المذكرات ابداً. لم يكن سهلاً أن أصبح شخصاً ثالثاً.
اخترت وقتاً غير مناسب لادعاء القوة. دخلت سيارة عم عبد الله إلى
النباحه فانثارت زوبعة الغراب. دائماً يدخل عم عبد الله مسرعاً،
ويحتس الآن لا ينتهي التراب من فوق الأرض، الذي يطير من فوقها
بالتنهار، تعود الشياطين وتفرشه فوقها بالليل.

دخل عابد غرفتي والهلح يكاد يقفز من عيني:

- هل اخطأت في شيء؟

- لا.

- عم عبد الله غاضب جداً. يطلبك فاذهب ولا ترد عليه.

نهضت تاركاً مكتبتي في دهشة، وافكر أيضاً في الرقة التي تفيض
من عابد فجأة.

- إيش سويت في مصر؟

-

- إيش سويت في مسألة البضائع؟

- لا شيء. لم أجدها في أي مكان. أخبرتك بذلك.

- خذ.

والقى عم عبد الله بورقة صغيرة لم تصل إلي ولم تستقر على
مكتبتي، فأنحنيت والتقطتها من فوق الأرض. وصرخ في:

- اقرأ.

«معدرة مستر عبد الله. لن أعود إلى المملكة. وداعاً. لاري».

- أقدر معنى هذا؟

- لن أعود مستر لاري.

- لاري لص سرق ثلاثمائة الف دولار، وأنت مصري فرعون
خبيث ذهبت إلى بيته اكلت وشربت خمرأ ونمت مع زوجته. تمت مع
روز أم لا؟

- لا.

وسكنتمنا وسكنت الدنيا حولنا. قلت لا بصوت لا يكاد يسمع.
وكدت اقول: انتك انت الذي تنام مع روز، وأن حجرة عابد ونيل هي
فراشكما. وانتك أنت الذي تخالف قوانين المملكة فتسهل لها العمل
في حضانتك، وتسهل لزوجها نهب الأموال فالشركة ليست شركتك،
وما أنت إلا مدير لا ترعى الا مصالحك التي تستخدم فيها عابدأ
اكثر مما تستخدمه في العمل، لكنني وقفت صامتاً لا أدري من أين
يأتي الانفجار بعد هذا الصمت.

- أمشِ أمشِ من أمامي.

قال بألم واضح، وخرجت غير مستاء. ضايقتني فقط أنني لم أقم
حقاً مع روز.

لم يظهر اليميني اليوم أيضاً. نظرت إلى الساعة فوجدتها الثانية
عشرة، ونظرت إلى الباحة فلم أجده. نسيت أنه لم يظهر منذ أيام.
كما نسيت أن أسأل عن السبب.

ودخل نبيل الغرفة يحمل القهوة بلحيته التي لا يزال يطلقها
والتي ازداد طولها. وبدأ أنه يريد أن يتحدث معي. وقف قليلاً
متردداً ثم جلس وهو يسألني:

- ماذا سيحدث الآن؟

- فليم؟

- مكوك الفضاء الأمريكي.

- ذلك الذي تعطل في الفضاء؟

- أجل.

- سيسقط في أي مكان. الادعاءات تقول ذلك.

- وهل أنت راضٍ عن ذلك؟

- أربكني نبيل. قلتُ ميتسماً ومتحيراً:

- وماذا أستطيع أن أفعل؟

- سَكَتُ قليلاً وقال:

- لم يقل أحد أين سيسقط بالضبط.

- لقد قالوا أن استراليا هي أكثر الأماكن احتمالاً لسقوطه.

- لكنه لم يسقط حتى الآن. انتحر ثلاثة في استراليا فرحاً ولم
يسقط.

وسكتنا وأنا لا أستطيع أن أضحك. أفكر بجد في طريقة أعالج
بها ما يسيطر على ذهني من أفكار، وأعجز، ولا أدري سر هذا
التحول في عقله. قلت:

- لقد انتهت ظامرة الأطباق العائنة ولم يحدث شيء. سينتهي
المكوك أيضاً بسلام.

- لا أظن. هذا مكوك حقيقي له أصحاب معروفون.

- نبيل حدثني عن نفسك أفضل. كيف حالك هذه الأيام، ألا
تصلك رسائل من مصر؟

- وصلتني رسالة من أمي تقول فيها أن خطيبتني تزوجت من
سائق التاكسي.

- وعدنا إلى الصمت. رأيت دمعاً يكاد يتفرق في عينيه.

- أعزّ بنفك يا نبيل، الإنسان يمكن أن ينسى كل شيء مع
الوقت. يمكن دائماً أن يبدأ من جديد.

- لا أظن أن أمي صادقة.

- قال ذلك وتركني.

عدت إلى البيت وتناولت الغداء مع وجيه. لم نتحدث كثيراً. كنت
أود الانتهاء من الطعام بسرعة لأنفرد بنفسي في الغرفة. لقد أحضر
لي عابد اليوم رسالتين، أعطاهما لي والتفت يغادر المكتب، لكنه بعد
خطوة أو خطوتين عاد يلتفت لي ويبتسم. كان اسم عابدة ظاهراً

خلف مظلوف إحدى الرسائلتين، واسم أخي غلى الأخرى. افقدني فرحتي بالرسالتين، وتوقعت أن يعود إلى المكتب مرة أخرى ليراني أقرأ فيهما. لا أدري لماذا فكرت في «يورياه هيب» في رواية ديقيد كوبر فيلد التي شرعت يوماً في ترجمتها ولم أتمها. لم أصدق أن اليوم انتهى، وأنه يمكن أن أعود إلى البيت وأفرد بنفسي أقرأ أصراري.

«وصلتني رسالتك وأنا استعد للسفر. يبدو أنك لم تمرض وقتاً طويلاً في مصر. أنت لم تفصح عن شيء، لكن كل الذين يذهبون إلى مصر يأتون ويقولون ذلك. لماذا؟ ويذهبون هناك بشكون من هنا أيضاً.

طبعاً كان يمكن أن تزورني. لا أجد حرجاً في ذلك. المهم أن تأتي في وقت مبكر. لم يكن صعباً أن أقدمك لزميلاتي وزملائي كصديق عزيز. الآن لا تستطيع أن تزورني لأنني سأسافر في الصباح. كم كان بودي أن استقبلك حقاً. لا أستطيع أن أفعل شيئاً الآن. زار المستوصف وزير الصحة وسمع عن امتيازتي. ضحك كثيراً حين عرف أنني أبنت وحدي في المستوصف. تعجب كيف لا يصيبني خوف أو جنون. وقال لا بد من تكريمي، وأمر بنقلي إلى «أبهاء» في الجنوب. «أبهاء» مدينة جميلة بحق. يقولون إنها أوروبية المناخ جاءت زيارة الوزير في وقت دقيق. كنت بدأت أفقد شيئاً من قوتي وبدأ الخوف يجد مسالك إلى قلبي. ما أربح المستوصف بالليل السماء فوقتي جميلة لكن هل يمكن أن أمضي الليل أنظر إلى أعلى لا تليفزيون هنا فالإرسال لم يدخل البلدة بعد. الراديو هو صديقي والراديو لا يبث إلا الألم. صارت حركة الأشياء تحت الريح فوق

السطح تصيبني بالرهب، وكل طارق للباب من أجل دواء أظنه رجل لمن جاء للقبض على هاشم. كانوا يأتون بالليل دائماً. هل تعرف ما شغل ذهني في الأيام السابقة؟ سؤال غريب. ضبا بلدتان. بلدة قديمة وبلدة جديدة بالقرب منها. هجر الناس القديمة. لكن الجديدة لا تختلف عن القديمة في شيء. كيف تفسر هذا الأمر؟

حتى أرسل لك عنواني الجديد لك السلام والأمان».

ولا إجابة عن سؤالي. سمعت خشخشة هار في المطبخ، فقامت وطارده وأخرجته من خلف دولااب الأواني وأدخلته بين اللوح الخشبي والحائط ودهسته.

لم يخرج وجيهاً اليوم إلى العمل.

- هناك شيء أخفيته عنك يا أسماعيل.

.....

- أنا سأنقل إلى مستشفى «الملك» بالمدينة المنورة.

.....

- يمكن أن أشرح لك أحد المصريين يعيش معك.

- سنتنقل نهائياً؟

- تقريباً.. وسأسافر غداً.

- لا حاجة بي لأحد.

- ستعيش في البيت وحدك؟

لم ارد. كأنه لا يعرف أنني أعيش وحدي منذ أن أتيت. وهو أيضاً لا يعرف أن رسالة أخي خملت خبراً بمرض أمي وأنها بحاجة إلى

ماتني جنينه. لم يوضح لي أخي أي مرض أصاب أمي. انساني لدقاتو خطاب عايدة، وانساني حديث وجيه الخطابين معاً، وانساني المذيع الذي يتحدث أمامنا الآن كل شيء. قال إن الإرسال سينتقل إلى إذاعة خارجية لينقل مراسم التوقيع على معاهدة كامب ديفيد في البيت الأبيض الأمريكي. نحن لا ننتقلها على الهواء تاييداً ولا تيمناً، إنما لجرى الشعب الخيانة بعينيه».

كارتر يقف مبتسماً وسط مائدة بيضاء طويلة وجواره على اليمين يقف السادات وعلى اليسار يقف بيجن والزهور فوق المائدة تكاد تخفيها وعلى الناحيتين الحديقتي الواسعة وحشود من رجال السياسة وعشرات من الصحافيين يترقبون ويلتقطون الصور التذكارية. كارتر يتحدث عن الجهود المضنية التي بذلها الزعماء الثلاثة للوصول إلى هذه الاتفاقية، والآمال الكبيرة لانتهاء الصراع في الشرق الأوسط، ويتحدث عن السلام في العهد القديم وفي القرآن. «وإن جئناوا للسلم فاجئناها» يقولها بالعربية. ويضع صوت كارتر ويبرز صوت المذيع المحلي: «والقرآن أيضاً يقول وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم». صدق الله العظيم.

في الفجر قمت وجلسيت فوق السرير، وأضأت نور الغرفة وقلت لن أنام بعد اليوم في هذا البلد. دخلت مسرحاً كبيراً بلا مقاعد، كُله خشبة مربعة، والمتفرج الوحيد هو أنا الجالس على المقعد الوحيد عند الباب، وفوق الخشبة تسعة عشر رجلاً وامرأة وطفلاً وطفلة، يقفون على الناحيتين، وفي قلب الخشبة البعيد امرأة مربوطة من

ذراعها إلى ظهر سرير، مثنية ساقها عند الركبتين وغطى نصفها الأسفل ملاعة بيضاء، وتصرخ وترتفع بنصفها الأعلى فيظهر العرق غامراً وجهها وتجحظ عيناها بألم رهيب، وتجحظ عيون الرجال والنساء والأطفال بالخوف والهلع، وأعلى المرأة جلس الشيطان في مقعد معلق، وله قرنان أزرقان ووجهه ملطخ بالألوان الحمراء والأزرقاء والصفراء ويزداد الضوء على وجهه.

الشيطان: (ضاحكاً بالضحك) يمكن أن أزيل خوفكم.

الرجال: (في ضراعة) كيف يا سيد النار والظلام؟

الشيطان: (يفتح) تخفون واحداً يموت.

(يتبادل الرجال والنساء النظرات في ألم، وتمسك النساء بأيدي الأطفال في خوف).

الرجال: ما أصعب الاختيار. (يرتكزون بسيقانهم على الأرض ويرفعون أيديهم في ضراعة) لماذا تفعل ذلك بنا نحن الذين اخترناك معلماً لنا وهادياً؟

الشيطان: (ضاحكاً) من أعمالكم سُلط عليكم.

النساء: (في جراءة للرجال) لا تستمعوا إليه. هذا مخاض خدع آباءنا وسبب لنا كل هذا الشقاء.

الشيطان: (ضاحكاً بصوت مجسم) إذن انتظروا حتى تلد. ها هو المخاض يشتد.

تسقط أضواء زرقاء وحمراء على المرأة المربوطة بالسرير، ويختلط

صراخها بموجات الضوء السريعة، فلا يعرف أحد ما إذا كان يرى أو يسمع. ويقفز شاب في حوالي الثلاثين إلى الخشبة فجأة. أراه فأدرك أنه أنا. كيف قمت من مقعدي وفقرت دون أن أدري؟

أنا: (صارخاً بالرجال) .. لن يموت منكم أحد. هذا ليس بشيطان. ما الذي يجعل الشيطان يعذبكم هكذا؟ هذا ضميركم يستيقظ أمامكم بعد مئات السنين، هذا أول الغيث. ستلد المرأة ولن يموت منكم أحد. هل عشتُم في عصر محمد؟

الرجال والنساء: لا.

أنا: هل رآه أحدكم؟

الرجل والنساء: لا.

أنا: هل سمعتم أن الله يعذب الأبناء بذنب الآباء؟

الرجال والنساء: لا.

أنا: لو جاء اليكم الآن هل تمنعوه ما عكم؟

الرجال والنساء: لا.

أنا: (للرجال) إذن قفوا وانصرفوا حتى تلد المرأة، المرأة تتعثر لأنه لم نسمع عن امرأة ولدت وسط الرجال. (يقف الرجال لكنهم لا يتحركون).

الرجال: اقدامنا مقيدة بالأرض.

الشيطان: (يضحك بشراسة ويحدثني) هل تعرف حقيقة هذا البلد؟

أنا: (أتقدم نحوه وأطلع غالياً إليه والضوء الأزرق يغمرنني) أعرف.

الشيطان: هل جئت تنقذها من لعنتها؟ أنا: أجل.

الشيطان: كان عليك أن تضحي من أجلهم (يخاطبهم) اسألوه إذا كان مستعداً لأن يفعل ذلك.

(ينظر الجميع نحوي. يتقدم الأطفال يتعلقون بساقي باكين. لا أحد يتكلم. يُسمع صوت بكاء طفل وليد).

الشيطان: (ضاحكاً) ها هي المرأة وضعت. سيموت منكم واحد الآن إن لم تقدّموا واحداً طرعية واختياراً.

ويسقط الرجال يتقلبون على الأرض في ألم، ويهرع النساء إلى الأطفال. تحتضن كل واحدة طفلها في صدرها. أترجع أنا إلى الخلف شيئاً فشيئاً. وقبل أن أسقط من فوق الخشبة يقف الرجال ويسرعة بهجوم علي ويضعوني في الهواء يقذفون بي إلى الشيطان الجالس عالياً. فيحملني من ذراعي، ويقذف بي إلى هاوية سحيقة بين جبلين عاليين ووسط بخار أبيض وأزرق وأحمر يحاصرني ويدخل ساخناً إلى صدري يكاد يخنقني وأنا أقلب ساقطاً ولا تلحق بي الذراعان اللتان ميزت بينهما وجه أُمي فزعاً ولا أصل إلى قرار الهاوية.

ازداد هجوم الفئران وازداد هجومي . وحدي أنا الآن وقد مضى
اسبوعان على سفروحيه إلى المدينة، وأرسل الحرلنا لفحة من نيرانه
استغرقت خمسة أيام تشوي البلدة، ثم تراجعت مفسحة الطريق
لريح العجاج تهب كل ساعة وفي القلب من كل ساعة، ولا رسالة
تأتي من عابدة تخبرني فيها بعنوانها الجديد، ولا تفسير للرسائل
المتكررة باسم و. س. س في المجلات المحلية والعربية التي صرت
أحرص على شرائها.

«أرسلت لنا الأخت و. س. س من الطائف تسأل هل يمكن أن
تصدر فتوى في الملكية تمنع الزواج إذا تجاوز الفارق في العمرين
الرجل والمرأة عشرين سنة؟»

بالطبع يا أخت و. س. س لا يمكن أن تصدر فتوى ولا تشريع
بذلك.

«أرسلت لنا الأخت و. س. س من الدمام تسأل ما الحكمة في
سفور المرأة في الأماكن المقدسة، وحجابها في بقية البلدان؟
والحكمة يا أخت واضحة أن الناس في الأماكن المقدسة تتوجه إلى

منتديات مكتبة العرب

<http://library4arab.com/vb>

الخالق عز وجل، والمفترض أن يغض الجميع البصر كما أمرنا الدين الحنيف. أما في بقية البلدان فالتناس أصحاب مصالح وتجارة وعمل وعلاقات متداخلة. ويجب أن يستعينوا بكل الطرق على خمد نيران الشهوة.

«أرسلت لنا الأخت واضحة بنت سليمان بن سبيل من الرياض تسأل عن قاتل هذا البيت من الشعر وما هو البيت الذي يليه.

«صفاني الشعب طيباً في الغاني

بمنزلة الربيع من الزمان»

وقاتل هذا البيت هو أبو الطيب المتنبي شاعر العربية الأكبر حين زار بلدة بوان في فارس، والبيت الذي يليه هو:

«ولكن الفتى العربي فيها

غريب الوجه واليد واللسان»

والأخت واضحة تتحفنا دائماً برسائلها التي تتضمن كثيراً من الأبيات الراقية، فلدينا رسالة أخرى منها تأخرنا في الرد عليها تسأل عن معنى هذا البيت.

«والأسي قبل فرقة الروح عجز

والأسي لا يكون بعد الفراق،

وهذا أيضاً لأبي الطيب المتنبي الذي اشتهر بالحكمة البالغة، فهو هنا لا يدعو إلى الصبر على موت الأحباء كما قد يتصور سذج الشارحين، ولكنه يوضح إلى أي مدى يقف الإنسان عاجزاً أمام حقيقة الموت المعلق على رؤوس العباد. كم هو بانس وتعيس هذا

الإنسان الذي لا يستطيع أن يواجه حقيقة الموت إلا بالصمت».

تقتلني واضحة بالشعر الذي تسأل عنه وهي تعرفه. واضحة ذات الاسم الواضح، فمن تكون و. س. س. أنتي ترأس كل هذه المجلات من كل هذه البلاد؟ أمس الجمعة قال الشيخ علي طنطاوي:

«وصلتنا رسالة مكتوبة بخط جميل على ورق جميل أيضاً من المعذبة و. س. س. «والمعذبة» هذه بتأثير المجلات المصرية، ما علينا، المصريون بلهجتهم الحلوة يدخلون كل البيوت. تسأل المعذبة و. س. س. هل يبيع الإسلام زواج رجل في السبعين من فتاة في الثامنة عشرة؟ وأنا أقول للمعذبة أن هذا أشد أنواع التعذيب، ولكن الإسلام يسمح لحكمة، فالحل لم يخلق الإنسان الا ووضع فيه العقل وميزه عن البهائم، وكل صاحب عقل لا يفعل ذلك، لكن المال أقسد كثيراً من الرقوس الآن، وعلى أهل الفتاة أن يرفضوا مثل هذه الزيجات ولا جناح عليهم. البعض قد يحتج عليّ ببعض الصحابة والتابعين، لكن كان هذا عصراً وكانت تلك أخلاق وكان في الرجال مروءة وفحولة. استغفر الله العظيم...»

كم واضحة بنت سليمان بن سبيل ترسل إلى المجلات رسائلها الآن، وكلها رموز شفرية لي أنا العاجز الذي لا يستطيع أن أفعل شيئاً ولا رسالة من عابدة تسليني ولا خطاب من أخي يطمئنني إلى أمي ويشرح لي مسألة مرضها.

ضحكت حتى كدت أقع من فوق المقعد وأنا اقرأ رسالة وجيه التي أحضرها لي عابد. قال:

هذه رسالة من الدكتور وجيه الذي كان يسكن معك.

قرأ اسم الراسل كعادته ولم اهتم. أستطيع أن اقرأ هذه الرسالة في العمل. لقد تزوج وجيه في المدينة بامرأة لبنانية فاحشة الجمال كما يقول، أهلها شديرو الثراء، لهم في المدينة تجارة عظيمة. هذه هي الثالثة يا اسماعيل وتبقى واحدة. لا اظن أنني سأفعلها، هذه المرأة بمئات النساء جمالاً زغنى.

ودخل نبيل إلى مكتبي مندهشاً من ضحكاتي التي وصلت إلى البوقيه وابتسم يقول:

- ألا تخشى أن يسمعك عم عبد الله؟

- أخيراً ابتسمت يا نبيل. عم عبد الله غير موجود. اجلس معي قليلاً.

جلس وزاغت ابتسامته وقال:

- لقد صليت ركعتين منذ يومين، وطلبت أن يسقط مكوك الفضاء بعيداً عن رأسي. واستجاب الله لدعائي، وسقط المكوك في المحيط قرب استراليا.

- يبقى تخلق ذنك!

- لن اخلقها إلا بعد سفري الى مصر.

- ستسافر حقاً.

- آخر الشهر القادم. مايو أنا لا أصدق أن خطيبتني تزوجت.

لا بد أنها مريضة أو أفسدت أمني كل شيء. المشكلة أن هذا ليس موعد إجازتي السنوية، سأرسل لأخي يرسل لي برفقة يقول فيها أن أمني ماتت. ما رأيك؟

- لا داعي لذلك. أستطيع أن اقنع عم عبد الله أن يوافق على إجازتك. سأشرح له ظروفك وسيوافق.

- لقد رفض عابد أن يفعل ذلك. كذب.

دخل منصور المكتب باسم.

- حياك الله أخي اسماعيل.

- حياك الله يا منصور.. أين كنت؟

- في الكويت.. عدت أمس.

.....

- طبعاً تدهش. تقول إنني مجنون؟

- لا.

- إذن تعرف لماذا ذهبت؟

- لا.

- إلى ودا.. لقد فسخت خطبتها من سعيد تماماً.

- لقد حدث ذلك منذ وقت طويل.

- لا. كانت هناك شعرة. كانت ترتدي الخاتم

.....

- واتفقت معها على الزواج.

- لكنني اعرف انها سافرت لتلحق بقريب لها.

- لا. هذه قصة لفقناها لصاحبك. أنا الذي أحضرت لها فيزة

عمل بالكويت، وأنا الذي اخترعت لها حكاية قريبها انحاسب.

.....

- ما رأيك في هذا الحل؟ بوليسي. مثل الافلام المصرية.

وقام واتجه نحو الباب وقال:

- استعد يوم الجمعة القادم سأسوي كيسة كبيرة هنا. تعرف الكيسة؟

- اعرفها ولم اتذوقها.

- حتى الآن؟

- حتى الآن.

- سأسوي ذبائح كثيرة وسيحضر كل العمال. هنا في الباحة ستتذوقها.

ومضى مسرعاً والقرد ينظر الي من خلف ظهره.

تجاوزت في القتل الخمسين فثراً. وصرت اصطادها في الليل أيضاً، صوت أذان الفجر يملأ فضاء البلدة التي فرغها الحر من الهواء فصار الصوت طبعاً فأصحو واقطع الساعتين الباقيتين في مطاردة الفئران.. أمارس القتل في النهار وفي الليل وألقي بالموتى من فوق الباب وأسمع صوت شجار القطط التي اعرف انها في حجم النعور. لقد ذهبت الى المستشفى لأقابل وردة وقابلتها. لم تضحك ولم تبسّم. غاض الدم من وجهها وغضاه الأسف.

- جئت تسأل عن عايذة؟

- أجل. أريد عنوانها في هابها.

- عايذة انتقلت إلى المنطقة الشرقية. إلى الدمام.

وسكتنا واقسمت في نفسي ان أقتل أول من يكلمني في الطريق. ولم أقتل أحداً ولا كلمني أحد. رحت أقتل الفئران، لكنني لا اصطاد

إلا الفئران الصغيرة - العيس - البلهاء عديمة الخبرة. هي التي تتسلل إلى حقل القتل الذي أعدته لها. لم يعد اللوح الخشبي يوضع منفصلاً. تبيته بالحائط بمفصلات بحيث إذا ضغط عليه يقدمني عاد إلى الحائط ولا تكون هناك أية امكانية أن ينقلب اللوح فيهرب الفئران. فئران صغيرة وبيضاء أيضاً لها بطون حمراء لم ينبت بها شعر بعد ولها أصوات حراصير. أين الفئران التي تلدها وكيف تتركها تأتي إلي وكيف لا تدرك أن أطفالها يقتلون كل يوم؟ الليلة داهمتني الفئران الكبار. أنت اسماعيل خضر موسى.. أنا.. لماذا تقتل أبناءنا وأخوتنا الصغار كل يوم دون وجه حق. أنا لا أقتل جزافاً، أنا هنا غريب في بلد غريب أحب أن يستأنس ضيوفي في الدخول عني وأخوتكم وابتاؤكم يقلقون نومي في الليل والنهار. أنت كاذب لأنك تكره النوم. لكن النوم لا يكرهني ويغلبني في كل نزال فتغلقتني فئرانكم، هل تريدونني أكلها؟ لقد سددت أسفل الباب وكل الفتحات التي يمكن أن تدخل منها لكنها تدخل. أنت لا تقتل الفئران فقط ولكن تستخدم وسيلة بشعة. وأنا أدفع للبشاعة ثمناً من التقزز. أنت خائن للطير والحيوان معاً، فنحن الفئران لسنا من عالمكم لكن بيننا وبين الطير والحيوان مودة وصلة. الحيوانات تكرهكم والطيور. القط مثلاً، يأكلكم والحدأة أيضاً. ليس القط ولا الحدأة، انه الجوع الذي يفسد الأخلاق، انظر إلى الجماعة كيف لا تأكلنا، الحمامة وديعة، وأصدقائنا من هذا الصنف كثير منذ انقذ أبونا الحمامة الملوقة من شبكة الصياد. هذه خرافة كتب. هذه حقيقة وأنت لا تدري ولا بد أنك لاتعرف أيضاً أن الأسود تحبنا. الأسود المفترسة ذات الهيبة والكبرياء. هذه افكاركم فلا هيبة ولا كبرياء للذي يعيش على ما تجمعه له زوجته من طعام، هذه

فجأة فكرت أن مرض أمي ليس عادياً. لا أظن أن هناك حاجة إلى ذكر المرض العادي في خطاب. وحينما وصلتني رسالة من أخي يطلب فيها ألف جنيه في أسرع وقت، قطع الشك اليقين. لكنه لم يذكر نوع المرض ولا الخطوات التي اتخذوها للعلاج. كنت بالقاهرة منذ شهرين، وكانت أمي في أحسن حال. صحيح أنها تجاوزت الخمسين، لكن هذه ليست السن التي تغتال فيها الأمراض صاحبها. صغيرة أمي على أمراض العجز والشيخوخة. كانت صغيرة دائماً على أبي. هل كان ذلك سبب الشجار الكثير بينهما في الأعياد؟

كتبت إلى أخي ليعلمني بالحاصل، وأرسلت إليه من الجنيهات الفين. وانتهت إلى حديث البلدة الذي وصل إلى مكاتب الشركة يضحك الباكستانيون منه، ويضحك عابد، ويضرب نبيل كفيه في بعضهما دهشة.

- هل يمكن أن يحدث ذلك؟

- ليس غريباً على كل حال.

- يعني لو ضربتني أو ضربتك على رأسك يفقد أحدهما الوعي

وأحدة. والثانية أن أبانا الفارخلص الأسد يوماً من شبكة الصياد أيضاً. إننا معشر الفئران قد نكون نأفهمين لكننا مثل كل شيء صغير في هذا الكون لنا فائدة، وأنت جاهل لا تعرف أن الله خلق الكون متوازناً لا يحق لأحد أن يفسد توازنه. هذا كلام فارغ لأن الجراثيم مخلوقات أيضاً لكننا نطاردوها ونقتلها قبل أن تقتلنا، وأنتم جبناء تحملون القمل فتتشررون الطاعون الذي قتل «أبو عبيدة بن الجراح» في الشام وأهلك جيوش نابليون في فلسطين ودمر نصف المصريين أيام المماليك والآن تتلفون الزرع في مصر وتقتلون الأطفال في الريف وتنتشرون الأمراض في مدن القنال التي ترعرتكم في خرائبها قبل انتصارنا وكانكم بالفعل لا تريدون أن يكتمل انتصارنا أنتم عدو لي وأنا عدو لكم إلى يوم الدين. إذن لا فائدة في الحوار معك.

وقفزت فوق الفئران السوداء فغطت جسمي كله، ففقت فرعاً إلى المطبخ، ووجدت واحداً منها بين اللوح الخشبي والحائط فدهسته بوحشية فائقة.

ويستطيع الآخر أن يفعل به ما يشاء؟

- قديماً قبل اكتشاف البنج، كان المريض يدخل عيادة الطبيب فيخرج له واحد من خلف الباب يضربه بمطرقة خشبية على رأسه وي بعدها يُجري الطبيب العملية.

تحسس نبيل رأسه وضحك.

- لكنها ضربته بالحلة البرستول؟

- الحلة أثقل من المطرقة.

- وخصته!

- هذا ما يقال.

- هل يمكن أن تفعل امرأة ذلك؟

- الغيرة قاتلة.

وضحك نبيل.

- لقد ذهب المسكين إلى المستشفى فوجدوا إحدى خصيتيه معلقة في بنطلونه.

وسكتنا.. وقام وهو يقول فجأة:

- لقد سافر منصور أمس إلى الكويت، وهرب من عزومة الكبسة.

بخيل. أنا اعرفه جيداً.

لم يعد إنسان في العمل أحد أتحدث معه غير نبيل.. «وفاج» الذي صار مسؤولاً عن التغذية في الكامب يأتي، ويتصاع عابداً لكل طلباته بسلاسة. وأتذكر دائماً أرشد وهو يسأل:

«لماذا يفعل عابدي بي ذلك؟» تمنيت لو سأطال عابداً وفاج، لو

خالقه، وعصى له مطلباً. يبدو أنه يعرف ما أريد. ودائماً أتذكر حيرة أرشد وضيقه وقلة حيلته. وتمنيت أكثر من مرة أن أرى أرشد داخل فجأة. فيزة أرشد تنتهي بعد ثلاثة أشهر. تبقى له الآن أيام قليلة. هل يفعلها أرشد ويعود؟ لا أظن. أشاع «سُرور» خبر القبض عليه لأسباب سياسية، ولا أظن أن له فرصة في العودة أبداً. يستطيع أرشد أن يسافر بعد سجنه إلى أي بلد إلا المملكة. ويستطيع أرشد أن يحلم في سجنه بأي بلد إلا المملكة. لا بد أنه نسي الوقت الذي أمضاه هنا. ولا بد أن سعيد يفعل الآن نفس الشيء. ومنذر أيضاً والمرأة اللبنانية الصغيرة والدكتور أحمد، ورافقت وفيليب المسكينان اللذان لا حاجة لهما الآن إلى التذكر أو النسيان.

قطيعة غريبة تحدث بين العائدين إلى بلادهم وبين هذا البلد. منذ البداية تبدأ القطيعة فلا أحد يأتي هنا إلا ليعود، هل يعرف اليمني العجوز ذلك؟ أتراه يبتسم لي لهذا السبب؟ يسخر من الأمر كله ويرى الدنيا حوله مهزلة؟ ما باله لا يظهر الآن؟ سألت عابداً عنه أمس، فابتسم وسألني:

- هل يهكم أمر؟

- فقط أسأل.

وهز كتفه بلا مبالاة.

- اليس هناك طريقة للاتصال بها في الدمام. اليس لديكم رقم التليفون أو العنوان؟

سألت وزيدة التي ذهبتُ إليها في المستشفى بعد خروجي من العمل.

- من الصعب عليك أن تتصل بها في الدمام، نحن لا نعرف بالضبط في أي مستشفى تعمل هناك.

.....

- ألم تكن تكتب لها؟

- كنت أكتب..

- ألم ترد عليك؟

- ولم أرد عليها. قمت وصافحتها ومشيت.

كرهت العودة إلى البيت.. كرهت صيد الفئران. إنني اغسل اللوح الخشبي كل يوم بالصابون والسافلون. لا رائحة ننته في المطبخ حقاً لكنني أشمها في الفضاء. فكرت جدياً أن أبحث عن شقة صغيرة في عمارة. ستكون فرصة الفئران أقل. البيوت العربية الطراز لا تزيد عن أحجار في طريقها تتسلقها أو تمر من تحتها. ودخلت الشارع العام بسيارتي. أحسست أنني بحاجة أن أرى عربة الشرطة تطوف بأحد. أي أحد.

ورأيت نفسي أركب حملاً ووجهي إلى الخلف وهو يمشي إلى الأمام. ويضحك الناس عليّ رجالاً ونساءً، ويقذفني الأطفال بالأحجار. ولولا أنني سمعت تغير السيارات لاصطدمت بالسيارات أمامي.

سمعت أن أوامر صدرت بالغاء التشهير بعباد الله في الأسواق..

من الذي فعل ذلك رغم حاجتي إليه الآن. تركت سيارتي ومشيت. ذاهب أنا إلى بيت سيد الغريب. لا بد أن أتحدث مع أحد.

- أمش.

هتف الشرطي لي وجهي.

- أمش.

أشار إليّ سيد الغريب بيده من الشرفة التي يجلس فيها.

- ليش واقف؟

- هل يضايقك وقوفي؟

- يضايقني. قلت لك أن تمشي.

- أين أذهب؟

سألت الشرطي فجأة مندهشاً ومرتبكاً.

- لو لم تمش وضعتك معه في البيت لا تخرج منه.

مشيت. عدت إلى الشارع العام، واشتريت الصحف والمجلات. قابلت صالِح في الطريق فتجاهلته وتجاهلني. ما كاد يصبح خلفي حتى وقف وناداني. وقفت، وعاد إليّ:

- أريد أن أعطيك هدية يا استاذ.

لم أرد.

- أعذرنني إذ لم آت لأعذر اليك بعد تنازلك عن الشكوى

بالشرطة.

ولم أرد.

- تبغي بطانية جلد نمر؟ أستطيع أن أوصلها إلى بيتك الجديد.

مرتاح يا استاذ في البيت الجديد؟

- الحمد لله.

- حياك الله يا استاذ.

وتركني، وعادت الشمس فوقى شديدة الوهج تكاد تحرق البشرة، والشارع العام صار مزدحماً بالضائع، ومكتبة خالد أخيراً واضحة مغلقة. خالد شبيه واضحاً لولا الشارب الصغير والغتره البيضاء والعقال ولا أثر في الشارع للحريق الآن.

ركبت سيارتي ورأيت الأشياء تجري الى الخلف. كل شيء يتعد عني إذن وليس لي الآن الا انتظار خطاب واحد من أخي يعلن فيه شفاه أسي. ورايتها تجلس جوارى بالسيارة تربت على كتفي.

«لا تترك يا اسماعيل».

ومسحت دموعي بيدها الباردة وحملتني وخرجت بي من زجاج السيارة ووضعتني فوق السرير الصغير الأبيض ومغطتني بالغطاء الأبيض وجلست جوار رأسي تضع فوق جبهتي مناديل مبللة بالماء البارد وسمعت أذان الفجر. الحمد لله راحت الحرارة يا أبو اسماعيل. الحمد لله. وأنحني أبي يقبلني. قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. الله الذي لا اله الا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم.

اللهم خذ مني لصحتي وعافيتي وارزقني برزقه واعطني العمر لازى ذريته. اللهم إني شكوت لك همي بالليل وتعبي بالنهار فاستمع لي وقرئني منك وخذ بيدي في ابني يا عالماً بحالي يا غفور يا

تواب يا رحيم. اللهم إني نذرت أن اذبح على باب مقام سيدي إبراهيم الدسوقي كبشاً واعد اذبح على باب بيتي كبشاً فاشف لي ولدي اسماعيل. اللهم اشف مرضانا وارجم موتانا ولا تجعلنا مع القوم الظالمين.

والبنين يا أم اسماعيل؟ بخير. شفيتهم؟ نايمين وكويسين. شقري عليهم يا أم اسماعيل. شقرت قلبك. خلاص ما تزغليش حقلك عني.

ويعلو نغير السيارات من كل جهة.

- ليش تقف وتعطل الطريق؟

- آسف.

- مر بسرعة.

ومررت بسرعة وكل ما اخذته من البنين الاكبر مني صار عني أن ادفعه لسناء وبهاء الأصغر مني. صدُر الفرخة كان لي واللحم الأحمر والبيضة ذات الصفارين وزجاجة الكوكاكولا كاملة وقطائر السمن وافخاذ الأرناب وكبد الطيور وعناقيد البيض الذي لم يكتمل في بطونها والماء الساخن في الشتاء والصابون أبو ريجة والملابس الناعمة ورحلات المدارس وزيارة الحقائق. لذا كنت أحب دائماً من أبي أن يذهب بي الى محطة السكة الحديد أتفرج على القطارات الداخلة والخارجة وحركة الناس وفرق الموسيقى في الميدان امام المحطة؟ ورأيت صالح سنيور الثقيفي يقف امام الباب ومعه صاحب البيت.

- السلام عليكم.

- يا هلا.

رد علي صالح بصوت بارز وأبتسامة واسعة والتي شديداً في عينيه
بينما غمغم المالك الحجوز بصوت لم اسمعه.

- خيراً.

- خيراً إن شاء الله. افتح لنا تدخل يا استاذ.

رد صالح بثقة غريبة. كيف وصل الى هنا قبلي وقد رأيته منذ
قليل في الشوارع العام، وكلمني دون أن يشير لذلك.

فتحت الباب، واتجهنا الى غرفتي. ولم اشأ أن اطلب منهما
الجلوس، لكن صالح جلس على حافة السرير، وجذب صاحب البيت
من ذراعه يجلسه جواره، وظللت أنا واقفاً.

- لا تسؤلنا شيئاً ولا قهوة يا استاذ. سنخرج بسرعة.

.....

- طبعاً أنت استأجرت البيت من الشبهة هذا. الآن انا اريد
البيت.

- أي بيت؟

- هذا.

- لكنني اسكنه.

اعترف يا استاذ. أنا اشتريته من الشبهة، واشترت الذي
يجاوره. سأزوج في هذا واهدم الثاني وأجعله حديقة. سأزور
أشجاراً مصرية. سأعطيك مهلة شهر يا استاذ تبحث عن سكن
آخر. تكفي هذه المدة؟
- تكفي.

ولم اشأ النظر إلى أحدهما بعد ذلك. لا معنى أن أسأل المالك

الأول عن صحة ما سمعت. لم يصحبه صالح ليتأمر أو يكذب. لقد
اشترى صالح البيت بحق وعلى أن اتركه. سواء تزوج فيه وهدم
الذي يجاوره، أو تزوج في الذي يجاوره وهدمه، أو هدم الاثنين معاً
ولم يتزوج.

أكلت بشبهة لا أذكر اني أكلت بعثها منذ أن أتيت. شويت
كمية هائلة من لحم الضأن والكبد، ورحلت التهمة وأنا واقف في
المطبخ ودون خبز. استطيع اليوم أن أكل خروفاً كاملاً.. جعلاً لو
أردت. وربما خرجت إلى الطريق هائجاً أذبح كل من يقابلني
وأشويه وأكله. احتاج الآن الى نوم كبير.

تمددت فوق السرير، وامتدت يدي تمسك بعجلة مما ألقيته من
قبل على الأرض قريباً من رأسي.

«جريمة تهتز لها المملكة. ثاني حادث من نوعه خلال شهر». فتاة
في السابعة عشرة تضرب زوجها على رأسه بأنية الطبخ البريستول
الثقيلة ثم تخصيه. الزوج المسكين مات من الصدمة حين أفاق
وعرف ما حدث له. الزوج هو ع. ع. ص البالغ من العمر سبعين
سنة، والزوجة القاتلة الصغيرة هي و. س. س من الرياض، وهي
تلميذة في المدرسة المتوسطة.
وقلّبت المجلة مجنوناً الى بريد القراء.

وصلتنا أكثر من رسالة عاجلة بالتليفون تسأل هل و. س. س
صاحبة الرسائل المتكررة إلينا هي القاتلة. والإجابة بالنفي. ونحن
نطمئن قراءنا الاعزاء الى أن صديقتنا و. س. س هاتفتنا بالتليفون

لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر، ولا الليل سابق النهار، وكل في فلك يسبحون...

عائد الى حيث جئت لا محالة وكل شيء اقتربت منه ابتعد. كيف نسيت أن أكون امرأة لامعة تنزلق فوقها حبات المطر؟

الليل والنهار ورجل واحد بينهما هو أنا. الليل والنهار سماهما العرب المثلين لأنهما يملآن الأفاق نوراً وظلمة. كيف ترى حقاً في النور الساطع وكيف ترى في الظلمة القاتمة؟

الليل والنهار سماهما العرب بالجديدين لتجددهما بالضياء والإظلام على الدوام. لا شأن لهما بأحد. لم يقف النهار معي مرة يحدثني ولا الليل فعل. سُمي النهار نهراً لظهور ضوهه الفجر بجري كالنهر من المشرق الى المغرب معتبرضاً حتى يأتي على الظلام. معركة يخوضها كل منهما مع الآخر ولا شأن لهما بأحد يقف تحتهما أو بينهما. يطل علي النهار الآن فأسرع الى العمل غير مصدق اني نمت وصحوت وان الليل انقضى، وأعود أردد في نفسي ومن شر غاسق إذا وقب، خوفاً من شدة ظلام الليل، ويدخله كاسحاً بلا هلال ولا بدر

بعد الحادث تسأل هل صحيح ستقوم حكومة البحرين في طهران بإغلاق المدارس والجامعات وتعود إلى التدريس في المساجد. والحقيقة انه لا إجابة واضحة لدينا حتى الآن. ونحن مثل صديقتنا نستمع لكثير من الاشاعات عن حكومة طهران الجديدة. لكن المؤكد انها مشغولة بتخليص الحكم لنفسها من المعارضة واعوان الشامه المندسين في البلاد. والمؤكد أيضاً أن الحجاب عاد يظهر فوق وجود النساء في سائر بلدان إيران. وهذه خلة محمودة للحكومة الجديدة نرجو أن تتبعها خطوات أخرى في طريق الدين الرشيد. وأنا الذي رأيت دكانة خالد مخلقة منذ ساعات بالسوق قفزت من فوق السرين، ودخلت في ثيابي، واندفعت أركب سيارتي أسرع بها على الطريق القادم من الشمال. واضحة. واضحة ولا أحد غيرها. ورحت أنهب الطريق غير مبال بالفراغ الواسع الزهيب حولي. ولا بالظلام الزاحف ضارباً قلب الفضاء. وهناك، بعيداً بعيداً وأنا اقتررب من بحالة عماره، بوابة الحدود مع الأردن. أدركت أنه لا بحر قابلي في طريقني لألقي بنفسي فيه.

ولا نجوم، واختلطت علي أيام الشهر، ورأيت أبي يخرج قبل المغرب يبحث عني في الشوارع لأدخل البيت قبل الظلام، ويقول عن الرسول جنّبوا صبيانكم فصحة العشاء.

سمّي العرب الليل بالكافر لأنه يستر الناس، فالكفر هو الستر، والكافر يجحد نعمة الله ويسترها، والكفور هي القرى النائية عن المدن، لأن ساكنها يغيب عن جمهور الناس ويستتر عنهم، والرسول قال: «لا تسكنوا الكفور فساكني الكفور كساكني القبور»، وتبوك بعيدة عن حواضر المدن، في مصر آلاف الكفور.

أرى الليل الآن كظلمات في بحر لحي يفشاه موج من فوقه موج من فوقه سحب، ظلمات بعضها فوق بعض، وأخرج يدي فلا أكاد أراها، وكل ليلة أنتظر النهار، وانتظر معه شيئاً يحملني إلى مكان آخر، شيئاً لا أدرك كنهه، وإن كنت أعرف أنه ليس رسالة من أحد.

عاد منصور من الكويت ولم أقبله. أخبرني نبيل أن يوم الجمعة ستتم وليمة الكبسة التي وعدنا بها منصور من قبل ولم يتبها. ستكون وليمة ضخمة، قال نبيل. وسيرانا منصور لآخر مرة إذ سيسافر مرة ثالثة إلى الكويت ويبقى هناك، سيتزوج المصرية التي دوخته. مسكين منصور ولد ليهوى المصريات، وضحك نبيل وسألني لماذا أنا متدهش.

كنت أفكر كيف يتكرر سفر منصور هكذا وفي وقت قصير. لا بد أن مسألة زواجه من ودا لم تكن منتهية كما حاول أن يقتعني آخر

مرة. لكن لماذا لا يأتي إلى العمل بالنهار لأراه؟ لماذا يرسل إلي نيا وليمة مع نبيل؟

فكرت أن اتخلف عن الحضور، ووجدت أنه لا معنى لذلك. الآن انتهت كل أصرة لي بشي أو أحد. ضاعت عابدة في الرمال البعيدة، وواضحة هي القاتلة، وسينفذ فيها القصاص بالسيف لا محالة. ولا يعني أن و. س. س. لا تزال ترسل أسئلتها للصحف من كل المدن، فمنذ أيام لا أشتري الصحف، والبيت الذي سيأخذه صالح ليهدمه أو يعمره بامرأة وأطفال ليس فيه ذكريات، وفي الذاكرة البعيدة الآن ينام كل من عرفتهم رغم قرب الزمان. ها هو «إله تبوك» السحري يعود إلى جعبته يطلق منها على روجي سهام النسيان، وها هو «العج» يثور كل وقت صارخاً أن البلاد غير البلاد، وبهاء أخي أرسل يقول إن أمي صارت بخير. لم يطلب نقوداً أخرى ولم يحدثني عن تفاصيل المرض. لقد شفيت والسلام. سأحضر إذن وليمة الجمعة.

دائماً كنت اعتذر عن عدم تلبية دعوات وجيه وسعيد لي بمصاحبتهما لمثل هذه الولائم. الآن اشتاق إلى حضور واحدة منها. لم أشتق إليها يوماً والآن استعد لاستقبالها فرحان. هدأت روجي بعد يقيني بانقطاع كل الحيال. ربما، وربما لأن صاحبها منصور.

أحس، ويا لغرابة هذا الاحساس المفاجيء، أنني أفق على باب انطاشرة رهواء المكيف في ظهري، ووجهي وصدري يواجهان

الشمس، وأخطو أول خطوة دون أن يدفعني إليها أحد. هل سأعوي
مرأة لامعة؟ عليّ أن أعرف جيداً كل ما أراه. أدقق في تفاصيله
كمشتري حصيف، وأشرع في كتابة المذكرات التي تجعل ما يحدث لي
لا يحدث معي. المذكرات تعني الوعي- الوعي يعني هزيمة
الوجدان، ولا يأتيني الحزن بعد ذلك. لو أذكر الكاتب الخبيث
الذي قال هذا الكلام. آه. كل الكتاب خبثاء، وكل القراء أغبياء
يصدقونهم فيعيشون حياة غير حياتهم. سرقة مع سبق الإصرار
للوقت والعمر الجميل ولا يشكو أحد. لقد قيل إنه حين نشر غوته
آلام فوتر انتحرمئات الشباب في ألمانيا الرومانتيكية التي هناك
نابليون عرضها بقوة. قتل غوته شباب أمته بكتاب صغير بكى في
كتابته مرة أو مرتين، واحتاج نابليون إلى جيوش لقتلهم. ولم تنفذ
أشعار لوركا جنود الجمهورية الذين حملوها في جيوب ستراتهم
جوار قلوبهم. وفي زيارتي الأخيرة للقاهرة مات «صلاح منصور»
صاحب العينين النافذتين. ترك فراشه ووقف جواره يلقي مونولوج
هاملت الشهير، وما أن قال أكون أو لا أكون حتى عاد لينام فوق
الفراش. نوم الأبدية.. ترى كم قتل شكسبير بأمره الوسيم طوال
القرون الخمسة الماضية. ولماذا أنهب بعيداً هكذا أنا اسماعيل
خضر موسى الذي يظن دائماً للحقائق بعد فوات الأوان؟ ضيعني
أحمد عاكف ونجيب محفوظ، صدقتهما فقتلت «أمال».. أجل. قتل
عمد هو. عرفت ما لم يعرفه أحمد عاكف مبكراً، أنا لن أفوز بشيء،
فلم أشأ إرهابي قلبي وتحطيم قلوب العباد. نجحت في الأولى
وأخفقت في الثانية فقتلت من حيث أردت الحياة. حتى الكتابة قرأت
من أجلها مئات الكتب إلا أدب الكاتب والكامل والبيان والتبيين، ثم
تركزت الكتابة أيضاً تتسلل من قلبي إلى قدمي إلى الطريق يدوسها

النسيان ويعطوها الصدا. هل كنت أعرف أنني سأصل إلى هذه
النهاية، أم جئت هنا، على هذا البعد، لأتقصي الأسباب؟ يا الله،
هنا، على بعد مئات الأميال من كل ما هن القلب أو تحجر أمامه، هنا،
والآن، اكتشف أنني استطعت العودة وأكتب. لكنني لا أريد أن أدمي
قلبي، أنا كاتبتي وأنا قارئتي فأنا قاتلي لا محالة إذ ستصل الخدعة
إلى الغاية رغم أنني الكاتب المخادع الخبيث. إذن فلا أشرع في كتابة
المذكرات حيث يطغى العقل عن الوجدان فلا يندفع الدم بين القلب
وبقية الجسد.



ولم أكتب المذكرات، ولا يبدو أنني سأكتبها يوماً، وعاد الليل
اثقل.

في الحزن يطول الليل فلماذا يطول الآن وقد تقطعت بيني وبين
كل شيء هنا كل أسرة؟ ليلي ثقيل من السخف نشأ. ليلي مقبوت في
تكراره لكنني وصلت إلى صباح الجمعة، وانتظرت في البيت حتى
انتهت الصلاة، وتغديت، واستلقيت فوق السرير أتابع برامج
التلفزيون ليتنبأني قلق مفاجيء، فأنا أريد بحق حضور الوليمة،
وكان التلفزيون كريماً معي. بثّ فيلماً مثيراً عن غرق السفينة
بورايون. أنا لا أعرف شيئاً عن هذه السفينة، وما إذا كانت قصة
غرقها حقيقية أم لا، لكن من منا لا ينجذب إلى هذا النوع من
الافلام الذي يصور الناس في حازق كبير، ويجلي أماننا لإرادة
الإنسانية في أقوى صورها، ويعرض صور الصراع بين النفوس في
لحظات الضعف والقوة. كل هذه الافلام يعرف المشاهد نهايتها
التي لا تخذله فتنتهي دائماً بالنجاة. أعرف ذلك أنا أيضاً، ولكنني

امام السيما اتحول الى طفل يريء مأخوذ ومفتون. وكان النوم ايضاً كريماً معي، ما كاد الغيلام ينتهي حتى تقل رأسي، وانفصل عني جسمي. ورأيت مرة أخرى «جين هاكلماز» القسيس الورع الذي يعظ راكبي السفينة ان لا ينسوا رجعة الله ولم يضعف رغم سخرتهم به حتى إذا بدا انه لا فرصة للنجاة بعد أن بذلوا، وبذل معهم، جهداً خارقاً، يهتف في غضب وخيبة أمل نحن لا نريد مساعدتك، فقط نريدك ان تكف عنا، أن تتركنا نواجه ما يحدث دون تدخل منك لأجلنا أو علينا، فجعلني أضحك من يأسه وحيرته. ولما صحوت وجدت التليفزيون يبعث برنامج «مجلة الاسبوع» والدنيا ظلام. فأسرعت كالملكوع بالخروج، وركبت سيارتي منطلقاً إلى الشركة خائفاً خوف الموت أن تكون الوليمة قد فاتتني.

اقتربت فوجدت عدداً كبيراً من السيارات تقف أمام باب الشركة من الخارج. سيارات كابريس ومرسيدس وكاديلاك وبيجو، وبينها تبرون سيارة عم عبد الله الكاديلاك البيضاء، وجوارها سيارة مرسيدس سوداء ذات ستائر داخلية خلف زجاجها، ويرتفع وسط سقفها، تماماً كسيارة عم عبد الله، إيرمال إرسال واستقبال.

تركت سيارتي نصف النقل القديمة بالخارج، ودخلت على مهل افكر من يا ترى دعاه منصور إلى الوليمة الليلة.

كانت الاضواء تكاد تُشعل المكان وسط فضاء واسع من الظلام، وكانت لمبات اضافية قد وُضعت حول سور الشركة، فهذا الامر كانه عرس يقام وسط الصحراء.

دخلتُ إلى الباحة، فشد عيني مشهد الجالسين في صفيح متقابلين من اهل البلدة، يتصدرهم عم عبد الله الذي رفع ي وجهه ثم تخافلني كعادته، وجواره شخص أسود الوجه، يرتدي فوق الجلباب عباءة سوداء مطرزة بقصب الذهب، وفوق راسه غفرة خضراء متقاطعة خطوطها الحمراء. رفع ي هذا ايضاً وجهه وانشغل عني، وأنا ترددت في الاقتراب منهم. كانا يتكلمان ويضحكان، ويظهر نبيل قادمًا من ناحية البوابة يحمل ابريقاً وكأساً ويتوجه في صمت ناحيتهم.

لمحت عابداً يتحدث في التليفون في غرفته. فتقدمت اليه اشعر بالارتباك في خطواتي وعز وجهي. ما إن دخلت حتى ابتسم لي وهو يضع السماعة وقال:

- مفاجأة! اليس كذلك؟

- من كل هؤلاء؟

- هؤلاء شيوخ البلدة، وكبار موظفي الإمارة، يتوسطهم عم عبد الله والأمير.

- هل هذا هو أمير تبوك؟

- اتم يسبق لك أن رأيته؟

- أجل.

- انه شخص مهذب جداً. تعال سلم عليه.

وقبل أن اتكلم أخذني من يدي، ولم أجد الفرصة لاقاوم من خوف غريب استبد بي، فتركت له نفسي، ثم سحبت يدي من يده بعد خروجه من باب المكتب. لا يصح أن يبدو أمامهم أنه هو الذي يدفعني لصافحتهم.

لم يقدمني عابد الى احد بالطبع. اقتربنا من الأمير فتركني،
واشتبك بالحوار الضاحك مع أحد الشيوخ، واندفعت أنا تخلصاً
من الموقف كله أصافح عم عبد الله أولاً: «هلاء قال في اقتضاب.
وصافحني الأمير. مد الي يده وهو جالس، وقال عم عبد الله:

- هذا اسماعيل. يعرف الانكليزية جيداً. يمكن أن تستفيد منه
في الامارة.
- حقاً؟

تسأل الأمير دون أن يبدو أنه تكلم أو حرك شفثيه، وما كدت
أرد بالإيجاب، حتى هز رأسه مرتين مغمضاً عينيه. وبدا أنه
انصرف عني بذهنه، ووجدت نفسي أسرع بالاتجاه إلى البوفيه دون
أن استمر في مصافحة بقية الجالسين.

جلست على المقعد الوحيد ارتجف. شغلني الخوف الذي لا
أعرف مصدره. كيف حقاً أرسل أخي يقول إن أمي شغيت من
المرض دون أن يذكر لي مرضها وطبيعته التي استدعت أن أرسل
إليهم كل ما أرسلت من نقود. وفكرت كيف أن البساط الأحمر الممتد
بين الصفيين من الشيوخ، يمتد أيضاً إلى ما بعدهما من الجهة
المقابلة للأمير وأدركت أن العمال الباكستانيين قادمون أيضاً
للحفل وربما دعا منصور الأميركان. أين إذن سيكون مكاني؟ ليس
أمامي إلا انتظار بقية المدعوين لأجلس بينهم. لا أستطيع الجلوس
بين الشيوخ وكبار البلدة. لا شيء لدي أقوله لأي منهم، ولا سابق
معرفة لي بأحدهم. ولم أت للصمت والأكل. لا بد أن يحدثني أحد،
وعابد سيجدها فرصة ليتحدث مع كل الشيوخ أمامي، ويتبادل
معهم الضحك وكلاماً لا أفهمه. لن يتحدث عابد لي بكلمة منذ الآن.

ونبيل مشغول عني بتقديم الشاي والقهوة العربية حتى يأتي
منصور وطعامه.

ودخل نبيل البوفيه وقد احمر وجهه بشكل مثير.
- ربك يستر.
قال هامساً. وسألته:
- أين منصور؟

- سيأتي بعد قليل وبعه عربة محملة بالطعام. سيظهره في
البلدة. في بيته. هكذا قال. لماذا لا تخرج وتجلس معهم؟ فرصة أن
تعرف عليهم؟

ابتسمت. تركني وحمل إبيريقاً آخر من الشاي وخرج. هل
استطيع أن أتعرف الليلة على كل هذا العدد من الشيوخ والكبراء
ذوي الفتر المدرجة، والعباءات الفضفاضة، والوجوه النضرة ذات
اللحي الصغيرة اللامعة؟ وبقيت جالساً في مكاني، إلا أنني حركت
المقعد بحيث أراهم من خلف الباب المفتوح ولا يرونني، ورأيت
عابداً لا يكف عن المرور حولهم. يقف يتحدث مع واحد لحظة،
ويضحك مع الثاني، وينحني يقبل رأس الثالث، وأحياناً كتفه،
وترتفع أصواتهم بكلام لا أفهمه. وكثيراً ما يضحك بعضهم، وأرى
الأمير من الخلف لا يهتز ولا يبدو أنه يتحدث.

كثيراً ما تحدث وجيه وسعيد أمامي عن «الكيسة». قالوا إن الأكل
فيها يكون بالأيدي. باليد اليمنى فقط. لا يصح استخدام اليدين.
اليد اليمنى تنهش من لحم الخروف الصغير المشوي، الموضوع
كله فوق صينية الأرز الكبيرة التي قد يصل قطرها إلى المتر. والأرز
كوم عال، أرز غارق في السمن، مخلوط باللوز والزبيب والصنوبر

والفستق، وعلى الواحد أن يأخذ بيده الأرض الساخن، ويضعه في كفه قبل أن يقذف به إلى فمه، وكلما نَزَّ من يده السمن، كان دليلاً على كرم صاحب الوليمة، وحذار إذا وجدت ملائق أن تستخدمها. الملائق لا تظهر إلا في حالة تقديم «السلطة» مع الأكل، يكون عليك أن تحمل السلطة بالملقة، وتلقي بها فوق الأرض، ثم تترك الملقة، ويبدك تعود تأخذ الأرض والسلطة معاً وتكورها لتاكلها. ومن مراسم الكيسة أن لا تبدأ تناولها إلا بعد أن يبدأ كبير الجلسة، وكبير الجلسة اليوم هو الأمير صاحب العينين الصغيرتين المدفونتين تحت جفنين عاليتين، عليّ أذن أن أراعي كل هذه الآداب.

وسمعت ضجة عالية خارج الباحة، ثم اندفع العمال الباكستانيون إلى الداخل يسرون ضاحكين، وفجأة توقفوا مصعوقين من رؤيتهم للشيوخ والكبراء. صار بعضهم يحذر القادمين مندفعين بعده، وبعضهم خرج بسرعة يحذر القادمين من الخارج، ويتوقفوا حائرين لا يعرفون ما يفعلون، فتقدم عابد إليهم وأشار إلى الناحية الخالية حول البساط الأحمر، فراحوا يجلسون في صمت، لكنني أرى على البعد وجوههم التي اشتعلت احمراراً. عاد نبيل إلى البوفيه أحمر الوجه أيضاً.

لقد تأخر منصور كثيراً.

لم أرد. كنت أتابع الصمت الذي ران على الجميع. الشيوخ أيضاً وعابد الذي خرج عند باب الباحة قلقاً. وكان الضوء في الباحة شديداً ونسمة من هواء منشف هبت علينا، وبدأ لي كل شيء طيباً ندياً، لكن اخذني القلق. قلت لنبيل:

هل تراه لا يأتي؟

لا اظن. لقد دعا الأمير كما ترى وشيوخاً كباراً. أبوه أيضاً يجلس هنا. ألا تعرف؟

هرزيت رأسي بالنفي فقال:

صاحب العبادة البنية.

دققت النظر حتى رأيته في الصف المواجه لي. شيخ هرم أغمض عينيه وأغلق فمه، ويكاد رأسه الذي يهتز يسقط على صدره من التعاس.

لكن لماذا تبقى هنا؟

فاجاني نبيل بالسؤال ثم قال:

يجب أن تأخذ مكانك الآن، سيفطن الناس إلى غيابك وهذا عيب كبير، ما دمت حضرت فعليك بالجلوس معهم.

لم يكن هناك مكان لي إلا الصدارة من الناحية الأخرى المقابلة للأمير وعم عبد الله. على جانبي وأمامي صفا العمال الباكستانيين يلتحمان بصفي الشيوخ.

من الممكن أن يجلس عابد جوارني، ومن الممكن أيضاً أن يتسع المكان لمنصور. لا بد أن يجلس منصور في الصدارة حين يأتي، فأكون أنا على يمينه وعابد على يساره، أما نبيل الذي لم يجلس حتى الآن، فلن يجلس. سيكون عليه اعداد الشاي والقهوة لتقديمها بسرعة بعد الأكل لكل هذا العدد. ربما يأكل نبيل مما يتبقى. يتبقى دائماً الكثير يأتي به للقطط فتصير نومراً وتحسدها الكلاب الطريدة الممنوعة من دخول الحواضر الليلية ستحسد

القطط الكلاب إذ سيأتي بها تبقى في الصحراء.

جاء عابد مسرعاً من ناحية الباب، وجلس جوارى وهو يقول:
«وصل الطعام».

كان يهتز ارتعاشاً لا أعرف لماذا. وكان يبتسم، وأنا راحت عياني
تتملان الأمير الذي بدا لي قصيراً سميناً لا يكاد يرتفع رأسه إلى
أحد.

- بالخارج الآن. سيارة نصف نقل تحمل صواني الطعام لكن
منصوراً لم يأت معها.

قال عابد لي والخوف يكاد يقفز من عيني. وشممت حقاً رائحة
السمن تتسلل إلينا في الغضاء. ثم دخل من الباب يمينان يحمل كل
منهما صينية مغطاة بقطعة شاش بيضاء. ووقفوا حائرين فتقدم
نبيل منهما، واخذهما ناحية الأمير. فوضعا الأولى أمامه والثانية
بعدها بقليل، وعادا مسرعين إلى السيارة بالخارج. وجذب نبيل
ثلاثة من الباكستانيين فقاموا على الفور، وراحوا مع اليمينين
يحملون الصواني المغطاة بالشاش الأبيض، وأمثلا الغضاء
برائحة الإدام، وخربت أطراف الألسن تعرب بين الشفاه، وتحركت
الضاحر صاعدة هابطة بابتلاع اللعاب، وراح السيوخ يتحدثون
عن عدم حضور منصور ويضحكون. وترتفع أصواتهم ثم
تنخفض، ويشيرون إلى أبيه الذي يفتح عينيه ويتكلم بصوت لا
يسمعه أحد. ثم يعود يغالب النعاس، وتلملم الأمير، لكنني أدركت
من الحوار الذي تبادلته معه عم عبد الله، ومن ضحكهما الهامس،
انهما لن ينتظرا حضور منصور.

رحت أعد الصواني فاكتملت عشرين، ووقف اليمينان حائرين
بعد أن عاد الباكستانيون الثلاثة إلى أماكنهم، لكن نبيلاً أشار
إليهما أن يبقيا عند البوفيه فامتلأا، وحط عن الدنيا صمت. ينتظر
الجميع الآن أن يبدأ الأمير، وأنا انتظر أن يقع فوق رأسي حجر من
السماء، واكاد انكمش وأتلاشي، وتمنيت بحق أن أرى منصوراً.

رفع الأمير قطعة الشاش، فامتدت الأيدي ترفع الشاش فوق
الصواني التي أمامها. وأمثلا الغضاء بالأصوات الغاضبة.
ضباب. ضباب. إيش سوي هذا المعتوه؟ ضباب يا أبو محمد.
ضباب يا أبو منصور. ضباب يا عبد الله..

لم تكن فوق الصواني خراف. حيوان غريب قصير مثل تمساح
صغير له ذيل كثير الفقرات.

- هذا ضب.

قال لي عابد هامساً. ولم يكن مهماً أن أعرف. كنت أتابع
الغضب على وجه الأمير وفي عيني، والدهشة على وجوه
الباكستانيين، الذين قام واحد منهم مفزوعاً بصرخ، وخرج جارباً
مغادراً الباحة كلها، وعاد الصمت يحط، وبدأ الارتباك على وجه
عبد الله، وما زال أبو منصور يغالب النعاس، ولم يقطن أحد لما
فطنت أنا إليه. لم يكن فوق كل صينية «ضب»، ولكن كان فوق
ثلاث أو أربع منها حيوان آخر له أربع أرجل كبيرة ويلا رأس، لكن
إليته الضخمة المرتكزة المعتلة توضحه أشد توضيح. ورفع عابد
قطعة الشاش التي فوق الصينية التي أمامنا، فوجدت نفس
الحيوان، وشعرت بمعنتي تكاد تقفز، وكأنما قفزت من بطني إلى

أدهشني ظهور اليمني العجوز من جديد. اليوم جاء مبكراً في حوالي التاسعة. ظهر جالساً في مكانه والسواك في فمه ولا يكف عن النظر إليّ ولا عن الابتسام.

يزداد ابتساماً اليمني العجوز منذ ظهوره. لا بد أنه عرف حكاية منصور كلها. مسكين منصور. في اللحظة الأخيرة عرف أخوه الأكبر بأمر الوليمة. قيل إن أمه أخبرته وهو يدخل البيت عائداً من الدكان، أن منصوراً ذبح القروء التي اشتراها من السودان، وأنه اتفق مع بعض اعراب البادية على صيد عدد من الضباب، وأنه استجلب يمينين ليظهوا له هذا كله. لكن اليمينين كانا قد حملا شيئاً في السيارة ومضيا، ولحق الأخ الأكبر بمنصور وهو يركب سيارته الكابريس فمنعه من الحضور. هاجمه وضربه، وضربه منصور أيضاً، لكن الأخ الأكبر نجح في النهاية في ربط منصور إلى نخلة كبيرة بباحة البيت، وأسرع يحضر إلى الشركة. إنه هو الذي رأيته يضرب اليمينين بجنون، ويحاول بعد ذلك استرضاء الأمير.

في البداية لم أصدق القصة، لكن خبر نقل منصور إلى مصحة الأمراض العقلية بالطائف أكدها لي. عابد هو الذي أخبرنا، ثم

فمي صفعدة. هكذا أحسست بالضبط. فأمسكت بطني بيدي، ونهضت جارباً إلى دورة المياه، لكنني لم أنجح في أن أمنع نفسي عن التقيؤ قبل بابها، ولحق بي نبيل بسرعة، وأخذني من إبطي من الخلف، ومشى بي إلى البوفيه أكاد أسقط مغشياً علي، وسمعت صراخاً وهرجاً، ووقف نبيل بالباب يرى ما يحدث. الله. الله. ما هذا؟ ووقفت متصاملاً جواره فرايت شخصاً لم تسبق لي رؤيته، يطارد بالباحة اليمينين، ويشيع كل من تصن إليه يده منهما ضرباً حتى استطاعا الهروب من باب الباحة، فوقف هو يرفع غترته التي انزلت إلى الأرض، ويتقدم نحو الأمير الذي قام في غضب ومضى بسرعة خارجاً لا يتوقف له، وهو يحاول الاقتراب منه، ولم يفلح إلا عند باب الباحة في تقبيل رأسه وائفه وكتفيه، وملا الشيوخ الباحة بالحوار والصيحات والضحكات أيضاً. وصرخ عبد الله في الباكستانيين أن يحملوا الأكل ويلقوا به في الخارج، ورأيت أبا منصور يمشي متحنيلاً ولا يكف عن هز رأسه.

تحدث فيها الباكستانيون الذين عرفوا ذلك من زملائهم بالشركات الأخرى. عرفت ثوبك كلها القصة والنهاية، فلم يعد هناك شك في الخبر. لقد ذهب منصور إلى الكويت للمرة الثانية فوجد وداد تزوجت قريبها. لم يساعدها منصور في أي شيء، وكل ما قاله لي خيال اصطنعه هو وصدقته. عاد منصور من الكويت يلعن النفط واليوم الذي تقجرت به الأرض. من قبل كان الناس يأكلون سباع الصحراء، والضب حيوان نذير اللحم شهير أكله في البداية. لا بد أن منصوراً الذي لم يحضر الوليمة أعد القروود لنا نحن الغرباء. ولم يكن ليوافق أن توضع الصواني التي تحملها كيفما اتفق.

- لماذا لا تضحك هذه الأيام؟

سألني نبيل الذي سيسافر بعد غد إلى القاهرة. لم أشأ لسأله لماذا عاد اليمنى للظهور ولماذا يحضر اليوم مبكراً ولم أشأ أخبره أنني أشعر وكأنني مسؤول عما حدث لمنصور. ثم ماذا يفيد أن أحدثه عن وحدتي وتفكيري كل يوم في أن لا أحد حولي يتحدث معه. مضى أسبوعان الآن من الشهر الذي حدده لي صالح لأترك البيت، ولم أسمع للبحث عن مسكن آخر. دائماً أنسى ودائماً لا اتحسس إذا تذكرت.

قلت:

- اجلس معي قليلاً.

جلس وقد عاد الإشراف القديم إلى وجهه. نظر إلي طويلاً ثم اغمض عينيه وقال:

- لا أعرف لماذا أتذكر هذه الأيام قول أمي لي دائماً أن في شيئاً لك. من زمان وهي تقول لي ذلك. دائماً تذكرني بخالي الذي كان يأخذ مني فلوس الإذاعة ويعطيني الشيكولاته وكيف غرق في النيل، وكان يُعذ عن أشهر السباحين في أمبابه، والمدرس الذي كان يضربني في المدرسة الابتدائية حتى كرهت المدارس كيف سقطت فوق رأسه «قُلة»، من إحدى البلكونات فمات في الحال. والضابط الذي أخذني من المقهى إلى القسم مع غيري من الصبيان وتسبب في قضائي سنتين في إصلاحية الأحداث كيف سقطت به بلكونة في مديرية أمن الجيزة فمات رغم أنها بلكونة الدور الأول، وخطيبتني التي تركتني من أجل سائق تاكسي. تقول أمي إنه سيطلقها، لأنه اعتبرها شراً عليه إذ دهست سيارة جيش كبيرة التاكسي الذي يملكه وسوئته بالأرض ليلاً رغم أنه ركنه تحت شباك بيته.. لماذا أفكر في ذلك كثيراً هذه الأيام؟

ولم أجد إجابة. كنت محتاجاً إلى حديثه الحلو يُفرج همي ففاجأني بانقارزه. سألته

- هل اقتنعت أخيراً بزواج خطيبتك من سائق التاكسي؟

- لا أظن أن أمي تكذب طول الوقت.

- لماذا تصرّ على السفر إذن؟

- لا أعرف.

أجاب وعاد إلى الصمت قليلاً ثم قال:

- هل تظن أن في شيئاً لك حقاً؟ هل أنا طيب إلى هذه الدرجة ولا

أدري؟ هل يحبني الله إلى هذا الحد؟

تأملته قليلاً. وقلت وأنا أشعر بعطف غامر نحوه:

- لا اظن أن الله يكرهك يا نبيل.

هز رأسه وابتسم وقال:

- ليت خالي اعطاني الفلوس ولم يمته، وليت المدرس تركني
فتعلمت ولم يمته، وليت الضابط لم يدفع بي إلى إصلاحية
الاحداث وعاش، وليت خطيبتني لم تهجرني.

وأجهش ببكي فجأة ثم قام وتركني.

جلست وحدي بقية اليوم، انهمكت في ترجمة تقارير لا اعرف
أحداً ممن يكتبونها من الفنيين الاميركان، عن مواقع عمل لم ازرها
رغم كل هذا الوقت، ولا استطيع بين حين وآخر ان اضع نفسي عن
النظر ناحية اليمن، فأجده ينظر إلي ولا يكف عن الابتسام.

من قبل، حين كنت انظر اليه كان يحس بنظراتي فينادلني النظر
ويبتسم. اليوم والأيام القليلة السابقة منذ وليعة منصور، لا يبعد
عينيه عني. وحين عاد غاب من البلدة يحمل خطاباً في قرائ اسم
علاء خلف المظروف فاهملت قراءته حتى اعود الى البيت. لم احب
أن اضايق نفسي بشيء يطلبه علاء مني، او بمشكلة ثارت بينه وبين
أختي ويريد رأيي فيها. هناك استطيع ان افتح التليفزيون أو اترك
البيت نفسه وأمشي في البلدة بحرية.

٣٠

«لم احب ان القاك يوماً فتلومني. لقد آثر الجميع اخفاء الخبر
عك حتى لا ترتبك في عملك، لكنني أدرك شجاعتك وقدرتك على تحمل
المصعب، لذلك شئت أن اخبرك رغم ما في ذلك من ألم. ألم لك لأنها
والدتك الحبيبة، وألم لي لأنني خالفت ما أجمعت اسرتك عليه. لقد
توفيت الوالدة منذ أسابيع وقمنا بدفنها وعمل ما يليق لها من جناز،
وأرجو أن تتقبل خالص عزائي، وعزاء أسرتي، فلقد كانت والدتك أما
لنا جميعاً، وأرجو من الله أن يقوي عزيمتك، وأن تكون كما قدرت
تماماً الإنسان القوي الذي يدرك حكمة الله، وأن تستمر في عملك
واتقاً أننا هنا، انا والأسرة، نرعى اخوتك كاخوة لنا».

ولم انه الليل امس ولا احسب أنني سأنام الليلة ايضاً. لم
استطع العودة إلى العمل لأخبر أحداً، ولم استطع البقاء في البيت
إلا بعد أن درت في البلدة قاصداً كل شوارعها وكأني وحدي أمشي
بين اطلال لا صوت فيها لأحد.

- أمي الصباح عليّ وأنا أدق رأسي إذ كيف ضاعت مني صورة
وجه أمي إلى الحد الذي لم أنجح ولومرة في استحضاره. هل يلحق
الموت بالخيال أيضاً؟

أذهلني الجمود الذي حط فجأة علي فصرت مثل حجر. لقد درت في البلدة غير واعي حقاً بما حولي، لكن ذهني لا يعمل. مضى علي الليل طويلاً، شديد الطول حقاً، لكن ذهني لا يعمل. هل كنت اتوقع هذه النهاية لأمي ولا أدري؟ ويريدني أن أكون كما قدر هي، الإنسان القوي الذي يدرك حكمة الله وأن استمر في عملي. علاء الذي لا أعرف في أي ركن كان قابلاً وقفز منه ليستولي علي حصاد شقائي يريدني أن أستمر وهم، إخوتي، لعبة أبي المقيتة، أخفوا عني الخبر كي استمر في عملي. لا يريدون تعطيلي عن إعداد نفسي بما يجب وبما يسعى كل شباب هذا الزمان لأعداد انفسهم به. المال الذي يتفرق علي ما قدفتنا به مصر من شرور. لقد اشتقت كثيراً إلى فار. فار واحد يخطيء ويدخل البيت بعد هذا الانقطاع. لن أقتله. مشتاق إلى سماع صوت خربشاته وقفزاته وهو يمرح لاهياً واثقاً من براعة الدنيا حوله.

بالطبع لم يصدق عابد ولا نبيل الخبر. لقد راووني اعمل هادئاً، لكنني اظهرت الخطاب لعابد الذي ارتبك.

— هل ستسافر؟

— غداً.

— لكن...

— سيوافق عم عبد الله.. لن يرفض شيئاً كهذا.

قلت له حاسماً. وبعد قليل جاء عم عبد الله إلى المكتب، وقيل أن أذهب إليه جاء هو إلي. لقد أخبره عابد. صافحني وقدم إلي عزاءه، وسألني ما إذا كنت محتاجاً إلى أي شيء فشكرته، وأمر عابد أن يذهب إلى الجوازات لاستخراج فيزة لمدة شهر. وإن يشتري لي

تذكرة في عودته لاسافر غداً مع نبيل. لم يقل هو مع نبيل. فكرت أنا بسرعة وهو يصدر لعابد أوامره. ولم يضايقني ظهور اليمني اليوم صكراً أيضاً ولا ابتسامته التي لا تختفي. فقط في طريق عودتي اشتقت إلى الذهاب إلى المستشفى، لأرى عابدة وأقول لها لقد انقطع كل ما بيني وبين الناس في مصر، وادركت أنني لن أجد لها. تذكرت القصة كلها. والآن في غرفتي. في البيت الذي علي أن أتركه نهائياً لصالح، أود لو أخذ سيارتي وأسرع إلى بيت واضحة أبكي في صدرها. يا الهي! أتذكر الآن أنني وأنا أدور في البلدة مساء أمس صامتاً غير مدرك لما حولي. رأيت دكانة أخيها خالد مغلقة لا تزال. وفكرت فجأة أنهما توأمان. تذكرت شدة الشبه بينهما. ثم تذكرت أن خالد أكبر بكثير. وكما حدث أمس اشتقت اليوم إلى فار يخطيء ويدخل. وكما لم يحدث أمس اشعلت التليفزيون، لكن الإرسال كان قد انتهى من وقت طويل حتى أنني أرى الصباح يجاهد للانعتاق من ظلام هذه الليلة الحارة الخائفة، وكان علي أن اظل أجاهد النوم الذي بدأ يغتالني الآن. لو نمت ما استيقظت إلا في المساء، ولا أحسب أن طرقات عابد الذي سيأتي ليحملني إلى المطار ستوقظني أبداً.

— أراك اليوم أفضل من الأمس.

قال عابد الذي جاء في الثامنة صباحاً ووجدني في انتظاره. لم أريد. لا أظن أنني كذلك. وحملت حقيبة كبيرة فحملها عني وترك لي الصخرة أحملها. بانث الدهشة علي وجهه وأحسست به يكاد يسألني كيف استريت ما في الحقائق رغم ما يبدو علي من حزن،

ولم أشأ أخبره بأنه ليس في الحقائق إلا كل متاعي الخاص الذي جئت به من القاهرة، وأشياء قليلة كنت اشتريتها من قبل. لم يعد لي في البيت شيء. حتى التليفزيون، الذي تركه فاروق ثم تركه سعيد، ثم تركه وجيه، تركته أنا.

وقاد السيارة على مهل، ليس لأن الطائرة ستقلع في العاشرة، لكن لجلال الموقف. هكذا فكرت. كنت محتاجاً إلى أن أرى البلدة مرة أخيرة بانتباه، ولم يكن ممكناً طلب شيء هكذا منه، والمسافة من بيتي إلى طريق المطار قليلة لا تمر من وسط البلدة.

- لقد ذهبت بنجيل منذ قليل.

قال ولم أرد.

- نجيل سيسألك في السفر.

ولم أرد.

- أرجوك أن تعود لنا بسرعة، الموت معلق على رقاب العباد.

ولم أرد. وأحسست به خجلان إذ صمت ولم يتكلم بعد ذلك، وأنا فكرت في هذه الروح المعادية له بلا سبب تقفر من جديد.

دخلت السيارة إلى طريق المطار ذي الأسفلت الأسود اللامع الذي تنعكس فوقه أشعة الشمس متموجة تذكرني بعدم استوائه. لقد صعدت الشمس اليوم بسرعة إلى السماء، وتملكت الدنيا في وقت مبكر، ولم يكن حول الطريق إلا زمال وكثبان.

هذا طريق أعرفه، لكنني أراه اليوم وكأنني أراه لأول مرة، ولا أستطيع أن أكف عن النظر إلى الناحيتين لأرى شيئاً حولي غير

الكثبان. رأيت الكلب الأبيض الضخم مثل الحمار الشارد يجري بسرعة وفوق ظهره شيء أسود اتضحت صورته وأنا افتح عيني على اتساعهما. إنه قرد ذلك الذي يركب الكلب المسكين الذي لا يتوقف عن الجري بسرعة مذهلة. لم ينتبه عابدي إلى المشهد، وكدت أهتف له أن ينظر إليه، لكنني ابتلعت ربقي الذي أحسست به جافاً، والتفتت الورى عنقي لأنظر من الزجاج الخلفي، فأرى الكلب لا يزال يجري والقرد لا يزال فوقه. لكن الطريق ينحني، وسيارتنا هي الأسرع، والمشهد كله يغيب عني. وتأخذ مكاتب انشركة مكان الكلب والقرد فالتفت أنظر أمامي. هذا قرد منصور لا يد. قلت لنفسى هامساً.

- كل من عليها فلان يا اسماعيل. نحن ستركب طائرة ونمضي ساعة ونصفاً بين السماء والأرض ويمكن جداً أن تسقط بنا.

كان نبيلاً يحدثني وأنا لا أنظر إليه.

في البداية، حين وصلنا إلى المطار، وبعد أن تركني عابدي ودخلت إلى الصلاة، أحسست بالبهجة تشع من كل شيء حولي. عدد كبير من أهل البلدة وعدد أكبر من المصريين لا يكفون عن الحركة والكلام، وقد ارتدوا جميعاً ملابس زاهية نظيفة، وكثير من الأطفال يتحركون في عفوية ويدورون ضاحكين حول الحقائق الملونة. وشعور طيب يبعثه مكيف الهواء، ووجوه الشباب الصغار خلف الميزان ومكاتب الجوازات نضرة هادئة، وشملني حقاً شعور بالراحة والرضا، وبدأ أني نسيت تعاماً موت أمي، وأشعلت سيجارة، وقدمت أخرى لنبيل، وأبتسمت، لكنني الآن أرى ما لا يراه نبيل.

رايت نبيلاً يتحدث مع المصريين، فأدركت أنه يتقصّى قصة سيد الغريب.

لماذا لم يحاول أن يسألني حقاً؟

- يقولون إنه طيب....

وقاطعته قائلاً:

- اعرف القصة كلها.

لقد اطلقوا سراحه اليوم. يقولون إن وكيلاً جديداً لوزارة الصحة زار تبوك وعرف قصته فطلب أن يراه. كان هذا الموكيل زميلاً له في الجامعة في مصر، وهو الذي رتب امر ترحيله دون محاكمة، إنه محفوظ جداً.

ولم افكر فيما إذا كان سيد الغريب محفوظاً، فكرت كيف يعرف الناس في تبوك كل شيء ولا أعرف أنا شيئاً. ويذا المسافرون في الانتظام في طابور طويل لوزن ما معهم من متاع.

احسست في المسافة القصيرة بين باب النصاله وباب الطائرة أنني انا والكون شيء واحد، ساخن وفارغ، وقدرت كيف أسرع نبيل ليسبقنا جميعاً ويصعد سلم الطائرة هارباً مما تقذفنا به الشمس من لهيب رغم أن اتساعة لم تتجاوز التاسعة والنصف. لكن نبيلاً كان يبدو خائفاً وهو يقترب من الميزان. قال لي إنه خائف من هذه الرحلة، وإنه حين ركب الطائرة اول مرة لم يخش شيئاً. قلت له إن الخوف شعور طبيعي في السفر بالطائرات. ولم أر صفة وجهه تعود إلى صفاتها إلا بعد أن تركنا صالة السفر ودخلنا إلى أرض

عربة جيب تقف امام باب النصاله ينزل من بابها الامامي ضابط شاب يتقدم بسرعة الى الجوازات وفي يده جواز سفر اخضر يدفع به إلى الموظف الشاب الذي يتسلم، ومن الخلف نزل شرطيان وجذا رجلان نزل ووقف بينهما فدفعاه أمامهما خلف الضابط. انه سيد الغريب. هو نفسه بلحيته الطويلة ونفس بنطلونه الذي رايت يرتديه من قبل وفوقه يرتدي قميصاً لم يجد الوقت، أو لم يشأ، ليفسله ويكويه. لقد رأيت فور نزوله من العربة كما رأيت، ونظر الي كمن كان يعرف اني في انتظاره. يذكّرني كما اذكره بلا شك. ولم اره ينظر الى أحد آخر. أدخلوه من باب الى غرفة ولم نره بعد ذلك، لكن المسافرين جميعاً أدركوا المسألة الآن، وبدأ المصريون يتحدثون في هدوء. لم يكن صعباً أن يدرك نبيل ما يحدث، فبعد أن حدثني نظر إلى حيث انظر وقال:

- مقبوض عليه ويُرَحَّل. يا ساتر يارب!

ورأيت وجهه يمتقع ويشحب، وابتعد عني، وراح يدور بعصبية بين المسافرين لوقت ليس بالقصير.

أدركت أن سيد الغريب سيصعد إلى الطائرة قبلنا جميعاً، فلا متاع معه لوزنه، واجراءات سفره لا بد تتم الآن. وأن الشرطيين سيصحبانه حتى يجلس بالطائرة، وأننا لن نرى شيئاً من ذلك، سنجده جالماً في الطائرة حين نبعده اليها.

بدأ من حديث المصريين الهامس أنهم يعرفون قصته، لكن الدهشة كانت ترشح على كثير من الوجوه، ورأيت الخوف ايضاً على وجوه كثير من النساء اللاتي أرى وجوههن مكشوفة الآن. نحن في المطار.

المطار. لقد سبقنا جميعاً، وتأخرت أنا الذي مشيت على مهل أنظر ناحية اليمين فأرى طائرة هليكوبتر صغيرة صفراء على جانبها صورة العلم الأمريكي وتحتته قرأت (القوات الجوية للولايات المتحدة الأمريكية). وأنظر يساري فأرى طائرة هليكوبتر أخرى.

جلستُ صامتاً بجوار نبيل الصامت. رأيت سيد الغريب يجلس في المقعد الأول خلف كابينة القيادة، بعيداً عنا جميعاً في الدرجة الأولى التي لا يشغلها أحد. لا بد أنهم اختاروا له هذا المكان حتى لا يكلمه أحد. توقعت أن يعلق نبيل على هذا الكرم في الترحيل، لكن نبيلاً كان لا ينظر إليّ. شَخَّص بعينه إلى لا شيء، وراح يقرأ الفاتحة، أكثر من مرة بصوت أسمعه بوضوح رغم صوت محركات الطائرة.

ربطنا الأحزمة، وامتنعنا عن التدخين، وطاقفت علينا إحدى المضيفات بلعبة البونبوني. وتحركت الطائرة بسرعة هائلة فوق مصر، وازدادت سرعة نبيل وهو يقرأ الفاتحة، وانخلعت الطائرة مرتفعة عن الأرض، فرايته يغمض عينيه، وسمعته يقول: «الحمد لله». واستوت الطائرة في الفضاء، فراح الركاب يفككون أحزماتهم، وتهد نبيل وقال:

- الآن ليحدث ما يحدث.

رَبْتُ على ساقه أشجعه فقال:

- أنا لن اعود مرة أخرى.

نظرت إليه في دهشة. قال:

- هذا قراري ولا رجعة فيه. كل فتاة سأخطبها ستتركني وتزوج. لا بد أن اظل في مصر لاحافظ على ما أملك.

وسكت لحظة وقال:

- أنت أيضاً يجب أن لا تعود.

تأملته وقالت:

- أنا بالفعل لن اعود يا نبيل.

- ستبقى في مصر؟

سألتني وقد اتسعت عيناه ببهجة مفاجئة. قلت:

- لا.

ورأيت الدهشة تأخذ مكانها فوق وجهي، وأنا لا أعرف كيف أحبت بذلك. لكن لا إجابة أخرى عندي حقاً هذا ما أشعر به كأنه يقين، وجاعنا صوت قائد الطائرة:

«أيها السادة سوف تعود الطائرة إلى المطار بسبب عطل فني بسيط. نأسف على هذا الإزعاج، ونأمل تعاونكم معنا بالحفاظ على هدوئكم، والبقاء في مقاعدكم، والامتناع عن التدخين، وربط الأحزمة».

- ها نحن فيما يبدو لن نساfer اليوم.

قلت، لكن لم يبد أن نبيلاً استمع إلى شيء من كلامي. امتنع وجهه وشحبه، وزاغت عيناه. وتضاؤل في مقعده كمن يود الاختفاء.

- نبيل! ماذا حدث؟

كان ينظر إليّ في رعب.. رعب لم أعرف من قبل أنه يمكن أن يصيب البشر. ولم تكن قد ارتفعنا كثيراً. لقد أحسست بالطائرة تهبط، ولم أجد وقتاً لأنادي بإحدى المضيفات إذ انشغلت بربط

حزامي حولي، ثم رحت أربط حزام نبيل حوله، وهو ذاهل عني لا يكاد يحس بي.

ارتطمت عجالات الطائرة بالأرض بقوة افزعتنا، فارتفعت صيحات الركاب، وكاد قلبي ينخلع وأنا أرى نبيلاً يتصاعل أكثر، وسمعت صوت صغير المحرك العالي، وصوت احتكاك العجلات القوي بالأرض، وسمعت بالكاد صوت نبيل وهو يقول:

- لا يوجد عطل فني يا استاذ اسماعيل.

.....

وفي اللحظة التي توقفت فيها الطائرة، رايت من خلف زجاج النافذة الصغيرة عدداً من الجنود يقبل نحوها بسرعة.

- لا يوجد عطل فني يا استاذ اسماعيل. ليئك تقويم من جوارى الآن. لقد سرقت الخازنة، عرفت رقمها أخيراً، وأخذت منها خمسين ألف ريال خبأتها في العفش.

بسرعة انفتح باب الطائرة، وبسرعة وجدت جوارى وأمامي ثلاثة من الجنود ينقضون على نبيل يجذبونه بقوة وأنا عاجز حتى عن الكلام، والركاب جميعاً ينظرون إلى ما يحدث في هلع، والمضيفات المصريات وقفن مشدوهات منكشحات جوار بعضهن يكنن يتلاشين والغزع على وجوههن، ولم أروجه سيد الغريب. ظل جالساً في مكانه لا يتحرك ولا يهتم بأن يعرف ما يدور بالطائرة.

من النافذة الصغيرة أيضاً رايت عم عبد الله وعابداً يقفان

ومعهما الضابط الكبير أبو حكيم وحولهم عدد من الجنود، والجنود الثلاثة يدفعون نبيلاً ناحيتهم، ولا يكفون عن ضربه على قفاه ومؤخرة رأسه بأيديهم، وركله في ظهره بأرجلهم، ورايت عابداً يتقدم بسرعة نحو نبيل يقابله بركلة شديدة في بطنه، فينحني نبيل، ولا يكف الجنود عن ضربه على ظهره وقفاه ورأسه، وعابداً يعود إلى الخلف خطوة ثم يهجم ضارباً بكل قوته، مرة بيده، ومرة بقدمه، حتى سقط نبيل فوق الأرض عن ظهره، ورايت الدم يغطي وجهه، لكنهم انحنوا يمسكون بقدميه يجرونه جراً، بسطونه، على أرض المطار، ويدويون من خلف الطائرة فلم يعد ممكناً لي رؤيته، لكن الجالسين في الجانب الآخر الذين كانوا قد اندفعوا إلى جانبنا يحاولون الرؤية معنا، أسرعوا بالعودة إلى جانبهم، ووقفوا متزاحمين ينظرون من النوافذ الصغيرة. ولم أحاول معاودة النظر.

حضرات الركاب.. نعتذر لكم عما حدث منذ قليل، ونوجه عنايتكم إلى أننا سنقلع على الفور. رجاء الجلوس في مقاعدكم والتمزام الهدوء، وربط الأحزمة والامتناع عن التدخين. نتمنى لكم رحلة طيبة ووقتاً سعيداً على طائرات الخطوط الجوية السعودية.. شكراً.

ورأيت المضيفات يتحركن بسرعة، وراحت واحدة منهن تدور علينا بعلىة البونبوني مرة أخرى، وكان قائد الطائرة يعيد ما قاله منذ قليل، لكن باللغة الانكليزية.

القاهرة

١٩٨٨ - ١٩٨٦

منتديات مكتبة العرب

<http://library4arab.com/vb>

منتديات مكتبة العرب

<http://library4arab.com/vb>

المسألة الأخرى

«تعوك» هي إحدى مدن المملكة العربية السعودية وهي المكان الذي تجري فيه أحداث هذه الرواية.

الراوي كونه موظفاً مصرياً هاجر إليها للعمل، يقدم لنا عبر سرية تجريبه في الإقامة والعيش، وصفاً حياً لأوضاع المهاجرين أمثاله من مصريين وأميركان وباكستانيين وكوريين. كذلك لعادات وتقاليد سكان المدينة وسلوكهم. فتجد أن القديم جداً في تلك المدينة العربية يسير بحفاوة الجديد. في جو من الطرافة المثيرة. ونجد شخصيات الرواية وناسها يندفعون نحو مصائر غريبة تتسبك فيها النساء بالمهانة.

منتديات مكتبة العرب

<http://library4arab.com/vb>

منتديات مكتبة العرب

<http://library4arab.com/vb>



1855131757